مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTER FOR STUDIES

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

دهام محمد العزاوي

مسيحيو العراق

محنة الحاضر وقلق المستقبل



مسيحيو العراق

محنة الحاضر وقلق المستقبل

مسيحيو العراق

محنة الحاضر وقلق المستقبل

دهـام محمد العـزاوي

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-614-01-0250-7

مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTER FOR STUDIES

الدوحة - قطر

هواتف: 4930181 -4930183 -4930218 (974+)

فاكس: 4831346 (974+) - البريد الإلكتروني: E-mail: jcforstudies@aljazeera.net

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص. ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

المحتويات

المقدمة

إذا كانت مطالب الأكراد والشيعة منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة مطلع عشرينيات القرن الماضي، قد شكلت إحدى معوقات الوحدة الوطنية للعراق، فإن استقرار المسيحيين في العراق -تاريخيا- واندماجهم بمشروع الدولة العراقية الحديثة قد شكل أبرز دعائم وحدة العراق الوطنية، وركيزة استند إليها أغلب الحكومات العراقية في تشكيل معالم هوية وطنية يتعايش في ظلها الجميع، وبغض النظر عن انتماءاتهم الإثنية، حيث اندفع المسيحيون للمشاركة بكل فعاليات المجتمع العراقي الرسمية، والشعبية، فشاركوا في ممارسة الحكم وزراء ودبلوماسيين ومستشارين، وانخرطوا في الجيش، ومؤسسات العراق الأمنية والاقتصادية والثقافية والفنية والرياضية، وسكنوا معظم محافظات العراق وأحيائه، متجاورين مع المسلمين ومشاركين لهم في أفراحهم وأتراحهم.

ومن المؤكد أن إسهام المسيحيين وانغماسهم في الواقع السياسي والاجتماعي العراقي لم يكن نابعا من رغبة مسيحية في إثبات الذات، وحجز مقعد في ساحة العراق الكبيرة، كما لم يكن نابعا من سلوك مندفع تنتهجه الأقليات الصغيرة والمهمشة لكي تثبت وجودها وحضورها، وإنما كان نابعا من رغبة في العمل الدؤوب لخدمة العراق، والمشاركة في بنائه، بغض النظر عن شعور الأغلبية والأقلية، وبعيدا عن أي شعارات طائفية أو دينية يرفعها هذا الطرف أو ذاك.

فالمسيحيون هم أبناء العراق الأصلاء، عاشوا فيه تاريخيا، وساهموا بإبداعاتهم ونتاجاتهم في إحياء النهضة العلمية والفكرية التي عاشتها بغداد زمن العباسيين، لا سيما مع الحرية الدينية والفكرية، وأجواء العدل والحرية التي أتاحها الإسلام لغير المسلمين. وقد شهد التاريخ لشخصيات مسيحية كان لها -ولا يزال- رصيدها من الإبداع والتألق في تاريخ العراق القديم والمعاصر.

ومن المؤسف أن يتعرض المسيحيون في العراق وفي ظل الاحتلال الأمريكي للعراق 2003 لعملية تصفية واقتلاع من أرضهم وأماكن عيشهم وعبادتهم، بعد أن طالتهم يد القتل والترحيل والتهجير القسري على يد جماعات إرهابية وتكفيرية، وتحت ادعاءات متنوعة تهدف بالنتيجة إلى إفراغ العراق من وجودهم التاريخي، والإخلال بالتركيبة الاجتماعية العراقية القائمة على التعايش والاندماج.

وقد أثار الاحتلال الأمريكي للعراق وما نجم عنه من تدمير لمعالم الدولة العراقية ومؤسساتها، وتفكيك لبنيتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وإشعال للحرب الأهلية بين مكوناتها الإثنية، وما رافقه من قتل للعلماء وتهجير للمدنيين، وبناء عملية سياسية مشوهة تقوم على المحاصصة الطائفية والعرقية، تساؤلات مشروعة حول واقع ومستقبل الوجود المسيحي في العراق، فهل ما حصل من عمليات استهداف منظم للمسيحيين وأماكن عبادتهم وقتل لرجال دينهم وعلمائهم وتهجير أبنائهم كان يستهدف المسيحيين دون غيرهم؟ أم إن هذه الأعمال كانت تطول جميع فئات المجتمع العراقي بغض النظر عن انتماءات العرق والطائفة والدين؟ ومن القوى المحلية التي تقف وراء استهداف المسيحيين؟ وما المصلحة

السياسية التي تجنيها تلك القوى من وراء استهدافهم وتهجيرهم خارج العراق؟ وما موقف القوى السياسية العراقية الرسمية والشعبية مما جرى للمسيحيين من عمليات اجتثاث وتهجير؟ فهل كانت موحدة المواقف والآراء؟ أم إن تناقضاتها السياسية ومصالحها الذاتية كانت دافعا لاختلاف مواقفها من محنة المسيحيين؟ وهل تبنت تلك القوى آليات عملية لوقف الاستهداف المنظم للمسيحيين عبر حمايتهم ودعمهم وتعويض المتضررين منهم، واتخاذ إجراءات أمنية، واقتصادية لتسهيل عودة المهجرين منهم إلى مناطقهم، وتقديم المساعدات الإنسانية لهم؟ ثم، ما موقف القوى الدولية من واقع المسيحيين المقلق، ولا سيما الولايات المتحدة التي غزت واحتلت العراق، ونشرت إستراتيجية الفوضى الخلاقة عبر تدمير مؤسسات الدولة العراقية، وإشاعة الاحتراب الداخلي بين العراقيين عبر فرق الموت والمليشيات التي رعتها؟ فهل ارتقى الموقف الأمريكي إلى مستوى مسؤوليتها دولة احتلال، ومنعت عمليات الاستهداف المنظم لأماكن العبادة المسيحية ولأماكن عمل وسكن المسيحيين؟ أم إن مواقفها كانت انتهازية وازدواجية بل ومشجعة للعنف ضد المسيحيين؟

لقد كان واضحا أن الولايات المتحدة التي جاءت بإستراتيجية التفكيك الإثني والتقسيم الطائفي وانتهجت سياسة شرذمة العراق على أساس العرق والدين والمذهب، لم تكن حريصة على وحدة الشعب العراقي وترابط مكوناته الطائفية والقومية، كما أنها لم تكن حريصة على ممارسة أدنى مسؤولياتها كدولة احتلال، ووفق قواعد القانون الدولي الذي حدد بموجب اتفاقيات جنيف 1949م مسؤوليات الدولة المحتلة في الحفاظ على هوية البلد المحتل وتراثه ومنع

تقسيمه، والتوقف عن ممارسة أي أعمال وممارسات تؤدي إلى إثارة الحرب الأهلية بين مكوناته.

إن هذا الكتاب معني بالإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها، ويهدف إلى تسليط الضوء على ما يعانيه المسيحيون في العراق من ممارسات تهميش وقتل وترحيل، وما نجم عن ذلك من تزايد هجرتهم خارج العراق، مما قد يدفع بالنتيجة إلى تناقص أعدادهم، وربما تلاشي وجودهم في المستقبل المنظور، الأمر الذي سينعكس على واقع التعايش والاندماج الاجتماعي والتعددية الثقافية التي تمتع بها العراق طيلة تاريخه القديم والحديث.

لقد انطلقت الدراسة من فرضية مفادها أن الوجود التاريخي للمسيحيين في العراق يتعرض للتهديد في ظل استمرار السياسة الأمريكية الرامية إلى تفكيك النسيج الاجتماعي العراقي وإعادة صياغة البنية السياسية والاجتماعية وفق نمط التفكيك والتقسيم الذي يلبي مصالحها في العراق، وفي ظل رغبة القوى المحلية المتحكمة في المشهد السياسي العراقي من فرض ولايتها ووصايتها على العراق والاستئثار بحكمه وتهميش الآخرين عبر ممارسة شتى أنواع التضييق والتهميش والأبعاد والتهجير ضدهم، وهو ما سيرتب آثارا سلبية واضحة على مستقبل الوحدة الوطنية في العراق، التي اتسمت طيلة قرون طويلة بالتعايش والاندماج.

وفيما يخص منهجية الدراسة فقد تم اعتماد المنهج التاريخي، بهدف معرفة الأبعاد التاريخية للوجود المسيحي في العراق، وما نجم عنه من إسهامات مؤثرة للمسيحيين في تاريخ العراق القديم والحديث، فضلا عن المنهج التحليلي لتفسير ظاهرة استهداف المسيحيين في العراق بعد العام 2003، والأسباب المحركة لها، وما

يترتب على استمرارها من تصورات مستقبلية على الوجود المسيحي في العراق.

أما عن تقسيمات الدراسة فقد قسمت إلى خمسة فصول رئيسة وفصل تمهيدي، أما الفصل التمهيدي فقد تعرضنا فيه لخصائص الهوية المسيحية بين الوحدة والانقسام، مبينين فيه مقومات الوحدة في الواقع المسيحي، والمعوقات التي تواجه العمل المسيحي المشترك، وأما الفصل الأول فقد تناولنا بإطلالة تاريخية بداية الانتشار المسيحي في بلاد ما بين النهرين والعوامل التي ساهمت في ذلك، وما نجم عنه من ظهور حواضر مسيحية لا يزال صداها حاضرا في تاريخ العراق المعاصر.

وأما الفصل الثاني فقد تناولنا فيه الدور المسيحي في الحضارة الإسلامية، وما ترتب عنه من إسهامات لعلماء مسيحيين في الحضارة الإسلامية، وفي مختلف التخصصات العلمية والأدبية. وفي الفصل الثالث تعرضنا للوجود المسيحي إبان الغزو، والاحتلال المغولي للعراق وما نجم عنه من تعرضهم -كبقية شرائح المجتمع الإسلامي- للتنكيل رغم ما بدى من تعاون لبعض المسيحين مع قوات الاحتلال المغولي ضد الدولة الإسلامية، كما تعرض الفصل للوجود المسيحي في ظل الدول العثمانية وكيف تمتع المسيحيون في ظل نظام الملة العثماني بكامل حقوقهم في المواطنة، والعدالة والمساواة. وكيف أسهم تمتع المسيحيين بهذه الحقوق في تصاعد نظام الوصاية والتدخل الغربي في شؤون الدولة العثمانية تحت دعاوى حماية المسيحيين، وهو ما أدخل المنطقة العربية في دوامة الاستعمار الغربي الحديث.

أما الفصل الرابع فقد تناولنا فيه الوجود المسيحي في الدولة العراقية الحديثة، وكيف تغلغل المسيحيون في كل مفاصلها

مساهمين وبشكل فاعل في نهضة العراق وتقدمه في ميادين الحياة العلمية والإنسانية. وأخيرا جاء الفصل الخامس، وتناولنا فيه الواقع المسيحي في ظل الاحتلال الأمريكي للعراق، حيث تطرقنا للإستراتيجية الأمريكية والإسرائيلية في تفكيك النسيج الاجتماعي للعراق، وبما يؤدي إلى إجهاض دوره الإقليمي وإضعاف قوته على نحو يديم الوجود الأمريكي فيه. كما بينا الموقف المسيحي من نظام المحاصصة الطائفية في العراق، وما ترتب عليه من تهميش للوجود المسيحي، ووصفهم أقلية صغيرة لا تتمتع بأي وزن سياسي في المعادلة السياسية القائمة الآن. كما تطرقنا إلى أسباب استهداف المسيحيين، والقوى التي تقف وراء ذلك، ومواقف القوى المحلية والدولية من حملات التصفية التي يتعرض لها المسيحيون وتناقضات المصالح بينها. وأيضا تناولنا جانبا من المعاناة التي يعانيها المسيحيون في ظل واقع التهجير، والترحيل القسري من أماكن وجودهم، والدعوات التي بدأت بعض الأطراف المسيحية تتبناها لتشكيل إقليم أو منطقة آمنة للمسيحيين تتمتع بالحكم الذاتي، ومواقف التأييد والرفض لها.

وفي الخاتمة تناولنا مستقبل الوجود المسيحي في العراق برؤية لا تخلو من التشاؤم في ظل استمرار سياسة الفوضى والتفكيك التي يتبناها الاحتلال الأمريكي، والقوى المتسربلة بمشروعه السياسي في العراق.

وفي الختام نأمل أن يكون هذا الكتاب قد أماط اللثام عن مشكلة من مشكلات الوحدة الوطنية التي أثارها الاحتلال الأمريكي في العراق بعد العام 2003. وإذا كانت بعض المشكلات قد اعتورت الكتاب من حيث عدم القدرة للوصول إلى بعض المصادر التي

تكشف عن التفاصيل الخفية التي تقف وراء ما يحصل للمسـيحيين، فإن عذر القارئ الكريم للكاتب أنه تمكن في ظل ظـروف العـراق القاهرة من كشف بعض جوانب الحقيقة فيما يجـري للمسـيحيين وغيرهم من سياسة استهداف وإقصاء وتهميش تهدف بالمحصـلة إلى تفكيك اللحمة الوطنية للعراق عبر إفراغه من مكوناتـه الرئيسـة، وضرب سلمه الأهلي، وتعايش أبنائه التاريخي.

د. دهام محمد العزاوي

بغداد في يوليو/تموز 2011

الهوية المسيحية..

الخصائص والانقسام

أولا: خصائص الوحدة المسيحية

حينما نتذكر المسيحيين في العراق نتذكر دورهم في إشاعة ثقافة التعايش والاندماج في المجتمع العراقي، عبر سلوكياتهم المسالمة وحبهم للتعايش مع الآخر وأمانتهم في العمل وإخلاصهم للأرض التي عاشوا عليها عبر آلاف السنين، فضلا عن حبهم وتمسكهم بدينهم وثقافتهم، وهويتهم الذاتية. لقد شكل المسيحيون وغيرهم من أقليات العراق الأخرى عنصر توازن واستقرار في مجتمع كانت الصراعات السياسية والغزوات العسكرية والاحتلال الخارجي والصراعات الداخلية صفة ملازمة له عبر تاريخه الطويل، فحافظ المسيحيون على استقلالهم ووجودهم بعيدا عن التوجهات السياسية، أو النزاعات الأيديولوجية والاجتماعية لهذا الطرف أو ذاك، فكان أن حافظوا على وجودهم من الاندثار في وطنهم العراق، لقد تميز مسيحيو العراق بخصائص وسمات معينة لا تزال لصيقة بهم جماعة دينية تسعى للحفاظ عليها، علما بأن تلك الصفات قد تكون نسبية ومتغيرة، نظرا لتغير واقع المسيحيين وتطلعاتهم وأهدافهم، وفقا لكل مرحلة من مراحل وجودهم في العراق، ولعل أبرز تلك الخصائص هي:

أولا: شعور غالبية المسيحيين بأنهم أقلية عددية داخل أغلبية إسلامية، ولا يخفى لما لهذا الشعور من آثار نفسية في سلوك المعتقدين به، حيث يشكل عنصر ضغط على أبناء الأقلية للحفاظ على خصوصياتهم الدينية وهويتهم الثقافية من جهة، أو اللجوء للهجرة إلى خارج الوطن إلى ديار الأغلبية المسيحية، وقد بدأت الهجرة المسيحية في العراق قبيل قيام الدولة الوطنية في مطلع العشرينيات وأثناء الحكم الإسلامي العثماني، وتواصلت بعد قيام الدولة العراقية وتمركزت هويتها العربية الإسلامية، وتصاعدت وتيرتها في العهود الجمهورية، حيث ازدادت انتهاكات حقوق الإنسان العراقي عامة، وتراجعت معدلات التنمية، وتضاءلت فرص الاستقرار السياسي مع كثرة المشكلات الداخلية والحروب الخارجية.

ثانيا: إنه وبسبب الشعور الأقلوي وتصاعد وتيرة الاستبداد السياسي مع ما رافقه من استحواذ الأغلبية العربية المسلمة في العراق على جل المناصب السياسية والإدارية والأمنية، درج المسيحيون ومن أجل تحسين فرصهم في البقاء والمنافسة مدرج التخصص في العمل، وفي بعض فروع الإنتاج والصناعات، وعبر التركيز على بعض المهن التي لا تتمتع بالمنافسة والاحتكاك مع الأغلبية المسلمة، فكان ذلك عاملا في بروز المسيحيين في ميادين هامة كالطب والهندسة والتجارة والصناعة والأعمال المتعلقة بالصحة العامة[1]، فكان منهم المهرة والحاذقون الذين رفدوا المجتمع العراقي بخبرات، وطاقات ساهمت في تطوره عبر أجيال.

ثالثا: إن شعور الخصوصية والعزلة عند مسيحيي العراق لا يعني أنهم عاشوا في مجتمعات مغلقة ومنعزلة، أو غيتوات على شاكلة اليهود، إذ لم تمنع خصوصيتهم الدينية، من اختلاطهم واندماجهم الاجتماعي مع بقية أبناء المجتمع العراقي، فقد انتشروا في أغلب مدن وأحياء وقرى

العراق، واندمجوا وتآلفوا مع بقية إخوانهم المسلمين دون خشية أو تحسس، وشاركوهم في مناسباتهم المفرحة والمترحة. ولعل اللغة العربية التي يتكلم بها المسيحيون ساهمت بشكل كبير في تسهيل اندماجهم، فهم في غالبيتهم من الناطقين بالعربية، وكثير منهم من أصول تعود للقبائل العربية التي استوطنت العراق قبل الإسلام وبعده، أو إنهم من الأقوام العراقية التي استعربت بعد دخول الإسلام إلى العراق.

رابعا: تأصل ارتباطاتهم الدينية والثقافية مع الدول الأجنبية المسيحية، وهو ما يفسر هجرة الكثير منهم إلى تلك الدول، لا سيما الولايات المتحدة وأوروبا وأمريكا الشمالية وأستراليا. ورغم أن هجرتهم تأتي أيضا لأسباب داخلية، كما ذكرنا، نتيجة الشعور بالعزلة وقلة فرص العمل، يؤكد تاريخ هجرة مسيحيي العراق أن الرعاية والتشجيع الأجنبي كانا دافعين لاستمرارها وتواصلها. ومع ذلك لا ينبغي الظن أو التشكيك بالارتباط السياسي للمسيحيين بالقوى الأجنبية كوكلاء، فقد شكل المسيحيون جزءا من النسيج الاجتماعي العراقي، ولم تظهر منهم أي بوادر تواطؤ ضد أمن العراق الوطني، فقد كانوا أوفياء للعراق مخلصين في الدفاع عنه، وما حصل من حالات فردية لا يعدو أن يكون سلوكا غير سوي، يمكن أن يبدر من عراقيين مسلمين ارتضوا أن يكونوا عينا على بلادهم في ظروف معينة.

خامسا: كنيسة العراق اليوم هي وريثة كنيسة المشرق أو كنيسة ما بين النهرين، وهي كنيسة لها تاريخها وكيانها الخاص ورجالها ومفكروها، وتمتعت على المستوى الإداري باستقلاليتها، ولعبت دورا في انتشار المسيحية في أصقاع مختلفة من بلاد فارس والقوقاز والصين، وساهمت في إنماء الفكر المسيحي في العراق وعموم الشرق، لكنها، تاريخيا، لم تسلم من الانشقاقات والخلافات المذهبية، وبالتالي فإن

الهوية المسيحية في العراق اليوم ليست موحدة، فقد سرى الانقسام والتشرذم إلى مسيحيي العراق وكنيستهم المشرقية، حيث انقسموا منذ القرن الخامس الميلادي إلى نساطرة، آخذين بمذهب بطريرك القسطنطينية المنشق (نسطورس)، وإلى يعاقبة تابعين ليعقوب البرادعي[2]، وانتشرت في العهود اللاحقة تسميات أخرى أساسها ديني ومضمونها فئوي، مثل لفظة سرياني، التي يعتقد البعض أنها مشتقة من اسم (سوريا) أو (أسيريا) اليونانية، وهذه مشتقة بدورها من كلمة آسور، أي (آشور) المملكة العراقية العريقة، وقد تكرست بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر الفروقات والاختلافات المذهبية بين المسيحيين بسبب ازدياد نشاط الإرساليات التبشيرية، ولا تزال تلك الاختلافات المذهبية تشكل أهم معالم هشاشة الوحدة المسيحية[3].

ثانيا: عوامل الانقسام في الواقع المسيحي

لقد باتت اليوم المذاهب المسيحية تعرف بتسميات أصبحت لصيقة بها حتى يومنا هذا، حيث اتخذ الشطر الكاثوليكي من كنيسة المشرق اسم (الكلدان)، في حين فضل الشطر النسطوري اسم (الآشوريين)، وكرس أتباع كنيسة المشرق، اسم المغاربة اسم (السريان)، وأكد الذين عدوا كرسي أنطاكيا أصلا لكنيستهم اسم (أرثوذكس)، تيمنا بالكنائس الشرقية الأخرى. هكذا إذن انشطرت كنيسة المشرق الواحدة إلى عدة مجموعات في بلاد ما بين النهرين: كلدان، وآشوريين، وسريان أرثوذكس، وسريان كاثوليك، وروم كاثوليك، ولاتين كاثوليك، وأرمن أرثوذكس، وأرمن كاثوليك، فضلا عن مجموعات صغيرة من أتباع الكنيسة الإنجيلية، أو البروتستانتية، ومجموعة من السبتيين والأقباط[4].

وحسب القوانين الرسمية العراقية فإنه في العراق اليوم أربع عشرة طائفة مسيحية معترفا بها رسميا، تنتقل بين المذاهب المسيحية الرئيسة: الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت[5].

ورغم تعدد التسميات الطائفية أو المذهبية لمسيحي العراق، فإنها، وحسب الباحث العراقي وليم وردا، تسميات مقبولة وصحيحة لشعب واحد عرف بتميزه من حيث عمق التاريخ في بلاد الرافدين وحضارته وتراثه ولغته التي تشكل أهم المقومات الأساسية لأي شعب حي، ودون شك، فإن تلك التسميات تولدت نتيجة ظروف ومتغيرات الوضع السياسي والثقافي والاجتماعي خلال تاريخ المسيحية الطويل في العراق، ويشير وردا إلى أن الكلدوآشوريين السريان يعيشون في مواطنهم الأصلية، العراق وسوريا وتركيا وإيران ولبنان في ظروف سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية متباينة، غير أن وضعهم العام يأخذ أبعادا ومسارات تتفاوت نسبيا من بلد إلى آخر، لكنها تتمحور جميعا حول البلد العراق، الذي هو بحق، مركز ثقلهم التاريخي والحضاري والسكاني[6]. وإزاء هذا الامتداد التاريخي لمسيحيي العراق، ورغم نقصان أعدادهم، بسبب المتغيرات في القوى المتحكمة بالمنطقة وموقفها منهم، فإن المسيحيين في العراق حافظوا على سلامة الكثير من تجمعاتهم العرقية واللغوية والدينية والاجتماعية، ولهذا أصبحت منطقة انتشارهم الجغرافي الدائم، التي واصلوا الاستقرار فيها منذ مطلع القرن العشرين تتحدد بين شمال مدينة نينوى (الموصل) وامتدادا نحو الشمال الغربي مع الجهة الشرقية لنهر دجلة، وحتى قرية فيشخابور الواقعة على مثلث الحدود العراقية التركية السورية، وامتدادا أيضا من الموصل إلى أربيل، واستمرارا نحو الشمال الشرقي حتى قرية ديانا القريبة من بلدة راوندوز الواقعة على مثلث الحدود العراقية الإيرانية التركية، ما يعني في المحصلة أن

التجمعات المسيحية منتشرة بشكل رئيس في ثلاث محافظات، هي نينوى ودهوك وأربيل، فضلا عن العاصمة بغداد التي تعد مركز ثقل رئيسا للوجود المسيحي في العراق، إضافة إلى كركوك والبصرة، وبعض محافظات الجنوب الأخرى التي لا تزال تحتفظ بانتشار مسيحي ملحوظ[7]. ويترافق هذا الانتشار المسيحي في مناطق العراق المختلفة مع وجود مئات من الكنائس والأديرة في مختلف محافظات العراق، حيث يشير البعض إلى وجود أكثر من (68) كنيسة في بغداد، ولمختلف الطوائف المسيحية وأكثر من (20) كنيسة في نينوى، و(13) كنيسة في دهوك، و(8) كنائس في البصرة، و(5) كنائس في كركوك، و(3) في أربيل، و(2) في الأنبار، وواحدة في كل من ديالى وميسان وبابل[8].

وأما ما يخص أعداد المسيحيين في العراق، فقد اختلفت التقديرات في ذلك، حيث قدر بعض الباحثين أنهم يأتون في المرتبة الخامسة في العراق، بعد كل من العرب والكرد والتركمان والفرس، في حين وضعهم المؤرخ الأمريكي حنا بطاطو في المرتبة الرابعة، وفق إحصاء عام 1947 حيث شكلوا ما نسبته 3.1% من سكان العراق[9]، غير أن أدق الإحصاءات، حسب اعتقادنا تلك التي أوردها رشيد الخيو، والمأخوذة من كتاب القس أرملة (القصارى في نكبات النصارى) التي تشير إلى أن نسبتهم بلغت عام 1975 نصف مليون نسمة، موزعين على النحو التالي: الكلدان الكاثوليك، وهم الأغلبية (316) ألف نسمة، ولديهم بطريرك واحد وتسعة أساقفة، وأربعة وتسعون كاهنا، ومائة كنيسة، وثلاثون ديرا. ويأتي الآشوريون النساطرة في المرتبة الثانية (82) ألف نسمة، ولديهم بطريركان، وأربعة أساقفة وأربعة وثلاثون كاهنا، وثمان وثلاثون كنيسة، وعشرة أديرة، ومن ثم السريان الكاثوليك، وعددهم (40500) نسمة،

ولديهم أسقفان، وخمسة وثلاثون كاهنا وتسع عشرة كنيسة وستة أديرة، وعدد السريان الأرثوذكس (29700) ولديهم أسقفان وستة عشر كاهنا وعشرون كنيسة وأربعة أديرة، وقدر الأرمن الأرثوذكس بـ (19) ألف نسمة، لديهم أسقف واحد وستة كهنة وست كنائس وديران. واللاتين الكاثوليك بـ (3500) نسمة، ولديهم أسقف واحد وثمانية عشر كاهنا وثلاث كنائس وستة أديرة، وأرمن كاثوليك (2180) نسمة ولديهم أسقف واحد وثلاثة كهان وكنيستان. وعدد البروتستانت (1500) نسمة لديهم أسقف واحد وكاهن واحد وثلاث كنائس. وأقباط أرثوذكس، لديهم كاهن واحد وكنيسة واحدة، وسبتيون (1500) نسمة، لديهم أربع كنائس بلا أساقفة ولا كهنة، وروم كاثوليك (500) نسمة، لديهم كاهن واحد وكنيسة واحدة[10].

وهناك طوائف صغيرة في أعدادها مثل الروم الأرثوذكس، والموارنة الكاثوليك، والسريان والروم (الأرثوذكس والكاثوليك) والسريان المغاربة، والسريان المشارقة وغيرهم[11].

وتشير تقارير وكتب متنوعة إلى أرقام متباينة عن أعداد المسيحيين في العراق سواء قبل الاحتلال الأمريكي للعراق عام 2003 أو بعده، حيث اشتدت حملات التهجير والإقصاء ضد المسيحيين، وعموم أقليات العراق الأخرى، حيث قدرت بعض الإحصاءات غير المؤكدة أن أعدادهم، تراوحت قبل الاحتلال بين 1.4 و1.5 مليون نسمة، وانخفضت بعد الاحتلال الأمريكي للعراق إلى نصف مليون نسمة، أو أربعمائة ألف نسمة بفعل أعمال العنف والقتل والتهجير التي طالت مئات الآلاف منهم[12]. وتشير نتائج استطلاع على مستوى العراق، قام به معهد (Oxford Research International)

في فبراير/شباط 2004، إلى أن نسبة المسيحيين الكاثوليك كانت 1.9%، وأن نسبة المسيحيين الأرثوذكس هي 1%، وأن نسبة المسيحيين من بقية الطوائف بلغت 0.5%[13].

وتشير الأرقام الواردة عن الوجود المسيحي إلى التناقص الكبير في أعدادهم منذ احتلال الكويت عام 1991 وتردي الأوضاع السياسية والاقتصادية في العراق وتغلغل المفردات الدينية في الخطاب السياسي للنظام العراقي السابق، وقد زادت هجرتهم بعد العام 2003 إثر سقوط النظام، واحتلال العراق وسيادة الفوضى والاضطراب، وانعدام الأمن، حيث ظهر التيار الإسلامي بشقيه السني والشيعي، وسيطر على الشارع خطاب ديني إقصائي كانت الجماعات الدينية، وفي مقدمتها المسيحيون من ضحاياه، وهو ما دفع إلى تصاعد وتيرة الهجرة والنزوح الجماعي إلى الخارج، إذ تشير تقارير حقوق الإنسان إلى هرب نحو 50% من مسيحيي العراق بعد العام 2003، إلى الخارج ولجوئهم إلى الدول المجاورة، مثل الأردن وسوريا، والدول الأوروبية والولايات المتحدة[14]. وهو ما يضعف خيط التعددية والتنوع الذي تميز به المجتمع العراقي طيلة عقود خلت.

إن من المؤكد، وحسب وثائق تاريخية هامة، أن المسيحيين هم أقوام العراق الأصليون، وهم سليلو الحضارات التي نشأت في بلاد ما بين النهرين عبر قرون طويلة قبل الميلاد، وقد شكل دخول المسيحية إلى العراق في القرن الأول الميلادي عامل توحيد وقوة لأهل العراق، بعد اندثار إمبراطورياتهم العريقة في آشور وبابل وآكد، فكيف دخلت المسيحية إلى العراق؟ وما بدايات تشكلها والعوامل التي ساهمت في انتشارها، والنتائج التي ترتبت على انتشارها؟

الفصل الأول

إطلالة تاريخية على الوجود المسيحي في العراق

أولا: التشكل التاريخي للمسيحية في بلاد ما بين النهرين

ارتبطت ثقافة أبناء الرافدين بجذور الحضارات التي نشأت في وادي دجلة والفرات، وهي الحضارات السومرية والبابلية والآشورية التي تناوبت على الحكم في العراق القديم. ومما لا شك فيه أن غالبية مسيحيي العراق هم من أصول تلك الأقوام والشعوب التي سكنت هذه البلاد منذ أقدم العصور وحتى انتشار المسيحية في صفوفهم وبقائهم على أصولهم منذ القرن الأول للميلاد والقرون اللاحقة[15]. وقد تعاقب أقوام كثيرون، واندرس أقوام آخرون في هذه البلاد وما حولها، كما كان ثمة اختلاط بين هؤلاء الأقوام عبر التجارة والزواج وامتزاج بالفكر واللغة والعادات والتقاليد والمذاهب نتيجة ذلك كله[16].

لقد اختلفت الروايات بشأن التاريخ الحقيقي لدخول المسيحية في العراق وعموم الشرق. ويكاد الاختلاف بشأن بدايات الانتشار المسيحي في هذه البلاد أن يكون محل إجماع بين مؤرخي المسيحية، سواء من الكتاب المسيحيين العراقيين والعرب أو المستشرقين، بل وحتى الكتاب المسلمين، إذ لا يوجد،حسب تعبير الأب ألبير أبونا

نص كتابـــي موثق يؤكد حقيقة دخول المسيحية إلى بلاد ما بـــين النهرين. ولهذا فإن التقليد الجاري في الكنائس الشرقية يؤكـــد أن دخول الرسل الذين بشروا بالمسيحية في هذه المنطقة في القرن الأول للميلاد يشكل بداية معتبرة بين المؤرخين لتاريخ دخول المسيحية إلى العراق القديم[17]، فقد جاء هؤلاء الرسل وهم سمعان بطرس الـــذي كتب رسالته الجامعة من بابل، ومارتوما الرســـول، ومـــار ادي، وتلميذاه مار أجاي ومار ماري، في القرن الأول ونشروا الإيمان بين أهل العراق الوثنيين في أربيل ونينوى وبابل والجزيرة وغيرهـــا[18]. وكان أول من اعتنقها هـــم الآراميـــون، ولم يتخلـــف الســـريان والكلدان العراقيون عن اعتناق المسيحية بعد أن كانـــت الوثنيـــة الآشورية والبابلية هي السائدة بينهم، إذ بعد سقوط نينوى وبابل لم يبق لديانتهما ما يبرر وجودهما بعد أن كانت ديانة دولة عظمى لها معابدها وطقوسها الرسمية، ولهذا لم تجد المسيحية محلا أخصب من المجتمع السرياني والكلداني للتبشير بدعوتها[19]. ولعل الـــذي قـــام لاحقا بالجهد الأكبر في الدعوة والتبشير هو القديس مـــار مـــاري الذي واجه في بداية دعوته جفوة، وقسوة من أهل العراق لقبـــول الدين المسيحي الجديد، وذلك بسبب تغلغل الوثنية في نفوســـهم، ولكن بعد محاولات متعددة أثمرت جهوده عن هداية ملـــك أربـــل (حاليا أربيل) إلى المسيحية، ولا يكاد يخلو كتـــاب مـــن كتـــب المسيحية من بعض الكرامات، والمعجزات في تبني المسيحية من قبل الأمراء، والحكام المحليين في العراق القديم[20]، فيذهب أحد المؤرخين إلى القول "كان ملك أربل مبتلى بداء الجرب، ومخلع اليد، وبعـــد حوار جرى بينهما يشفي مار ماري الملك من علته، وكان قائـــد جيشه حاضرا هناك، فلما عاين شفاء مـــولاه، اعترتـــه الدهشـــة،

والذهول، فطلب من ماري أن يشفي ابنه الوحيد المدعو دادي الممسوس بروح نجسة فيبرئه.

وبهذه المعجزات وغيرها آمن الملك وقائد جيشه والأشراف وكثير من الأهالي[21] وتشير الروايات المسيحية إلى أنه، وبعد تنصر أربل وأهلها، اتجهت الدعوة المسيحية إلى الموصل أو إلى نينوى، وهي بلاد الآشوريين، وتمت هداية أهلها على يد الرسل بطرس، وتوما وبرتلماوس، وادي وماري وسمعان وبنيامين[22]، ثم اتجه الرسل إلى جنوب العراق، إذ تقول أخبار السريانية إن القديس مار ماري كان قد واجه صعوبات في هداية أهل ساليق (بابل) إلى المسيحية بسبب قساوة قلوبهم وتأصل جذور الوثنية فيهم. فكتب رسالة لإخوانه الرسل في الرها قائلا "إن الأرض التي أرسلتموني إليها أرض الخطيئة، وهي ممتلئة بالشوك والقرطب، أهلها قساة متمردون، وليس لي من سبيل لأزرع في قلوبهم الغليظة بذرة الحياة، فاسمحوا لي أن آتيكم أو أنطلق إلى بلد آخر"[23]. غير أن الرسل الآخرين لم يستحسنوا ذلك منه، وطالبوه بالبقاء على دعوته والاستمرار بها. وبعد محاولات متعددة أثمرت جهوده في ساليق (بابل) وقطيسفون (المدائن) عن هداية رئيس مجلس الشيوخ فيها بعد شفائه من مرض عضال، ومن ثم هداية أمير ساليق أفراط لاحقا، وكذلك أمير قطيسفون أرطبان[24]. وبعد أن بنى أول كنيسة (كنيسة كوخي) اتجه إلى البلاد الواقعة اليوم بين بغداد وواسط، وطاف كل بلاد كسكر، أو كشكر وتلمذ أهلها وأقام الأديرة والكنائس، ثم اتجه إلى ميشان (ميسان حاليا) والأهواز، وبلاد فارس فهدى خلقا كثيرا، ثم عاد إلى قطيسفون فأصدر أمرا يقضي بأن الذي يكون مدبرا لكنيسة كوخي يكون رئيس أساقفة لجميع المشرق، أي بلاد ما بين النهرين[25].

ثانيا: عوامل انتشار المسيحية في العراق

رغم منطقية تلك الآراء وتوافقها مع المنهج الدعوي والتبشيري الذي اعتاده رسل المسيحية، ينفي البعض أن يكون العراق قد امتدت إليه المسيحية عبر الرسل والمبشرين فقط، فبعد أن يؤيد المطران لويس ساكو دعوات المبشرين الأوائل، يرى أن التبشير المسيحي في العراق قد أسهم فيه أيضا المهاجرون الأوائل من فلسطين على أثر انتفاضة اليهود بقيادة بركوبا عام 67م، وخراب مدينة القدس (أورسليم) على يد القائد الروماني طيطس عام 70م، وحرق الهيكل تماما. ويستدل ساكو على ذلك بوجود ثلاثة من رؤساء كنيسة المشرق ينتسبون إلى عائلة يسوع (يوسف النجار)، وكانوا من المحافظين على خط يعقوب، رئيس كنيسة القدس، كما يبين تأثير كنيسة القدس في الكثير من الطقوس الكنسية لمسيحيي العراق[26]. وتشير رواية أخرى إلى أن المسيحية انتشرت في بلاد ما بين النهرين، لا سيما في جنوبه عن طريق سبايا الرومان الذين جلبهم الملك الساساني شابور الأول (240-272م) في حروبه الكثيرة ضد الرومان، فقد غزا أنطاكيا مرتين، وجلا العديد من سكانها إلى البلاد البابلية، وإلى سائر المناطق الفارسية، وكان من بين الأسرى ديمتريانس مطران أنطاكيا نفسه الذي نفي إلى الأحواز سنة 257م[27] وقد تكرر الأمر في عهد الملك كسرى الأول حينما جلب سنة 573م ما يزيد على 290 ألف أسير من أنطاكيا إلى قطيسفون (المدائن) وجعلهم يستقرون في مختلف المدن الفارسية[28]، وهذا ليس ببعيد إذا ما علمنا أن مركز كنيسة الشرق كان بأنطاكيا، حتى القرن الخامس الميلادي، ففي بداية ذلك القرن عقد مجمع سلوقيا وانتخب الجاثليق مار إسحق على كرسي سلوقيا-قطيسفون، وبحضور مار ماروثا ممثل فرفيروس بطريارك

أنطاكيا والآباء الغربيين، وبقيت سلوقيا مركز الكرسي البطرياركي لكنيسة ما بين النهرين حتى العام 779م[29].

وتشير رواية أخرى إلى أن أحد عوامل تنصر أهل العراق جاء بتأثير هجرة القبائل العربية المسيحية في مدينة نجران اليمنية المعروفة بكثرة كنائسها، بعد أن سعى ملك حمير اليهودي ذو نواس إلى إجبار تلك القبائل على اعتناق اليهودية، وكانت اليهودية قد تسربت إلى اليمن من جراء خراب القدس (أورسليم) فنمت وصار لها شأن، وكان ذو نواس يرى في المسيحية ما يذكره بالأحباش ومطامعهم في اليمن، فأوقع في المسيحيين في سنة 523م مذبحة، ثم جمع من نجا منهم وخيرهم بين اليهودية والقتل، فاختاروا الموت استشهادا، فخد لهم أخدودا وأشعله بالنار، وبدا يسوق المؤمنين إليه سوقا[30]. وقد أشار القرآن الكريم في سورة البروج إلى تلك الواقعة بقوله تعالى: **﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾**[31] وأشار إلى المسيحين بالمؤمنين دلالة على التوحيد والربوبية التي كانوا يؤمنون بها. وبعد هذه الحادثة التي راح فيها، حسب لويس شيخو، عشرون ألفا أو يزيدون[32].

وبعد تلك الحادثة أفلت الكثير من النصارى، فبعضهم ذهب إلى إمبراطور الروم يستنصره، والبعض الآخر ذهب إلى الحبشة يستنجد بملكها النجاشي الذي شن حربين على ذي نواس فانتصر عليه مرتين متواليتين في سنة 523م وسنة 525م[33]، في حين هاجر الكثير من النصارى إلى بوادي العراق وحواضره، بعد أن ضاقت بهم السبل في أرض اليمن. وتروي مصادر كنسية أخرى أن اعتناق الكثير من أهل العراق للنصرانية جاء بسبب انهيار سد مأرب في اليمن في أواخر

القرن الأول الميلادي، ونـــزوح أبناء الكثير مـــن القبائـــل العربيـــة القحطانية، وأشهرها حمير وسبأ وكهـــلان وقضـــاعة، إلى المنـــاطق الشمالية الشرقية من بلاد الرافدين، فكان من النازحين رهـــط مـــن أولاد معن بن عدنان الذين وصلوا العراق وكان معهم أبناء من بـــني قبيلة قضاعة[34] فتحالفت تلك القبائل مع قبائل بني أسد وسمي ذلك التحالف بتنوخ[35]، ثم تبعتها قبائل عربية يمنية أخرى من الأزد وأياد ولخم وتغلب وبنو الحارث بن كعب وربيعة والمناذرة، فاســـتقرت في الأنبار والحيرة وبابل والسواد وعاقولا (الكوفـــة حاليـــا) والجزيـــرة والموصل والمناطق الواقعة بين بادية الشام والعراق كجزيرة بن عمـــر وديار بكر بن وائل، حيث عثر على كتابات ورموز ونقوش عربيـــة مسيحية منحوتة تعود إلى القرن الأول الميلادي[36].

ثالثا: أبعاد الانتشار المسيحي في العراق

وعلى أي حال ومهما كانت أسباب التأثير والانتشار المسيحي في العراق، لم يكد يمضي القرن الثاني للميلاد حتى حققت المســـيحية انتشارا بينا تمثل في الأديرة والكنائس التي انتشرت في أربل ونينـــوى وساليق وكسكر وميشان وطيسفون وغيرها من مدن العراق القديم، ولعل من الأمور التي ساعدت في انتشار النصرانية بين أهل العراق هو أن الفرثيين الزرادشتيين أو المجوس الذين حكموا العراق آنذاك كانوا بعيدين عن القهر الديني، إذ لم يفرضوا ديانتهم على الممالك التابعـــة لهم، بل تركوا لكل ولاية حريتها في العبادة، وســـاعدوا بعضـــها في إعادة بناء معابدهم التي كانت الحروب قد دمرتها، ولم تفلح دسائس اليهود ومكائدهم بالدين المسيحي الجديد وأنصاره في ثـــني الدولـــة الفارسية من تغيير مواقفها حيال انتشار المد المسيحي[37]، وحسب د.

جواد علي، فإن الفرس لم يكونوا يبشرون بدينهم، ولم يكن يهمهم دخول الناس فيه، إذ عدت المجوسية ديانة خاصة بهم، وهذا مما صرف الحكومة (المجوسية) عن الاهتمام بأمر الأديان الخاضعين لها من غير أبناء جنسهم[38].

لقد اهتم مسيحيو العراق بالحفاظ على هويتهم الثقافية الجديدة، فضلا عن الحفاظ على خصائصهم الذاتية التي تسللت إليهم من آبائهم سكان بلاد النهرين القدامى[39]. وكان أحد أهم ملامح ذلك هو في تأسيس الأديرة والكنائس والبيع، فقد كانوا يتفاخرون ببنائها في أحيائهم دليلا على تحمسهم للمسيحية وورعهم فيها. قال الفيروزآبادي، وكان في الحيرة كثير من الكنائس البهية، وقال الزبرقان بن بدر التميمي لما وفد إلى النبي محمد ﷺ يذكر كنائس قومه:

نَحنُ الكِرامُ فَلا حَيّ يُعادِلنا

مِنّا المُلوكُ وَفينا تُنصَبُ البِيَعُ[40]

يضاف إلى هذا الاهتمام ببناء الكنائس والأديرة أن نذكر عددا من الأساقفة ورجال الدين الذين كانوا يديرون في القرن الثالث والرابع الميلادي كنائس العراق العربي، كالأنبار والحيرة والبصرة وبيت عربايا وميشان وغيرها، حيث تبوأت الكرسي الكنسي في ساليق شخصيات مؤثرة استطاعت أن تشكل نقطة إجماع بين غالبية نصارى العراق، فبعد وفاة القديس مار ماري في 89م، جلس على كرسي المشرق مار أبريس ثم مار إبراهيم الكشكري، ثم أخاد أبوي، ثم مار شخلوفا، الذي كان من كشكر (واسط) وبقي في كرسي الجاثليق مدة 23 عاما، وقد دفن أغلب هؤلاء في كوخي التي

شهدت، كما ذكرنا، قيام أول كنيسة في المشرق على يد الرسول مار أدي. وقد تواصل جثالقة بلاد ما بين النهرين في مهام إدارة الوقف الكنسي في ساليق-قطيسفون، ففي 625م، انتخب مار أيشوعياب الثاني جاثليقا بطرياركا على كرسي كوخي في ساليق-قطيسفون، وقد استخدم مكانته الدينية ومهارته الفكرية والسياسية ليكون وسيط سلام بين الفرس والروم البيزنطيين، كذلك بين العرب المسلمين والمسيحيين لا سيما بعد بعثة النبي محمد ﷺ حيث كانت بينهما مراسلات بشأن حقوق المسيحيين الشرقيين في الدولة الإسلامية الوليدة[41]. وبعد وفاته سنة 644م جلس من بعده أحد عشر جاثليقا على كرسي كوخي في ساليق-قطيسفون إلى العام 774م، حيث انتخب مار خنانيشوع الثاني وبدء هذا البطريرك في إرسال الرسل والمبشرين إلى بلاد الشرق الأقصى شمال منغوليا وسيبيريا، وكانت كنيسة المشرق بأجمعها تحت رئاسة الجاثليق في كوخي حتى وصل أتباعها في عموم الشرق ما يزيد على ثمانين مليون مسيحي، وقد وطد الجاثليق البطريرك خنا نيشوع علاقته مع الخليفة المنصور، وتمكن من نقل كرسي البطرياركية إلى بغداد سنة 774م، وهو تحول مهم في تاريخ الكنيسة المسيحية الشرقية في العراق[42]. وهكذا ما إن انتهى القرن الثالث حتى أصبح لكرسي كنيسة المشرق في العراق (ساليق-قطيسفون) السلطة التامة على رعاياها وفي إدارة شؤونها باستقلالية تامة على غرار الكراسي الأربعة في أنطاكيا، أفسس وروما والإسكندرية. ولا شك أن من العوامل التي ساهمت في تلك الاستقلالية وحدة اللغة التي بات يتكلم بها مسيحيو العراق، فكما وحدهم الدين المسيحي، ساهمت اللغة السريانية في توحيدهم ثقافيا، فقد حلت هذه اللغة تدريجيا محل الآرامية التي كانت لغة

السيد المسيح والمسيحيين الأوائل، إلا أنها تدحرجت أمام تقدم السريانية التي باتت منذ القرن الأول الميلادي اللغة الفصحى لجميع الكنائس المسيحية والمانوية والبابلية في جميع منطقة الشرق من خليج البصرة حتى سيناء، بل إن هذه اللغة كانت لغة القبائل العربية التي اعتنقت المسيحية، واستقرت في الحيرة[43] وامتزجت بالسكان الأصليين الناطقين بالآرامية وفي الحضر وبصرى وتدمر ومنطقة الخليج المعروفة بـ (البحرين) و(قطرايا) أي قطر الحالية، وتمكنت هذه اللغة من أن تصبح لغة الثقافة الأولى في الإمبراطورية الفارسية الساسانية، ومنحت أبجديتها إلى اللغة البهلوية الفارسية وغيرها من الإمبراطوريات في مناطق آسيا المختلفة[44]. وعموما ساهمت الاستقلالية التي تميزت بها كنيسة المشرق في استقرار علاقاتها بالكراسي الأربعة الموجودة في أنطاكيا وأفسس وروما والإسكندرية، حيث تميزت علاقاتها مع تلك الكراسي بالتآلف والتعاون فيما بينها حتى القرن الخامس الميلادي وبالتحديد في سنة 431م، حينما انعقد مجمع افسس بأمر من الإمبراطور البيزنطي (ثيودسيوس) للنظر في النزاع أو الجدال الذي ظهر بين قورلس بطريرك الإسكندرية ومارنسطوريوس، وقد رفضت كنيسة المشرق تحريم نسطوريوس عندما طلب منها ذلك، فألصق أعداء نسطوريوس تسمية النساطرة على أتباع كنيسة المشرق، وهي تسمية خاطئة[45]، لأن كنيسة المشرق كانت قد تأسست في القرن الأول الميلادي على يد الرسل الذين ذكرناهم آنفا.

لقد تبع ذلك الافتراق بين كنيسة المشرق وكنيسة أنطاكيا وروما أن انفرط عقد التآلف بين مسيحيي الشرق ومسيحيي الغرب، ولم تمض قرون حتى بدا الخلاف يدب بين أنصار كنيسة المشرق

نفسها، بعد أن تمكنت الخلافات المذهبية والشقاقات والنزاعات أن تفرق صفهم، وتشتت جمعهم، فكان أن شنت الدولة البيزنطية وكنيستها الرسمية حربا شعواء ضد المخالفين لها، وهو ما حدا بالمؤرخين، على اختلاف نزعاتهم من شرقيين وغربيين ومن كاثوليك وأرثوذكس إلى تقديم أوصاف للأشكال الفظيعة التي اتخذتها هذه الاضطهادات من مذابح جماعية وتقتيل فردي بالسيف، وتشريد خارج المدن والأديرة، وكل ذلك باسم المسيح، رسول المحبة والإنسانية، وهي الحالة التي دفعت كاتبا سوريا كبيرا هو أميانوس مارسلانوس إلى القول "لم ير التاريخ بهائم متوحشة أشد افتراسا وقساوة من المسيحيين بعضهم لبعض"[46]. وبكل تأكيد، فإن تلك الانقسامات وما لحقها من شقاقات ونزاعات لم تكن بعيدة في الأصل عن لعبة السياسة وتجاذباتها، سواء داخل الإمبراطورية البيزنطية، ورغبتها في الهيمنة على وحدة الصف المسيحي[47]، أو لجهة صراع الإمبراطورية البيزنطية مع الإمبراطورية الفارسية، ورغبة الأخيرة في توظيف الخلافات، والنزاعات المذهبية المسيحية لإضعاف خصمها اللدود، فما واقع مسيحيي العراق في ظل الإمبراطورية الفارسية؟ وما أثر الخلافات الفارسية الرومانية في واقعهم الاجتماعي والديني؟ وما أثر الاضطهادات التي تعرضوا لها طيلة سنوات الحكم الفارسي للعراق في وحدة صفهم وتماسكهم الديني؟

رابعا: المسيحية والصراع الفارسي الروماني

عاشت كنيسة المشرق وأتباعها قرنها الأول الميلادي تحت الحكم الفارسي الذي خضع له العراق قرونا طويلة، ونتيجة الصراع المستمر بين الإمبراطورية الفارسية والرومانية شهد انتشار المسيحية

بين قبائل العراق مدا وجزرا حسب شدة وتسامح ملوك الفرس حيال الديانة الجديدة، ولكن عموما لم يتعرض مسيحيو العراق طيلة قرنين لأي مضايقات دينية كبيرة كتلك التي حصلت لاحقا في عهد الساسانيين، حيث سمح الفرثيون لهم بممارسة عقائدهم وبناء[48] وترميم كنائسهم، وأديرتهم والتبشير بدعوتهم رغم التعصب الديني الذي عرف به المجوس.

وقد انتشرت المسيحية بين القبائل العربية في العراق بفضل المبشرين من الرسل والرهبان الذين كانوا يعيشون بين أحياء العرب في العراق، ويتجولون في البراري، ويقتاتون من النباتات، والذين استطاعوا بحياتهم النسكية أن يهدوا كثيرا من العرب والعجم إلى الديانة المسيحية. وبعد سقوط المملكة الفارسية الفرثية استطاع الملك الساساني أردشير بن بابك (226-241) أن يوسع حدود مملكته حتى شملت كل إيران وأواسط آسيا إلى حدود الهند والصين، كما بسط سلطانه على العراق واتخذ له مدينة قطسيفون (المدائن) عاصمة لإمبراطوريته[49].

وطيلة أربعة قرون (القرن الثالث إلى القرن السابع) أذعن العراق، ودون شك، للسيادة الفارسية الساسانية وشكل جزءا من إمبراطوريتها واستمد من قوتها الحماية في وجه الاعتداءات الرومانية أو البيزنطية، وتأثر بإدارتها الحكومية والمالية وقوانينها الرسمية. وكان خاضعا على الأقل في المدن إلى المقتضيات القومية الفارسية الزرادشتية، ومع ذلك بقي المجتمع العراقي محتفظا ببيئته الخاصة المميزة والمختلفة، وبمزيجه العرقي ووسائل عيشه وتاريخه العريق وتقاليده الدينية والسياسية. وشهدت القرون الأربعة من الحكم الساساني تغييرات عظيمة في المجتمع العراقي، لعل أهمها انتقال القبائل العربية

العراقية من الصحاري إلى الداخل وهيمنتها على كل البلاد غربي الفرات، وقد احتلت القبائل العربية التي لا تزال بدوية في حياتها، وسلوكها أراضي شاسعة بين النهرين، أما نسبتهم ولغتهم فقد تأثرتا بالآرامية التي يتكلمها أهل المدن، فضلا عن تأثرهم الكبير بالمسيحية التي تغلغلت بين نسبة كبيرة منهم[50].

ولم تشهد العهود الأولى لحكم الساسانيين اضطهادا كبيرا حيال المسيحيين في العراق، ولعل ذلك يعود في الأصل إلى عدم قدرتهم على إثارة مشكلات داخلية تخلخل وضعهم السياسي والعسكري حيال الإمبراطورية الرومانية، فضلا عن أن المسيحية ومع مجيء الحكم الساساني قد توطدت أركانها وآمن بها حشد كبير من الناس، فقد فوجئ الساسانيون بتغلغل المسيحية في شتى أركان بلادهم وفي مختلف ميادين الحياة، ولهذا اضطروا إلى اتخاذ موقف من الديانة الجديدة التي أخذت تهدد في الصميم ديانتهم المغلقة[51]. ويتابع الأب ألبير أبونا، وبتفاصيل وافية شرح السياسة التي تبناها الأكاسرة الساسانيون حيال المسيحيين في العراق القديم، فقد كان مؤسس السلالة الساسانية أردشير الأول (226-241م) متسامحا حيال المسيحيين، إذ كان يحترم كنيسة كوخي في قطيسفون (المدائن)، وقد ضمها إلى مدينته الجديدة التي شيدها قرب الكنيسة وسماها (فيه أرداشير)، وتابع خلفه شابور الأول (241-272م) سياسة التسامح مع المسيحية، فكان يعطف على المسيحيين، نظرا للتعسف والاضطهادات التي كانوا يتعرضون لها من قبل رجال الدين الزرادشت الذين بدا نفوذهم يتصاعد مع وصول الموبيد (كرتير) إلى مكانة سامية مع ما يضمره من حقد حيال المسيحيين.

ولم يمنع تسامح سابور الأول من قتل إحدى زوجاته (أسطاسا) حينما علم باهتدائها إلى المسيحية، ونفي زوجته الأخرى (شمراران) إلى منطقة مرو، حينما علم بميلها إلى المسيحية، ومن ثم تزويجها لشخص من السلالة الحاكمة[52]، وفي عهد شابور الأول، ترسخت من حيث لا يعلم أقدام المسيحية على يد السبايا الرومان الذين جاء بهم من (أنطاكيا) مرتين، وحلا العديد من سكانها إلى العراق الجنوبي وسائر البلاد الفارسية[53]. وفي زمن هرمز الأول (272-273) وبهرام الأول (273-276)، تصاعد جبروت عدو المسيحية، رجل الدين كرتير، وبتأثير زوجته قنديرة تعلم الملك بهرام الثاني (276-293) على يد معلمين مسيحيين، لكنه سرعان ما انقلب تحت تأثير كرتير، الذي حصل من الملك على مرسوم يتيح له ملاحقة المسيحيين، وكل الذين يدينون مذاهب مناوئة للزرادشتية، وقد طال الاضطهاد زوجة الملك قنديرة نفسها، وبعد وفاة بهرام الثاني والثالث وتسلم الملك نرسي (293-303)، خف الاضطهاد حيال المسيحيين، لا سيما بعد أن أعفى الملك رجل الدين المجوسي كرتير، وسمح ببناء الكنائس وتعميرها، وبحرية إقامة الشعائر الدينية. أما خليفته هرمز الثاني (303-309) فقد ترك المسيحيين وانشغل باضطهاد المانويين[54]. ولكن سرعان ما عاد الاضطهاد، وبشكل أشد، في عهد الملك شابور الثاني، الذي يعد أطول حاكم في تاريخ بلاد فارس، إذ حكم سبعة عقود (309-379)، وعامل النصارى في دولته معاملة قاسية لا سيما بعد أن أعلن الإمبراطور الروماني قسطنطين قبوله النصرانية دينا لإمبراطوريته سنة 312م، حيث ظن شابور الثاني أن هؤلاء النصارى متحزبون لنصارى الغرب ميالون إلى قياصرتهم[55] ومنذ ذلك التاريخ بات المسيحيون يعاملون رعايا دولة مناوئة. وفي

عهد شابور الثاني حدث ما يسمى في كتب التاريخ بالاضطهاد الأربعيني سنة (341م)، وكان أول المقتولين فيه الجاثليق مار شمعون برصباعي و130 قسا وكاهنا، واستمر الاضطهاد أربعين عاما، تعرض فيه الآلاف للقتل بتهمة كونهم عملاء للرومان أو متعاطفين معهم.

وتشير الروايات المسيحية إلى أن شابور الثاني قتل حتى نهاية حكمه في سنة (379م) ما يزيد على (16) ألف مسيحي[56]. ويذكر الأب سهيل قاشا أن القبائل العربية المسيحية في الجزيرة العربية لم تسلم هي الأخرى من اضطهاد شابور الثاني، الذي أوقع بهم القتل في البحرين، وهجر وتميم وبكر بن وائل وعبد القيس، فقتل منهم خلقا كثيرا حتى جرت دماؤهم على الأرض بغزارة، وقيل إنه غزا عبد القيس وأباد أهلها، وقصد اليمامة فأكثر في أهلها القتل، كما غزا بكرا وتغلب فيما بين الشام والعراق، وقتل وسبى منهم خلقا كثيرا، وكان ينزع أكتاف رؤساء العرب ويقتلهم، فسماه العرب بشابور ذي الأكتاف، ثم أغار على الحيرة فقاتله أهلها فكان شعار المسيحيين فيها يومئذ آل عباد الله، فسمو بـ (العباد). ويشير قاشا إلى أن شابور فتك في مدة حكمه التي دامت سبعين عاما بـ160 ألفا من المسيحيين الذين كانوا في دولته، وأجلى العرب من النواحي التي صاروا إليها[57] ومع مجيء يزدجرد الأول (399-420)، تحسن وضع المسيحيين في العراق بعض الشيء، فقد أحسن الظن بالعرب وكون معهم صداقات، وتعاون معهم إلى حد أن جعل النعمان بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي على كتيبتين، الأولى الدوسر وهي لتنوخ، والثانية الشهباء وهي لفارس، كما عهد بتربية ابنه بهرام وحضانته إلى المنذر بن النعمان الذي بات ملكا على العرب في الحيرة، حيث أمر يزدجرد بكسوة له وأمره أن يسير ببهرام إلى بلاد العرب.

كانت العهود التي تلت حكم يزدجرد الأول تتفاوت بين الشدة واللين حسب الظروف السياسية الداخلية المحيطة بالملوك، وحسب العلاقة مع الدولة البيزنطية، فلما منيت الجيوش الفارسية بالهزيمة -مثلا- على يد القيصر البيزنطي (هرقل)، ثارت ثائرة كسرى الثاني واشتد حنقه على النصارى، فأمر باضطهاد نصارى مملكته على اختلاف مذاهبهم، فتكبدوا من العسف والشدة ألوانا[58]. وكان استغلال الخلافات المذهبية بين النصارى أحد الأساليب التي استخدمها الأكاسرة الفرس لفرض سيطرتهم على المسيحيين وضمان ولائهم، فقد شجعوا الخلافات المذهبية وساندو نشر النسطورية في العراق بالضد من الأرثوذكسية الرومية، وصارت ساليق وقطيسفون، وبتشجيع فارسي، من أهم معاقل النسطورية والتبشير بها في جميع أنحاء الإمبراطورية الفارسية، وأصبح أغلب نصارى العراق يعتنقون المذهب النسطوري، وهو مذهب مخالف لمذهب بيزنطة الأرثوذكسي، ولهذا وجد الكثير من أتباع الكنيسة البيزنطية اضطهادا من قبل أكاسرة الفرس.

لقد كانت الظروف التي عاشها المسيحيون تحت الحكم الساساني قاسية وشديدة الوطأة، ولهذا يرى المستشرق بارتولد أن من عوامل ضعف الإمبراطورية الساسانية اضطهادها للوثنيين والنصارى، فصار هؤلاء جميعا حلفاء للعرب عند الفتح[59]، ولهذا لا عجب، وكما يؤكد ألبير أبونا، أن يتسم موقف المسيحيين بالارتياح لمجيء العرب، بعد أن ملوا الظلم الذي تعرضوا له في فترات عديدة من العهود الساسانية، فلعل الفاتحين الجدد يكونون أكثر إنسانية ورحمة تجاههم[60]. ولعل من مظاهر الترحيب المسيحي بقدوم العرب المسلمين هو المدد الذي قدمه الكثير من القبائل العربية المسيحية في

العراق لجيوش الفاتحين بقيادة خالد بن الوليد وأبـــي عبيدة عامر بن الجراح، والمثنى بن حارثة الشيباني، وسعد بن أبـــي وقاص، الـــذي استطاع أن يهزم جيوش الفرس في معركة القادسية في الســـنة (15) هجرية، ويقضي على الإمبراطورية الفارسية، فقد كـــان التقـــارب اللغوي بين العربية والسريانية، والأمل المسيحي بعهد جديد ملـــيء بالأمان والاستقرار سببا مؤثرا في الانحياز المسيحي إلى جانب الفاتحين المسلمين.

خامسا: حواضر مسيحية في عراق ما قبل الإسلام

مع استقواء عود المسيحية في العراق في القرن الثالث الميلادي، بدأ نجم الكثير من الحواضر والمدن المسيحية بالظهور، سواء بســـبب كونها مستقرا رئيسا لكنيسة المشرق مثل قطيســـفون (المـــدائن)، أو لكونها مركزا تجاريا أو حاضرة ثقافية وعلمية مثل الحيرة وتكريـــت. ويؤرخ الكثير من كتاب النصارى والمسلمين لحواضر كان لها أثـــر مهم في توطيد دعائم المسيحية في العراق القديم، عبر رجال الـــدين والكتاب والشعراء الذين أنتجتهم، وعبر الكنائس والأديرة العريقـــة التي ساهمت في الحفاظ على المسيحية ونشرها في منـــاطق العـــراق المختلفة.

ويفتخر الكثير من الكتاب المسيحيين بمدينة قطيسفون أو المدائن لاحقا، باعتبارها كانت المنطلق الرئيس لرسل المسيحية الأوائل الذين بشروا بدعوة عيسى بين أهل العراق، وفيها بنيـــت أول كنيســـة في تاريخ العراق، وهي كنيسة كوخي، حيث ظلت سبعة قرون مقـــرا لكنيسة المشرق وتسلم رئاستها كبار العلماء والمفكرين ورجال الدين المسيحيين، وقد سماها العرب طيسفون وطيسفونج، وتقع على الضفة

الشرقية لنهر دجلة، ولا يعرف تاريخ تأسيسها، ولكن يذكر الدينوري في الأخبار الطوال أن الإسكندر الكبير وافى العراق فنزل المدينة العتيقة التي تسمى طيسفون، وتشير المصادر إلى أنها فرثية المنشأ، فالأقوام الفرثية التي حكمت العراق وفارس اتخذتها عاصمة لها وظلت بعد ذلك عاصمة للساسانيين وسميت بالمدائن، وفيها قصور كسرى إلى أن افتتحها سعد بن أبي وقاص بعد معركة القادسية سنة 637م. و لم يخربها المسلمون بل حافظوا عليها واتخذوها مقرا لجيوشهم حتى أسسوا الكوفة فيما بعد. وهناك مدينة ساليق أو سلوقيا وهي بنيت على الضفة الغربية لدجلة في مقابل طيسفون، وبناها الروم البيزنطيون حين دخولهم العراق، وقد ازدهرت في مطلع العهد المسيحي الأول، وبنيت فيها الكنائس والأديرة وظهرت فيها شخصيات دينية وعلمية وأدبية كبيرة(61). ومن المدن المسيحية الأخرى هي كشكر أو كسكر، في محافظة واسط اليوم، وتعد أقدم أبرشية في المنطقة ويرجح أنها مدينة آرامية اشتهرت بمنتوجاتها من الحبوب والفواكة، وكانت أول مدينة في بلاد الرافدين تستجيب لدعوة مار ماري، تلميذ مار ادي رسول المسيح، فاهتدى أهلها إلى المسيحية، ونظرا لأهميتها أصبحت مركزا مشعا للمسيحية وبني فيها عدة أديرة، ومن شخصيات كشكر في القرن الثالث الميلادي مار اخيلاوس الكشكري الذي كان أول أسقف عليها، وألف كتابا في الجدل.

ومن أعلام كشكر مار إبراهام الكشكري الأول الذي أصبح جاثليق كنيسة المشرق سنة 98م، واستطاع بمكانته وعلمه وإيمانه أن يقنع الملك الفرثي بوقف الاضطهادات على النصارى بعد أن تمكن من شفاء ابن ملك الفرثيين الذي ابتلي بداء أعجز الأطباء(62). احتل

أردشير الأول (224-241) الملك الساساني كشكر ودمرها انتقاما لمسيحيتها وصمودها في وجه غزواته، وفي الفتح الإسلامي للعراق عين الخليفة عمر بن الخطاب النعمان بن مقرن عاملا عليها، وظلت كشكر منطقة عامرة بإنتاجها الزراعي ضمن أرض السواد إلى أن بنى الحجاج بن يوسف الثقفي مدينة واسط في العهد الأموي[63].

وتذكر المصادر أن الحجاج لما أراد بناء واسط سأل عن صاحب الأرض فقيل له إنها ملك لنصراني يدعى داودان، فبعث إليه فاشتراها منه بعشرة آلاف درهم وذلك سنة (75هـ-686م)[64]. وتعد مدينة تكريت من أوائل المدن التي دخلها المبشرون الأوائل فكثرت فيها الكنائس والأديرة، وأصبحت مقرا رئيسا لمسيحيي الشرق، واشتهرت تكريت بوجود الكنيسة الخضراء فيها التي بنيت في القرن السابع الميلادي على يد ماروثا بن حبيب التكريتي، الذي شاع ذكره في عموم البلاد المسيحية، ولا تزال الكنيسة الخضراء قائمة على جبل تكريت الجنوبي، ويوجد بمحاذاتها جامع كبير تم ترميمه، مما يدل على روح التسامح والسلام الذي يسود المدينة[65].

وتعد الحيرة من أهم الحواضر المسيحية التي يجب الحديث عنها بإسهاب، نظرا لمكانتها التاريخية ودورها الحضاري وواقعها الديني والسياسي، لقد اشتهرت الحيرة بين القرنين الرابع والسابع الميلادي بموقعها على الحدود بين قبيلة بكر بن وائل وتغلب المتعاديتين، وكانت سلالة العرب اللخميين التي حكمت الحيرة بصورة مستقلة عن الساسانيين تعبد الأصنام، ولكنها سمحت بوجود ديانات أخرى مثل المانوية والمسيحية واليهودية.

وقد توطدت أركان المسيحية في الحيرة في القرن الخامس الميلادي[66] على يد بعض القبائل العربية التي اعتنقت المسيحية، مثل

بني تغلب وبني أياد وتميم وطيئ وبني النمير وبطون من كندة وبني أسد[67]، حتى صار فيها أساقفة كبار، في مقدمتهم شمعون بن جابر الذي يقال إنه لعب دورا كبيرا في هداية الملك النعمان بن المنذر إلى المسيحية[68]، في حين تشير إريكا هنتر إلى أن تنصر النعمان بن المنذر (553–603م) كان على يد جاثليق كنيسة المشرق أيشوعياب الأول، وكان لدوافع سياسية تتمحور في تحديه ملك الفرس كسرى الثاني إبرويز، ورغبته في الاستقلال عن الهيمنة الفارسية، وهو ما دفعه –لاحقا– إلى القبض عليه وإلقائه في السجن[69]. ومن رأي د. جواد علي في تنصر ملوك الحيرة أن أكثرهم كان وثنيا، وإن اضطر ملوك الشام الغساسنة إلى تبني النصرانية خضوعا لأباطرة الروم، فإن هذه الديانة لم تكن رسمية في العراق، وبالتالي لم يتبنها ملوك الحيرة بضغوط من أحد، وإنما انتشرت بين سواد الشعب[70].

لقد اشتهرت الحيرة بقصورها وعمرانها ودياراتها وترف ملوكها وبصناعاتها الزاهرة وزراعتها المثمرة، ولعل ميزة الحيرة أنها جمعت بين زهد الزهاد وفساد الأخلاق، فكما أكثر ناسها وعبادها وملوكها من بناء الكنائس والأديرة لتكريس نصرانيتها، اشتهرت كذلك بالغناء وصناعة الخمور والقيان الجميلات، فقصد حاناتها في الجاهلية والإسلام طبقات من الناس، وتغنى الشعراء بذكرها[71].

وقد أتقن أهل الحيرة الكثير من اللغات التي كانت سائدة آنذاك في مقدمتها اللغة السريانية، فضلا عن لغتهم العربية، فقد خرج منهم الكثير من الشعراء والأدباء، وتميز الخط الحيري بجماليته وغلبته على الخطوط العربية الأخرى. ولا بد هنا من الإشارة إلى أن من أعظم شعراء الحيرة بالمطلق امرأ القيس بن حجر الكندي صاحب إحدى المعلقات التي يقول في مطلعها:

قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ وَمَنزِلِ
بِسقطِ اللِوى بَينَ الدَخولِ فَحَومَلِ[72]

وهناك شعراء آخرون لا يمكن تجاوز مكانتهم العظيمة في الشعر العربي، لعل أهمهم عبد المسيح بن بقيلة وأبا زبيد الطائي والأخطل التغلبي وغيرهم[73]. وبحكم التأثر بالسريانية كونها لغة الدين، شابت لغتهم العربية رطانة واضحة، ويروى أن خالد بن الوليد حينما دخل الحيرة سنة (633م) عجب من رطانة أهلها، فسأل عبد المسيح بن بقيلة، وهو من سادة أهلها قائلا: أعرب أنتم أم نبط؟!، وقد أراد بالنبط الآراميين، فأجابه ابن بقيلة: نحن نبط استعربنا وعرب استنبطنا، وكان جواب عبد المسيح غاية في البلاغة، وأشارة منه إلى الاختلاط والتمازج الحاصل بين العرب والآراميين النبط، وتأثر لغتي القوم بهم[74]. وتشير المعلومات التاريخية إلى أن جيوش الفتح الإسلامي التي زحفت إلى الحيرة ومنها إلى بقية أصقاع العراق في بابل والمدائن والأنبار، وتوغلت في أرياف العراق وقراه المترامية، شاهدت أن غالبية سكان العراق ينطقون إما باللغة العربية أو بلهجات نبطية آرامية قريبة من العربية، بل في أغلب الحالات كان السكان يفهمون اللغة العربية، وفي هذا مؤشر على أن لغات ولهجات سكان العراق كانت تمر في تلك الحقبة التاريخية بمرحلة تحول إلى اللغة العربية، ولعل الأمر الذي فيه دلالة واضحة على ثبات اللغة العربية في العراق عدم حاجة رجال الفتح الإسلامي إلى مترجمين في تعاملهم مع أهل العراق[75].

لقد كانت الحيرة، وكما ذكرنا، عاصمة ثقافية بامتياز جمعت مختلف الثقافات واللغات فكان بين الحيريين من يتكلم اليونانية ويتكلم العبرية فضلا عن إجادة اللغة الفارسية نظرا للروابط السياسية

والإدارية والعلاقات التجارية بين الحيرة والإمبراطورية الفارسية ولقرب عاصمتها (المدائن) من حاضرة المناذرة. ومن الشواهد على انتشار الفارسية أن ترجمان القائد الفارسي رستم كان من أهل الحيرة واسمه عبود، حيث ترجم بين رستم والمغيرة بن شعبة سنة 14 هجرية[76].

كما كانت الحيرة مركزا هاما من مراكز التبشير بالنصرانية بين العرب، فمن الحيرة انطلق كثير من المبشرين إلى أجزاء من جزيرة العرب في البحرين وقطرايا، وفيها انعقد مجمع داديشوع سنة 242م، وفيها توفي ودفن الجاثليق داديشوع. لقد كان معظم نصارى الحيرة من النساطرة أسوة بكنيسة فارس كلها، حيث كانوا يجدون من الفرس تشجيعا نكاية في الروم البيزنطيين، وكان المذهب سببا في الصراع مع إخوتهم العرب الغساسنة في الشام، يضاف إلى السبب الرئيس، وهو تحريك الإمبراطوريتين الرومية والفارسية لكل من الغساسنة والمناذرة في صراعهم بعضهم ضد بعض[77]. لقد أصبحت الحيرة بعد الفتح الإسلامي قاعدة حربية كبرى تتركز فيها الإمدادات والقوات الإسلامية المتجهة إلى بلاد ما وراء النهر، إلا أن توسع الفتوحات الإسلامية استدعى بناء مدن إسلامية أخرى، مثل البصرة والكوفة والموصل، وهو ما أضعف من القيمة السياسية والدينية التي كانت تتمتع بها الحيرة.

هوامش المدخل والفصل الأول

(1) د. دهام محمد العزاوي، الأقليات والأمن القومي العربي: دراسة في البعد الداخلي والإقليمي والدولي، (عمان: دار وائل، 2003)، 87.

(*) نقصد بتلك الحالات الفردية، حادثة هروب الطيار العراقي منير روفا، بطائرته الميغ 27 إلى إسرائيل قبيل حرب حزيران 1967، وإدلائه بمعلومات عسكرية مهمة عن سلاح الجو العراقي حول ملابسات تلك القضية، انظر، جون ك. كولي، تواطؤ ضد بابل: أطماع الولايات المتحدة وإسرائيل في العراق، ترجمة أنطوان باسيل، (بيروت: شركة المطبوعات، 2006)، 196.

(2) المطران سرهب يوسب جمو، الكنيسة الكلدانية في الوثائق التاريخية، مجلة نجم المشرق، العدد 46، السنة الثانية عشرة (2006)، 188.

(3) د. يوسف حبي، كنيسة المشرق، (بغداد: منشورات المكتبة الوطنية، 1989)، 45 وكذلك الأب أفرام سقط، موقع العراق من الحركة المسكونية، مجلة الفكر المسيحي، العدد 218–219، السنة الثانية والعشرون، (1986)، 352.

(4) عبد الله النوفلي، المسيحيون في العراق هم أهل البلاد الأصليون، مجلة مسارات، العدد 14، السنة الخامسة، (2010)، 80.

(5) نقلا عن هدى جاسم، محنة مسيحيي العراق، صحيفة الشرق الأوسط، لندن، في 17–3–2010.

(6) جميل روفائيل، الآشوريون في العراق: من مجد آشوربينبال إلى حكم صدام، مجلة الوسط السياسي، العدد 609، (2003)، ص 5.

(7) د. خوشابا حنا الشيخ، الطوائف المسيحية في العراق، مجلة مسارات، العدد 14، السنة الخامسة، (2010)، 28.

(8) حنا بطاطو، العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، ترجمة عفيف الرزاز، (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1990)، 60.

(9) نقلا عن د. رشيد الخيون، الأديان والمذاهب بالعراق، (لندن: مطبعة روح الأمين، 2002)، 199–200.

(10) نقلا عن د. خوشابا حنا الشيخ، الطوائف المسيحية في العراق، 32.

(11) نقلا عن موقع الجزيرة نت www.aljazeera.net في 7–12–2010.

(12) نقلا عن د. خير الدين حسيب، العراق من الاحتلال إلى التحرير، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006)، 256.

(13) وردت هذه النسبة في موقع منتديات كرمليش لك في ديسمبر/كانون الأول 2010.

(14) د. سهيل قاشا، عراق الأوائل: حضارة وادي الرافدين (بيروت: شركة المعارف، 2010)، 7.

(15) د. يوسف حبـي، كنيسة المشرق، 67.

(16) الأب ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، (بغداد: شركة التأيمس، 1985) ج1، 8.

(17) لويس شيخو، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، (بيروت: منشورات دار المشرق، 1986)، 75.

(**) الآراميون هم أقوام ساميون، نزحوا من صحراء كنعان بحسب التوراة في القرن العاشر قبل الميلاد في العراق، وزاحموا الآشوريين حكام بلاد الرافدين آنذاك، وفي القرن التاسع ق.م انتشرت لغتهم بسبب سهولتها في الهلال الخصيب كله وأصبحت في النهاية لغة العبرانيين والآشوريين والبابليين، كما أصبحت لغة رسمية للفرس الإخمينيين، ولغة النبط الذين كانوا أقواما أدوميين وعربا. وصارت الآرامية وسيلة مناسبة للآداب الدينية والثقافية لليهود فكتبوا بها التلمود، وهو تفسير العهد القديم. وفي القرن الأول الميلادي نشأت من الآرامية لهجات ولغات محلية منها السريانية وآرامية النبط وآرامية تدمر، وآرامية حطرا (الحضر) وكذلك المنداعية، أو المندائية في الفترة بين 60 و80م. للمزيد انظر د. فؤاد يوسف قزانجي، الآراميون في بلاد ما بين النهرين، مجلة الفكر المسيحي، السنة 44، العدد 437-438، (2007)، 184.

(***) الكلدانيون أو الكلديون، قبائل آرامية هاجرت إلى جنوب العراق القديم في القرن العاشر قبل الميلاد، وأسسوا حضارة عريقة في بابل هي الحضارة الكلدية أو البابلية. فؤاد يوسف قزانجي، الكلدانيون: لمحة موجزة عن تاريخهم العريق، مجلة ما بين النهرين، العدد 141-142، السنة 36، (2008)، 51.

(8) د. خوشابا حنا الشيخ، نشأة المسيحية في العراق، مجلة أطياف، السنة الأولى، العدد الأول، (2009)، 77.

(19) د. سهى رسام، جذور المسيحية في العراق حتى دخول الإسلام، مجلة مسارات، العدد 14، السنة الخامسة، (2010)، 19.

(20) الأب ألبير أبونا، شهداء المشرق، (بغداد: مكتبة النور، 1985)، 18.

(21) د. رشيد الخيون، الأديان والمذاهب بالعراق، 149.

(22) ألبير أبونا، شهداء المشرق، 25.

(23) يوارش هيدو، لمحة من تاريخ كنيسة المشرق، مجلة صدى النهرين، العدد الأول، السنة الأولى، (2005)، 10.

(24) ألبير أبونا، كوخي: الكنيسة الأولى في العراق، مجلة نجم المشرق، العدد 23، السنة السادسة، (2000)، 241.

(25) لويس ساكو، تاريخ الكنيسة الكلدانية، (كركوك: ديوان أوقاف المسيحيين والديانات الأخرى، 2006)، 8.

(26) ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، ج1، 37.

(27) د. سها رسام، جذور المسيحية..، 22.

(***) الجاثليق كلمة يونانية تعني الأب العام، ويقابلها في اللغة العربية كلمة بطريرك، وقد ذكر المسعودي في كتابه مروج الذهب مراتب كنسية متعددة لا تزال مستعملة عند النصارى، لعل أبرزها شماس وتعني الخادم أي مساعد الكاهن في الخدمة الدينية، وقسيس وتعني شيخا، وأسقف أي رئيس الكهنة، ومطران وهو رئيس المدينة الديني، وبطرك أو بطريرك وتعني رئيس الجماعة أو الطائفة. انظر الأب د. بطرس حداد، المراتب الكهنوتية في كتاب مروج الذهب للمسعودي، مجلة نجم المشرق، العدد 23، السنة السادسة، (2000)، 380. وقد ذكر د. جواد علي في كتابه المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مراتب عدة لرجال الدين المسيحيين، تتشابه مع ما ذكره المسعودي، انظر د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (بغداد: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ج6، 1993) ط2، 630.

(28) د. رشيد الخيون، الأديان والمذاهب بالعراق، 152.

(29) روبنس دوفال، تاريخ الأدب السرياني، ترجمة الأب لويس قصاب، (بغداد: منشورات مطرانية السريان الكاثوليك، 1992)، 160.

(30) القرآن الكريم، سورة البروج، الآيات 4-8.

(31) لويس شيخو، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، 60.

(32) د. سهيل قاشا، تاريخ نصارى العراق، (بيروت: دار الرافدين للطباعة، 2010)، 21.

(33) سيف الدين الكاتب وآخرون، أطلس العصر النبوي وعصر الخلافة الراشدة في سياق الأحداث وتجليات الحضارة، (حلب: دار الشرق العربي، 2008)، 8.

(34) د. خوشابا حنا الشيخ، نشأة المسيحية في العراق، 78.

(35) د. فائز عزيز أسعد، تجديد الدور العربي المسيحي، مجلة مسارات، العدد 14، السنة الخامسة، (2010)، 100.

(36) حول الدور اليهودي في عرقلة الانتشار المسيحي انظر: أنـي جـوبير، المسيحيون الأولون، تعريب الأب ألبير أبونا، بغداد: المطبعة البولسية، 1982)، 50.

(37) د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 595.

(38) المطران سرهد يوسب جمو، الهوية الكلدانية في الوثائق التاريخية، 188.

(39) لويس شيخو، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، 85.

(40) ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة السريانية الشرقية، ج2، 55.

(41) يوارش هيدو، لمحة من تاريخ كنيسة المشرق، 12.

(42) فؤاد يوسف قزانجي، خلفية تاريخية للعصر الفارسي السرياني في العراق (80-637م)، مجلة بين النهرين، السنة 33، العدد 131-132، (2005)، 265.

(43) سليم مطر، جدل الهويات، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2003)، 173.

(44) لويس ساكو، المسيحيون بين انقسامات الماضي وتحديات المستقبل، مجلة الفكر المسيحي، السنة 25، العدد 241، (1989)، 89.

(45) د. أدمون رباط، المسيحيون في الشرق قبل الإسلام: نظرة سريعة، منشور في مجموعة باحثين، المسيحيون العرب: دراسات ومناقشات، (بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، 1981)، 18.

(46) نقلا عن د. أدمون رباط، المسيحيون في الشرق قبل الإسلام: نظرة سريعة، 20.

(47) مازن منير المصفي، تاريخ المسيحية في العراق، مجلة صدى النهرين، السنة الخامسة، العدد التاسع، (2009)، 17.

(48) د. سهيل قاشا، تاريخ نصارى العراق، 391.

(49) ستيفن همسلي لونكريك وفرانك ستوكس، العراق منذ فجر التاريخ حتى ثورة 1958، ترجمة مصطفى نعمان أحمد، (بغداد: مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي، 2008)، 53.

(50) ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، ج1، 25.

(51) ألبير أبونا، تاريخ الكليسة الشرقية، ج1، 26-27.

(52) د. خوشابا حنا الشيخ، نشأة المسيحية في العراق، 80. وكذلك روبنس دوفال، تاريخ الأدب السرياني، 298.

(53) رشيد الخيون، الأديان والمذاهب في العراب، 153.

(54) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 39.

(55) د. سهى رسام، جذور المسيحية في العراق، 19.

(56) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 292.
(57) سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 393.
(58) سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 393.
(59) ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، ج1، 83.
(60) نقلا عن ألبير أبونا، كوخي، الكنيسة الأولى في العراق، 337.
(61) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 45.
(62) فؤاد يوسف قزانجي، كشكر أول مدينة مسيحية في بلاد الرافدين، مجلة الفكر المسيحي، العدد 441-442، (2009)، 15.
(63) عبد الأمير الحمداني، مسيحيو جنوب العراق: الناس والأديرة والكنائس، مجلة مسارات، العدد 14، السنة الخامسة، (2010)، 46.
(64) د. خوشابا حنا الشيخ، نشأة المسيحية في العراق، 79.
(65) أيريكا دي هنتر، حاضرة الحيرة المسيحية، ترجمة عزيز عمانوئيل زيباري، مجلة بين النهرين، العدد 149-150، السنة 38، (2010)، 3.
(66) عبد الأمير الحمداني، مسيحيو جنوب العراق، 40.
(67) ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، ج1، 147.
(68) إريكا دي هنتر، حاضرة الحيرة المسيحية، 5.
(69) د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 596.
(70) أندرلوس أبونا، الحيرة عاصمة وحضارة، مجلة بين النهريين، العدد 133-134، السنة 34، (2006)، 84-85.
(71) ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، (القاهرة: دار الحديث، ج2، 2002)، 223.
(72) الأب لويس شيخو، شعراء النصرانية بعد الإسلام، (بيروت: منشورات دار المشرق، 1999)، ط5، 14-67-171.
(73) محمد كامل روكان، اللغة الآرامية في بلاد الرافدين: دراسة تاريخية، مجلة بين النهرين، العدد133-134، السنة 34، (2006)، 136.
(74) د. عبد الأمير الرفيعي، العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية، بيروت: الفرات للتوزيع والنشر، 2002)، 48.
(75) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 77.
(76) أفرام حنا نور الدين، الحيرة مهد النصرانية في وادي الرافدين، مجلة صدى النهرين، العدد 16، السنة الثالثة، (2007)، 9.

الفصل الثاني

المسيحيون العراقيون
والحضارة الإسلامية

أولا: الإسلام واحترام الآخر

مما لا جدال فيه أن أهمية هذا المبحث كبيرة جدا كونه يميط اللثام عن كثير من التشويش الذي يعتري صورة الإسلام، ويتهم مبادئه السمحة بأنها تقوم على التعصب وكراهية الآخر، والأمر الثابت اليوم أن الإسلام يعيش حالة من الفصام بين مبادئه وتطبيقها، إذ يعيش المسلمون حالة من الابتعاد عن كثير من قيم التسامح والانفتاح والتعايش الإنساني التي جاء بها الإسلام وطبقها رسوله الكريم محمد ﷺ وصحابته وخلفاؤه، وهذا بلا شك، جزء من واقع التخلف والانحطاط الذي يعيشه المسلمون في عالم اليوم. وتأسيسا على ذلك نود القول إنه ليس كل ما يصدر عن بعض المسلمين من ممارسات عنصرية وأساليب عدوانية حيال الآخر يمكن أن ينسب إلى الإسلام ومنظومته القيمية، فالإسلام شيء وكثير من المسلمين شيء آخر، فالإسلام يشكل وعاء فكريا عظيما، انطلقت منه نظم وأخلاقيات، وأحكام المجتمع المسلم. فهذا المجتمع اتخذ من الإسلام منهاجا لحياته وسلوكه وقيمه وتشريعه، ولكل مفردات حياته وشوونها الداخلية منها والخارجية.

ولهذا فإن الإسلام يقيم العلاقة بين أبنائه المسلمين وإخوانهم من غير المسلمين على أسس وطيدة من التسامح والعدالة والرحمة[1].

وأصل العلاقة الإسلامية مع الآخر يقوم على قوله تعالى: **﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**[2] وفي هاتين الآيتين ترخيص واضح للمؤمنين في البر والصلة وحسن المعاملة مع غير المسلمين من اليهود والنصارى والصابئة والمجوس وغيرهم قولا وفعلا، لا سيما أولئك المتعايشون مع المسلمين في ديارهم ولم يلحقوا أذى بالمسلمين، ولم يكونوا عونا لأعدائهم. فالإحسان والإكرام والصلة والعدل أساس تعامل المسلمين مع غيرهم[3] ومن أسس المعاملة الحسنة لغير المسلمين وجوب مجادلتهم بالحسنى في معتقداهم، والكف عن شتم دينهم، والاستهزاء به، والحط من قدر تعاليمهم، والامتناع عن مجادلتهم إلا بالتي هي أحسن[4]. قال تعالى: **﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾**[5].

كما أن من محاسن المعاشرة بين المسلمين وغيرهم المواكلة والمجالسة والمصاهرة، فسمح للمسلم أن يتزوج من النصرانية واليهودية، وتصبح أما لولده، وكاتمة لأسراره، وأمينة على أمواله، وشريكة في آماله وأحلامه وطموحاته، وتفاصيل حياته كلها، ويصبح أخوال أولاده وخالاهم من غير المسلمين[6]. قال تعالى: **﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ**

وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ...﴾[7]. وهنا يقول الإمام محمد عبده: (لقد أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية وجعل من حقوقها على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها والقيام بفروض عبادتها، والذهاب إلى كنيستها أو بيعتها[8]. و لم يفرق الإسلام في حقوق الزوجية بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية، فلها حظها من المودة ونصيبها من الرحمة، وهو يسكن إليها كما تسكن إليه، وهو لباس لها كما أنها لباس له[9]. ولا يتعلق الموقف الإسلامي بالصلات والعلاقات، وإنما بالضمانات والحقوق التي يوفرها المجتمع الإسلامي للمتعايشين فيه من الملل المغايرة، فلا يكتفي الإسلام بتحصين علاقة المسلم بغير المسلم، إنما يضع على المسلم شروطا وواجبات في حماية الآخر في دمه وماله وعياله من الاعتداء والظلم الذي يقع عليه داخليا وخارجيا، عبر منع الأذى، وكف العدوان باليد واللسان، فضلا عن حماية حريته الشخصية في السكن والسمعة الحسنة، والعمل والتنقل[10]، وقد توعد الإسلام من يخالف هذه التعاليم بعذاب شديد في الآخرة. قال النبي محمد ﷺ: "**من آذى ذميا فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة**" وقال ﷺ: "**لهم ما لنا وعليهم ما علينا**".

ولهذا فتح الإسلام باب المعاملة والعلاقة مع النصارى وغيرهم في كل شيء عدا الأشياء المحرمة في الإسلام، كشرب الخمر وأكل الخنزير والميسر والمراباة وغيرها[11]. ولعل المكانة التي أولاها الإسلام لغير المسلمين قد نبعت، في الأصل، من الخصوصية التي تتميز بها الديانات السماوية، ولا سيما المسيحية واليهودية، فهما مع

الإسلام يشكلان فروعا لأصل النبوة الواحدة لنبي الله إبراهيم. وفي هذا الإطار يقول الشيخ محمد الغزالي إن الإسلام (هو يهودية موسى ونصرانية عيسى معا، وهدايات من قبلهما من رسل الله الأكرمين جميعا)[12]، ولذلك حث الله أتباع هاتين الديانتين باهتمام خاص، وأمر المؤمنين باحترام عقائدهم، رغم ما في بعضها من انحراف وتأويل حسب العقيدة الإسلامية. وفي القرآن الكريم احترام وتبجيل للأنبياء والرسل السابقين على دعوة النبي محمد ﷺ وقد جعل الله الإيمان برسالات أولئك الرسل شرطا من شروط الإيمان. قال تعالى: **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾**[13].

ثانيا: نظرة الإسلام إلى المسيح والمسيحيين

أما نبي الله عيسى بن مريم وأمه الصديقة مريم العذراء فقد خصهما الإسلام بآيات من التبجيل والتعظيم، فقد ورد ذكر عيسى، أو عيسى بن مريم، أو المسيح (33) مرة في سور وآيات متفرقات من القرآن العظيم. أما الصديقة مريم فقد ذكرها القرآن (30)، ونزلت سورة باسم مريم، والأخرى باسم آل عمران تكريما وتعظيما لهذه العائلة النبوية، ودورها في تحرير البشرية من العبودية والظلم اللذين كانا سائدين في بني إسرائيل، فعيسى في الفهم الإسلامي هو رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وولادته كانت إحدى المعجزات التي أراد الله بها الخير له ولأمته وللعالمين. قال تعالى: **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾**[13].
وقد أجرى الله على يديه الكثير من المعجزات التي تثبت رسالته،

وأفحمت الكثير من المشككين من بني إسرائيل. ﴿... وآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ...﴾[14]. وقال أيضا: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[15].

وقد ألغى القرآن الكريم كل الشبهات التي وضعها أنصار عيسى وأتباعه حول ألوهيته، فأقر بأن عيسى هو بشر ورسول، ولا يختلف عن الرسل الذين بعثهم الله من قبله إلى الأمم السابقة، فقد جاء عيسى بالإنجيل، وهو كتاب وصفه الله بأن فيه هدى ونورا ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ...﴾[16]. وانتقد القرآن أهل الكتاب الذين يعطون المسيح صفات إلهية، فقال تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ...﴾[17].

وأما السيدة مريم فلها منزلة عظيمة ومقدسة في الإسلام وفي ضمير المسلمين، فهي العذراء والصدِّيقة والطاهرة والراكعة والخاشعة وهي سيدة نساء العالمين، واسمها من أحب الأسماء التي يسمي بها المسلمون بناهم تبركا وتيمنا بهذه المرأة الطاهرة، وقد خصها الله بكرامات قبل ولادة عيسى، إذ إنها كانت عابدة ناسكة فأجرى الله على يديها الكرامة ودوام الرزق. قال تعالى: ﴿... كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[18]. وقد

اصطفاها الله تعالى من بين نساء العالمين لحمل وولادة سيدنا عيسى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[19]. ومما لا شك فيه أن المسلمين يقرؤون هذه الآيات في صلواتهم وخلواتهم، ويؤمنون بها إيمانا قاطعا، وقد كرست لديهم سلوكا جمعيا في احترام النصارى ودياناتهم، وعقائدهم، وكنائسهم، وديارهم، فهم أقرب مودة للذين آمنوا كما أخبرنا القرآن بذلك ﴿... وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى...﴾[20]. ونظرا للتقارب العقائدي بين المسيحية والإسلام[21] تحدث النبي محمد ﷺ عن عيسى بن مريم بروح الأخوة. فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة" قالوا كيف يا رسول الله؟ قال "الأنبياء إخوة من علات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد فليس بيننا نبي"[22]. وقال أبو هريرة إن رسول الله ﷺ قال "ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان، فيستهل صارخا من نخسة الشيطان، إلا ابن مريم وأمه"[23] ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿... وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ آل عمران: 36.

وفي مدح صفات عيسى في حلمه وصبره قال رسول الله ﷺ: ﴿رأى عيسى بن مريم رجلا يسرق فقال له عيسى: سرقت؟ قال: كلا. والذي لا إله إلا هو! فقال عيسى: آمنت بالله، وكذبت نفسي)[24]. وفي شدة المحنة التي واجهها النبي ﷺ في دعوته والحصار الذي فرضته قريش عليه وعلى أصحابه، أشار النبي إلى أصحابه بضرورة الهجرة إلى الحبشة (إثيوبيا اليوم)، لأن فيها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهو النجاشي، وبالفعل استقبل النجاشي أنصار

النبي ﷺ وآواهم وذكرهم بأنه لا يوجد بين دينهم الإسلام ودين المسيح سوى خيط بسيط، وقد قيل إن النجاشي قد أسلم لاحقا وصلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب كما يفعل مع أموات المسلمين.

وبعد هجرته إلى المدينة المنورة، أصدر النبي ﷺ ما يعرف في الفقه السياسي بدستور المدينة الذي ساوى بين المسلمين وغيرهم في مفهوم المواطنة، وأعطى لكل فرد في المدينة حق الحرية في أن يختار بين الإيمان والكفر، ولم يشهد تاريخ المرحلة النبوية اضطهادا لأهل الذمة، عدا ما جرى لليهود بسبب غدرهم برسول الله ﷺ ونقضهم الوعود معه، فجلاهم النبي عن المدينة[25]. وضمن إطار حرية الفكر والعقيدة التي أتاحها النبي ﷺ للآخر، فقد استقبل وفدا من نصارى مدينة نجران فحاورهم ورضي أن يكون حكما بينهم، وسمح لهم بالصلاة في مسجده الشريف، وقد جاء في المصادر أن الرسول ﷺ في استقباله لوفد نصارى نجران، لم يفتح معهم حوارا دينيا إلا في اليوم الرابع من وفادتهم، بعد أن استضافهم في المسجد، وضرب لهم قبة حمراء، وصنع لهم طعاما في بيوتات أزواجه، وصار يأتيهم بالطعام لثلاثة أيام مكرمين، فقال له أصحابه: نحن نكفيك يا رسول الله، فقال أعلم ذلك، ولكن أحب أن أخدم ضيفي بيدي، ثم فتح معهم حوارا فكريا ودينيا في اليوم الرابع وسمح لهم بالصلاة في مسجده[26]. ولعل أبلغ آيات الانفتاح النبوي مع النصارى هو زواج النبي ﷺ من مارية القبطية أم المؤمنين، وأم ولده إبراهيم، التي أهداها إليه مقوقس مصر بعد هجرته إلى المدينة فأكرمها وأثنى عليها[27]. وفي هذا دليل على المكانة التي يحتلها المسيحيون، دون غيرهم، في الفكر والمنهج الإسلامي.

وفي إطار تلك المكانة التي يحتلها النصارى في المنهج الإسلامي، يطرح بعض الباحثين أسبابا متعددة لميل النبي ﷺ وتعاطفه مع النصارى على حساب اليهود، إذ إن اليهود واجهوا النبي ﷺ بالحرب والمؤامرات والدسائس، كما أن قلوبهم قاسية على عكس النصارى الذين وصفهم القرآن بأنهم أهل مودة، وأنهم لا يستكبرون عن سماع الحق، نظرا لما في قلوبهم من اللين والموادعة للمؤمنين كما قال تعالى ﴿... **وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى**...﴾[28]. ويؤكد عبد المسيح الكندي أن البشارة بالنبوة التي تلقاها النبي من الرهبان النصارى، ولا سيما الراهب بحيرا الذي أقام في جزيرة العرب وتحذيره لجد النبي عبد المطلب من دسائس اليهود ومكائدهم للنبي، فضلا عن البشارة بنبوة محمد ﷺ التي صدرت عن ورقة بن نوفل وهو من نصارى قريش وابن خالة السيدة خديجة زوج النبي ﷺ، تعد من الأسباب المهمة لميل النبي ﷺ للنصارى[29].

وتشير مصادر مسيحية إلى أن لبعض رجال النصارى دورا في التهيئة لرسالة النبي محمد ﷺ، فالقرآن يعترف بصفة العلم عند القسيسين والرهبان، وقد مدح النبي ﷺ قس بن ساعدة الإيادي وهو أسقف نجران، وسمع خطبه في سوق عكاظ، وكان مشهورا بالبلاغة والزهد والتصوف. كما التقى النبي ﷺ بعدّاس، وهو نصراني من نينوى كان يعمل في مزارع الطائف وقدم له المساعدة بعد أن جفاه أهلها، وقد آمن بالنبي ﷺ، وبات يرقي النبي ﷺ عند مرضه، بما يعرف من الكتب السابقة[30]، والتقى النبي صهيب الرومي الذي أسلم لاحقا وبات من صحابته المقربين وغيرهم كثير.

ثالثا: المسيحيون والفتوحات الإسلامية

لعل النظرة المتسامحة التي أولاها الإسلام حيال أنصار الأديان غير الإسلامية، وأجواء الحرية والعدل التي عاشها أولئك في ظل الدولة الإسلامية، يقابلها جور وعسف الحكام في بلاد فارس وروما وبيزنطة، يفسر لنا السرعة الكبيرة التي انتشر بها الإسلام والاستعداد اليقيني الذي قوبل به العرب الفاتحون من سكان البلاد المفتوحة[31]. ولهذا لم يكن غريبا أن يسجل التاريخ، أن توغل العرب في البلدان المختلفة كان -في الغالب- محاطا بعطف الشعوب التي سعوا إلى هدايتها، وأن حكومات تلك البلدان في مصر والشام والعراق كانت أشد ظلما وجورا، وأن أهل تلك البلدان قد رحبت بشريعة الإسلام، بعد أن وجدوا في سماحته، وعدالة تعاليمه، وقبوله بالتعددية الدينية ما يبدد المخاوف التي زرعت عنوة في نفوسهم حول بربرية العرب وقسوتهم[32].

ويقول عن ذلك د. أدمون رباط (لأول مرة في التاريخ انطلقت دولة هي دينية في مبدئها، ودينية في سبب وجودها، ودينية في هدفها، ألا وهو نشر الإسلام عن طريق الجهاد بأشكاله المختلفة من عسكرية وتبشيرية إلى الإقرار -في الوقت نفسه- بأن من حق الشعوب الخاضعة لسلطانها أن تحافظ على معتقداتها وتقاليدها وطراز حياتها، وذلك في زمن كان يقضي المبدأ السائد بإكراه الرعايا على اعتناق دين ملوكهم، وهذه القاعدة لم تندثر في الغرب إلا بعد الثورتين الأمريكية والفرنسية)[33]. لقد شكل الاضطهاد والعسف الذي عاناه مسيحيو العراق سببا في الارتياح الذي قوبل به العرب الفاتحون، فحسب الأب بهنام بطرس فقد مل المسيحيون من الظلم الذي تعرضوا له في مختلف العهود الفارسية، فلعل الفاتحين الجدد

يكونون أكثر رحمة وإنسانية تجاههم، لا سيما ودينهم دين سماوي. كما أن التقارب اللغوي بين السريانية والعربية، وسهولة التفاهم بين المسيحيين والمسلمين الفاتحين كان سببا في قبول المسلمين والترحيب بهم[34].

ولعل من أبلغ مظاهر الترحيب المسيحي بالفتح الإسلامي هو مشاركة قبائل عربية مسيحية من الحيرة ومناطق عراقية أخرى في معارك المسلمين ضد الفرس، وهو ما كان له انعكاس طيب في نفوس المسلمين العرب[35].

ومن مظاهر الترحيب الأخرى ما يشير إليه بعض الباحثين النصارى من أن الجاثليق النسطوري أيشو عياب بطريرك كنيسة المشرق في قطيسفون (المدائن) راسل النبي ﷺ سنة 627م، وأرسل له هدايا من جملتها ألف ستارة فضية مع جبرائيل أسقف ميشان (ميسان حاليا) جنوبي العراق، وكان عالما فاضلا، وكاتبه وسأله الإحسان إلى النصارى، وبره الرسول ﷺ بعدة من الإبل وثياب عدنية، كما بعث الجاثليق أيشوعياب برسالة إلى أحد الأساقفة في بلاد فارس، يقول له فيها (إن العرب الذين وهبهم الله الملك يحترمون الديانة المسيحية، ويودون القسس والرهبان، ويكرمون أولياء الله، ويحسنون إلى الكنائس والأديار)[36]. ومع أن البعض يشكك في هذه الرواية ويرى أن المؤرخين النصارى اختلقوا هذه الصلات والمراسلات المسيحية مع النبي ﷺ، محاولة منهم للتخفيف من وطأة الجزية والضغوط الأخرى عليهم، فضلا عن كونها محاولة للحفاظ على وحدة كيانهم، وقوة دينهم وتقاليدهم. إلا إن البعض الآخر من الكتاب لا يرى مانعا في أن يقوم نصارى العراق بمكاتبة النبي ﷺ في حمايتهم على شاكلة نصارى نجران الذين أرسلوا وفدا إلى النبي

ﷺ فاستقبلهم وسمح لهم بالصلاة في مسجده، لا سيما وجاثليق المشرق أيشو عياب كان نسطوريا ويتفق مع تصورات الإسلام حول شخصية عيسى بن مريم، ويمتد سلطانه الروحي إلى ما وراء حدود الدولة الساسانية، فليس مستبعدا أن تحصل مراسلات بين الشخصيتين[37].

ومهما يكن من خلاف حول هذا الأمر فلا جدال على أن قوة تأثير الإسلام وانتشاره في الجزيرة العربية وبداية خروجه إلى الأقطار المجاورة على يد جيوش الفاتحين قد تكون عاملا هاما في الترحيب المسيحي بقدوم المسلمين، فقد أثبت الإسلام عبر مبادئه تسامحه مع الآخر، وذلك بسبب الحلول التي كان يقدمها للمجتمع، والعيش المشترك مع الآخر، يضاف لذلك مفاهيمه عن الحق والعدل والمساواة ومحاربة الظلم، ودعوته إلى التعاون والشورى، لدرجة جعلت الفرد يشعر بقيمته الإنسانية، وبأنه عنصر فاعل ومؤثر في محيطه، وليس مجرد منفذ. هذه الروح المتسامحة التي كانت تسود بلاد الإسلام والتي يقابلها احتقار وامتهان لأهل الأديان والمذاهب المغايرة في بلاد المسيحية في بيزنطة وغيرها[38] هي التي كانت وراء انحياز كثير من النصارى إليه، فقبلوا أن يكونوا من رعايا الدولة الإسلامية، وأن تسري أحكامه عليهم في كثير من قضاياهم وأحوالهم، بعد أن وجدوا في عدالة تعاليمه ما يبدد مخاوفهم، ولهذا تورد لنا الأخبار أن المسيحيين قد قبلوا بشرع النبي، وأن يكون حكما بينهم بعد أن رأوا حرصه على التمسك بالعدالة، فبعث إليهم النبي ﷺ أبا عبيدة عامر بن الجراح ليقضي بينهم فيما اختلفوا فيه[39]. لقد أفاد نصارى العراق من مبادئ الإسلام المتسامحة، عناصر سياسية واجتماعية كانوا يعانونها أيام العصر الساساني، فقد عانوا الضنك والشدة في العيش

والمعتقد، في ظل السيطرة الفارسية على العراق. ويرى المستشرق بارتولد أن (من عوامل ضعف الإمبراطورية الساسانية اضطهادها للوثنيين والنصارى، فصار هؤلاء جميعا حلفاء للعرب عند الفتح)[40]. للتخلص من ظلم الأكاسرة، وأملا في الإعفاء من الخدمة العسكرية، ورغبة في تمتعهم بالحرية الدينية، هذا بجانب المميزات الأخلاقية التي تمتع بها العرب الفاتحون[41].

ويضيف الأب سهيل قاشا عاملا آخر وهو العامل القومي المتعلق بالروابط القومية التي تربط كثيراً من القبائل العربية المسيحية في العراق بالعرب الفاتحين، إضافة إلى عوامل الثأر من الفرس نتيجة الاضطهادات وعمليات القتل والإبادة التي لاقاها مسيحيو العراق أيام شابور الثاني (ذي الأكتاف) وأنوشروان وكسرى أبرويز، فتلك العوامل هي التي دفعت المسيحيين لنصرة وموازرة الجيوش الإسلامية[42]. وتفصح سيرة الفتح الإسلامي للحواضر العراقية بالحيرة عن تعامل أخلاقي يشهد به الكثير من المصادر التي تناولت ذلك الأمر قام به قواد الجيوش الإسلامية، فقد أقروا أهل تلك الحواضر على ما هم عليه، ولم يجبروهم على دخول الإسلام كعادة الجيوش الفاتحة. فحينما سار خالد بن الوليد إلى العراق ووصل الحيرة خرج إليه أشرافها مع قبيصة بن أياس بن حيّة الطائي ملك الحيرة بعد النعمان بن المنذر، فعرض عليه خالد شروط الإسلام في الدعوة والجزية والحرب، فرد عليه قبيصة: ما لنا بحربك من حاجة، بل نقيم على ديننا ونعطيك الجزية، فصالحهم وعاقدهم على تسعين ألف درهم، فكانت أول جزية وقعت في العراق دفعها أهل الحيرة مقابل البقاء على نصرانيتهم، فبقيت الحيرة على حالها لثلاثة عقود دون أن يغير أحد من المسلمين العهد الذي مضت عليه[43].

وفي فتحه لعانات (الآن عانه في غرب العراق) عاهد خالد بن الوليد أهلها على تلك الشروط التي عاهد عليها أهل الحيرة، إذ أقرهم على دينهم وأعطاهم الحق في (أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاءوا من ليل أو نهار، إلا في أوقات الصلاة، وأن يخرجوا الصليان في أيام عيدهم)[44]. وفي الموصل استقبل أهلها النصارى جيوش الفاتحين المسلمين بترحاب، وفتحوا لهم أبواب المدينة للتخلص من ظلم البيزنطيين، وتروي المصادر أن الجاثليق (مار عمه) قد زود الجيوش الإسلامية بالمؤونة الضرورية عند استيلائهم على الموصل، وبعد الفتح عينه المسلمون جاثليقا لكنيسة المشرق سنة 646م، اعترافا بخدماته الجليلة[45].

وفي الواقع لم يكن سلوك خالد بن الوليد وغيره من قادة الفتح الإسلامي نابعا من تصرف شخصي أو من ظروف نصارى العراق وقبولهم دفع الجزية، إنما كان عملا ينبع من جوهر نظرة الإسلام ونظرة النبي ﷺ لأهل الذمة وما أوثقه من عهود تحض على التسامح مع النصارى والمحافظة عليهم ورعايتهم وعدم تكليفهم فوق طاقتهم[46]. كما كان نابعا من رؤية الخلفاء الراشدين الذين حفظوا عهد رسول الله مع أهل الذمة، فأوصوا قادة جيوشهم بمراعاة عقائد أهل البلدان المفتوحة والتخفيف عليهم، وتركهم على ما هم عليه، وعدم المساس بصلبانهم وكنائسهم، وصوامعهم إن هم رفضوا الدخول في الإسلام، فقد أوصى الخليفة أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) رجال جيشه، بوصايا عظيمة عند الفتح منها (ألا تخونوا، ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيرا، ولا شيخا كبيرا، ولا شاة، ولا بقرة، ولا بعيرا إلا لأكل، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له)[47].

ومن هذا المنطلق نفهم كذلك عقاب أمير المؤمنين عمر بن الخطـــاب (رضي الله عنه) لواليه على مصر عمرو بن العاص عندما ضرب ابنه صبيا قبطيا، فأصر عمر على أن يقتص الصبـــي القبطي مـــن ابـــن عمرو قائلا: اضرب ابن الأكرمين... ثم وجه تعنيفه إلى الوالي المسلم قائلا: يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟ وقد استحضر الإمام علي بن أبـــي طالب عليه السلام تلـــك المعـــاني في كتابه إلى واليه على مصر مالك الأشتر عندما قال له: وأشعر قلبـــك الرحمة للرعية والمحبة بهم، واللطف بهم... فإنهم صنفان: إما أخ لـــك في الدين، أو نظير لك في الخلق)[48].

وتلك المعاني الإسلامية حيال الآخر سنجدها تتمثل في ســـلوك غالبية الحكام والخلفاء المسلمين عدا بعض حالات الغلو التي رافقـــت سلوك بعضهم بسبب ضغط المرحلة التي عاشـــوا فيهـــا أو بســـبب تفسيرات مغالية لرجال دين متعصبين أو أمراء وولاة متزمتين أو عوام متخلفين والذنب ذنب هؤلاء، وليس ذنب الإسلام الذي رفع مـــن كرامة غير المسلم، وخصه بالاحترام والتقدير لدينه وفكره وإنسانيته. وهنا يقول الشاعر العراقي الكبير معروف الرصافي:

يقولـــون في الإســـلام ظلمـــا بأنـــه
يصـــــد ذويـــــه عـــــن التقـــــدم
فإن كان ذا حقـــا فكيـــف تقـــدمت
أوائلـــــه في عهـــــدها المتقـــــدم
وإن كان ذنب المسلم اليـــوم جهلـــه
فماذا على الإسلام من جهل مســـلم؟

لقد أيقظ الإسلام المجد والعلا

بصائر أقوام عند المجد نوم

ودك حصون الجاهلية بالهدى

وقوض أطناب الظلال المخيم[50]

ويروي ابن كثير أن خالد بن الوليد حينما توجه إلى المدائن، وقاتل جيش الفرس وانتصر عليهم في ذات السلاسل لم يتعرض للفلاحين النصارى من أهل العراق، ولم يقاتل أحدا منهم ولا أولادهم، وحينما فتح الأنبار في غرب العراق وأخرج منها جيش الفرس بقيادة شيرزاذ، نزلها خالد، وتعرف إلى أهلها، وتعلم كثير من الصحابة في الجيش الكتابة العربية على يد العرب النصارى المقيمين فيها، وكان أولئك قد تعلموها من عرب قبلهم وهم بنو إياد الذين سكنوا الأنبار منذ زمن الملك البابلي بوختنصر حين أباح العراق للعرب، ثم أنشد أهل الأنبار خالدا أبياتا من الشعر تمتدح بني أياد:

قَومي إيادٌ لَو أَنَّهُم أَمَمُ وَلَو أَقاموا فَتُهزَلُ النَعَمُ

قَومٌ لَهُم باحَةُ العِراقِ إِذا سَاروا جَميعاً واللوحُ وَالقَلَمُ[51]

وينقل د. فائز عزيز أسعد عن الكثير من المصادر التاريخية المعتبرة، كالسيوطي في المزهر، والفهرست عن ابن عباس، والعقد الفريد لابن عبد ربه، والبلاذري في فتوح البلدان، أن القبائل العربية في العراق كان لها سبق الريادة في اكتشاف الحرف العربي، فبعد أن كان عرب الجنوب في اليمن يستعملون نوعا من الكتابة يسمونها (المسند)، وكانت حروفها تصويرية ومنفصلة وبدائية وقريبة من

الحرف الحبشي، وهي التي عرفها العرب الحميريـون حتى القـرن السادس، ولم تنتشر بين العرب الآخرين إلا بقدر محدود. فقد بدا في وقت لاحق نصارى العرب في شمال الجزيرة العربية يستعملون حرفا جديدا اصطنعوه من الحرف السرياني الآرامي، الذي كان سائدا لدى (النبط) وهم حلقة الوصل بين العرب والسريان. وقد نسب الحرف الجديد الذي سمي (الجزم) إلى رجال مسيحيين ثلاثة من قبيلة طيء، ويسكنون الأنبار في العراق، وهم مرامرة بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة، فقد وضع هؤلاء الخط الجديد، وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، وعلموه أهل الأنبار، وانتقل إلى الحيرة ومنها إلى عموم الجزيرة العربية، وقد تم تطويره لاحقا في الكوفة بعد ظهور الإسلام، فهو خط وحرف وكتابة من اختراع نصارى عرب العراق، وقد كانت المعلقات التي كتبها كبار فحول الشعر العربي تكتب بالحرف العربي الجديد وتعلق على أستار الكعبة، ووجد أقدم أثرين لهذه الكتابة، يرجع الأول إلى سنة 512م في جوار الفرات، والثاني إلى سنة 568م في حران، وقد أكد علماء مستشرقون هذا الأمر، ومنهم المستشرق (دي سي) الذي أثبت أن فن الكتابة العربية هي من صنع نصارى العرب العراقيين[52].

رابعا: مسيحيو العراق والدولة الأموية

رغم أن عهد الأمويين مع المسيحيين ظل يخضع في أوقات قليلة لمد وجزر بسبب ليونة الحكام وشدتهم، فإن طابع التسامح والتعاون ظل هو الغالب على تعاملهم مع المسيحيين، إذ لقرب عهد الأمويين بالمسيحية في بلاد الشام والعراق، فقد اعتبر البعض أن العهد الأموي هو أكثر عهود المسيحية ازدهارا، فقد قرب الأمويون المسيحيين،

وأوكلوا إليهم الكثير من مهام الدولة، ووظائفها في الإدارة والترجمة بسبب عدم معرفة المسلمين آنذاك، بشؤون الإدارة، وكثرة احتكاك المسيحيين بالحضارات الفارسية والبيزنطية. ويذكر يوحنا برفنكاي، وهو من أهم الشخصيات العراقية المسيحية التي عاصرت زمن معاوية بن أبـــي سفيان أن (العدالة ازدهرت في أيامه، وعم السلام الشامل كل البلاد الخاضعة لحكمه، وتمتع الناس بحرية مطلقة، فإن صاحب شريعتهم قد أوصاهم بحب المسيحيين والرهبان، فكانوا يطالبونهم بالخراج، ويطلقون لهم الحرية التامة في أمر الدين)[53]. إن الموقف الإيجابـــي الذي وقفته الدولة الأموية من المسيحيين والحقوق والامتيازات التي تمتعوا بها جعلتهم يقفون -في الغالب- موقف المؤيد للحكومات الأموية، لا سيما في الحالات التي كان فيها الأمويون يحتاجون لمساعدتهم في العراق، فقد ساهمت قبيلة تغلب المسيحية في قمع حركة مصعب بن الزبير في البصرة، وفي هذا قال الشاعر التغلبـــي الأخطل شعرا يبين موقف قبيلته من ثورة ابن الزبير:

ولمــــا تبيّنــــا ضـــــلالة مصـــــعب

فتحنا لأهل الشام بابا مـــن النصـــر[54]

كما كان لوقوف المسيحيين إلى جانب معاوية في حربـــه مـــع الإمام علي بن أبـــي طالب وزواجه من ميسون الكلبية، وهي مـــن قبيلة بني كلاب المسيحية، وكانت أم ولده يزيد، فضلا عن تعامـــل معاوية مع مستخدمين وأطباء وعلماء نصارى، دور مؤثر في الموقف الإيجابـــي للبيت الأموي من نصارى العراق[55]. ولعل أهم مـــواطن التأييد المسيحي للدولة الأموية ما تبنته الكنيسة الشرقية في العراق من موقف في منع أبنائها من الذهاب إلى القسطنطينية وروما للتعلم

والدراسة، تضامنا مع الدولة الأموية التي كانت في صراع مع الدولتين، مقابل ذلك حفظ الأمويون للمسيحيين حقوقهم كاملة في الحرية الدينية والحقوق الشخصية والشرعية، إذ كانوا يقومون بشعائرهم الدينية بصورة علنية وباحتفالات ومهرجانات يحضرها الجميع وبحرية تامة، إضافة إلى حقهم في التملك الوقفي للكنائس والأديرة، والتبشير بالعقائد الخاصة بكل طائفة وحسب مذهبها، أما وإن الحقوق الشرعية للمسيحيين كانت محفوظة ومصونة، إذ كان يحق لهم ما يحق للمسلمين في التقاضي والشهادة أمام القاضي، إضافة لحق السكن والضمان والإرث، وشراء الإماء والعبيد، وحق التنقل، فقد كان المسيحيون يتعاملون بهذه الحقوق على صعيد واحد إزاء المسلمين دون تمييز ديني وعرقي وعشائري فالجميع متساوون كأسنان المشط.

وهنا تبرز لنا صورة جديدة في المحافظة على حقوق زوجة المسلم، وكان زواج المسلم من غير المسلمة أمرا شائعا آنذاك، فقد تزوج الخليفة معاوية من ميسون الكلبية كما مر بنا، وكانت أم الوالي على الكوفة خالد بن عبد الله القسري، رومية مسيحية تمكن ولدها خالد أن يبني لها كنيسة في الكوفة قريبة من الجامع الكبير، دون اعتراض من مركز الخلافة الأموية في دمشق، وهو ما يصور عمق العلاقة والتآخي بين المسلمين والمسيحيين[56]. إضافة إلى ذلك فإن الحقوق المدنية كالتوظف والعمل كانت هي الأخرى متاحة وبفرص عديدة، فقد كان المسيحي يعمل ويكسب من عمله التجاري والحرفي دون مضايقة، لا سيما وبعض الحرف قد تركت للمسيحيين دون منافسة فبرعوا بها وتخصصوا فيها كالصيرفة والقروض وبيع الخمور[57]. وقد تساوى في معاملة المسيحيين أغلب أمراء بني أمية،

عدا بعض الولاة الذين تشددوا في بعض الفترات لأسباب شخصية أو سياسية أو اجتماعية، أو بضغوط من بعض رجال دين متشددين، كما هو الحال زمن الحجاج بن يوسف الثقفي، حيث كان أهل الذمة من المسيحيين وغيرهم فضلا عن الموالي هم أضعف الطبقات الاجتماعية، واتخذت في عهده قرارات مجحفة بحقهم، وحتى الذين أسلموا منهم ظل الحجاج يلاحقهم في جباية الجزية[58]. عدا عن الحجاج وغيره قليل، عاش المسيحيون في أجواء طبيعية في ظل احترام الأمراء والولاة من بني أمية لخصوصيتهم الدينية، وفي هذا يقول أوليري (قامت الدولة الأموية في دمشق وحكامها من العرب، ولكن ذلك كله لم يغير الحياة الداخلية للمجتمعات المسيحية التي عاشت حرية تامة، فكانت خاضعة في دفع الجزية فقط[59].

ولهذا لم يمنع المسيحيون من أداء شعائرهم الدينية والظهور بمظاهرهم الخاصة كلبس الصلبان، وتشييع موتاهم، بل وحتى شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير وبيعه وشرائه، والذهاب إلى الكنائس، والتبشير بالمسيحية، فقد أرسل مسيحيو العراق البعوث الدينية في السنوات 636 و650 و661 و743 و778م، إلى الصين والهند وأذربيجان وأفغانستان، وقد بلغ التعايش بين المسيحيين والمسلمين أن بدأ كثير من النصارى بدخول مساجد المسلمين لحضور الندوات والاجتماعات العامة، فقد ذكر البلاذري أن الوليد بن عقبة (كان يدخل أبا زيد المسجد وهو نصراني)[60]. وكان الأخطل وهو من فحول الشعر العربي من قبيلة بني تغلب المسيحية، يدخل مسجد بكر بن وائل في الكوفة فيقدم عليه الناس مرحبين، وقد بلغ مستوى التعايش أن سمح لشاعر بني أمية كما وصفته المصادر أن يهجوا المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام، فوصفهم بأنهم أسلموا تحت ضغط

الجوع وليس بسبب العقيدة، بل تعدى الأمر إلى أن يضمن بعض أشعاره تهكمات صريحة ضد الإسلام، ومن جملة ما قاله ضد الإسلام:

ولست بصائم رمضان طوعا ولست بآكل لحم الأضاحي

ولست بقائم أبدا أنادي كمثل العير حي على الفلاح

ولكني سأشربها شمولا وأسجد عند منبلج الصباح

ورغم موقف الأخطل الساخر من الإسلام، كان تحت حماية الخليفة عبد الملك بن مروان.

إزاء أجواء الحرية والتسامح التي عاشها مسيحيو العراق، برز منهم شخصيات ورجال قدموا خدمات جليلة للمجتمع الإسلامي في مجال الأدب والفلسفة والطب والترجمة وأعمال الخدمة العامة، إذ قلما خلا منهم عهد من عهود الأمويين. فقد كان طبيب معاوية بن أثال مسيحيا، كما كان لمعاوية كاتب مسيحي آخر اسمه سرجون[61]. في حين عهد سليمان بن عبد الملك إلى كاتب نصراني يدعى ابن النقا بالإشراف والنفقة على مسجد بناه في بلدة الرملة في فلسطين. وقد استعان الحجاج -رغم إبعاده للنصارى- بطبيب مسيحي هو تياذوق، وكان شخصا حاذقا وله نوادر وأفكار مستحسنة في صناعة الطب، حيث تمكن من شفاء الحجاج من بعض الأمراض والعادات السيئة[62].

ورغم الانتقادات التي يوجهها كتاب ومؤرخون لعهد الخليفة عمر بن عبد العزيز من حيث صدور تعليمات وأوامر بالتضييق على أهل الذمة في الوظائف العامة وفي الحريات الدينية، فإن الأب سهيل قاشا يؤكد أن تلك الآراء لم تكن صحيحة، فأوامر التضييق والإبعاد للنصارى افتريت على الخليفة عمر بن عبد العزيز، إذ لم تكن من

طبيعة حكمه الذي اتسم بالعدل والرحمة، فمن المعروف في التاريخ المسيحي أن عهد عمر بن عبد العزيز كان منفتحا ومتسامحا، ويستدل بكثير من الشواهد على عدل الخليفة مع المسيحيين، منها أنه كتب إلى أحد ولاته بأن (لا تهدموا كنيسة، ولا بيعة، ولا بيت نار صالحتم عليه)[63]. وأنه كان يقول لولاته (لا تقتلوا راهبا ولا أكارا أي مزارعا)، كما أوجب شمول النصارى من كبار السن بعطاء من بيت المال، فقد كتب إلى عامله في البصرة عدي بن أرطأة (أما بعد... وانظر من قبلك من أهل الذمة من كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه)[64]. وقد أوردت الأخبار أن عمر بن عبد العزيز قد أوجب البر بالعهود المعطاة للمسيحيين وأمر بإعطاء كل ذي حق حقه، فقد أمر عامله في دمشق أن يرد إلى المسيحيين كنيستهم التي أقاموا فيها مسجدا، فكره أهل دمشق ذلك وقالوا (نهدم مسجدنا بعد أن أذنا وصلينا، ثم أقبلوا على المسيحيين فسألوهم أن يعطوا جميع كنائس الغوطة التي أخذت عنوة على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا فرضوا بذلك)[65]. ومن الدلائل المؤكدة أن المصادر المسيحية المشرقية قد خلت تماما من الإشارة إلى منع عمر بن عبد العزيز المسيحيين من بناء الكنائس، مما يدل على استمرار مرحلة مزهرة عاشها المسيحيون في ظل الدولة الإسلامية الأموية.

خامسا: مسيحيو العراق والدولة العباسية

انتقل مركز الخلافة في العهد العباسي إلى العراق، وباتت بغداد بعد مدة قصيرة من تولي العباسيين عاصمة هامة، وجامعة لكل أشكال التمايز الديني والعرقي باعتبارها عاصمة الدولة الإسلامية،

وأصبح التعامل مع الخلفاء مباشرة، يومها اقترب المسيحيون من دواوين الدولة الجديدة التي كانت بحاجة إلى مثقفين يقومون بأعباء الإدارة والدواوين والجباية والشؤون المالية. وكان المسيحيون وحدهم يمتازون في ذلك الوقت بثقافة عالية، فكانوا من أهل العلوم والحرف فلاسفة وأطباء وفلكيون[66]. ورغم حاجة الدولة العباسية إلى خدماتهم ومهاراتهم، فإن خلفاء الدولة كانت مواقفهم متباينة بين الشدة واللين، فقد تعامل المسيحيون وكنيستهم مع ولاة وقضاة وخلفاء يتشددون حينا ويتسامحون حينا آخر، حسب أمزجتهم ومستوى ثقافتهم ووعيهم الديني والسياسي والإنساني، إذ لم يكن هناك مستوى واحد وواضح لتلك المواقف.

ويرى ألبير أبونا أن أغلب هؤلاء الأمراء والخلفاء كانوا يسايرون العامة وينشدون تأييد الحنابلة على وجه الخصوص بممارسة التضييق على أهل الذمة[67]. غير أن واقع المسيحيين وتطورهم والمراكز التنفيذية والإدارية والعلمية التي تقلدوها يظهر عكس ما يتصوره أبونا وغيره من كتاب المسيحيين من تضييق لنصارى العراق، إذ يشير الأب سهيل قاشا إلى أن الدولة العباسية ستتجه بعد تثبيت أركانها باتجاه أهل الذمة وتبني سياسة التعاون معهم، لا سيما في الميدان الإداري، فقد ورث العباسيون عن الأمويين معظم الإدارات مع موظفيها غير المسلمين نظرا لإتقانهم عدة لغات إضافة إلى العربية[68]. وقد ساعدهم ذلك في تبوء أكثر المراكز حساسية في بعض العهود العباسية، إذ كان لهم حرية مطلقة في بعض الإدارات المهمة.

ويذكر فهمي هويدي أن الفترة الواقعة بين خلافة أبي العباس السفاح ونهاية عصر المعتصم تعد من العهود الزاهرة في تاريخ

المسيحيين، لما لقيه هؤلاء من تسامح في ممارسة شعائرهم الدينية وفي بناء الكنائس والأديرة، وفي مساواتهم بالمسلمين في الوظائف، فكانت طوائف الموظفين الرسميين تضم مئات من المسيحيين، وقد بلغ عدد الذين رقوا منهم إلى مناصب الدولة العليا من الكثرة التي أثارت شكوك المسلمين[69]، حتى نافسوا المسلمين وفق رأي الجاحظ: (في لباسهم وركوبهم وألقابهم، وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي، واكتنوا بذلك أجمع، ولم يبق إلا أن يتسموا بمحمد، ويكتنوا بأبي القاسم)[70]. فرغب إليهم المسلمون وترك كثير منهم عقد الزنانير وامتنع كبراؤهم عن إعطاء الجزية مع اقتدارهم على دفعها.

وفي الوقت نفسه كانت الجامعات والمعاهد الإسلامية مفتوحة على مصارعها لأهل الذمة حتى تتلمذوا على أيدي علماء وفقهاء مسلمين، فدرس حنين بن إسحق على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه حتى أصبح حجة في العربية، وتتلمذ يحيى بن عدي التكريتي على يد الفارابي[71].

وهكذا مع مجيء العباسيين إلى الحكم، وانتقال عاصمتهم إلى بغداد، دخلت كنيسة المشرق عصرا جديدا، فقد تقرب الخلفاء والأمراء المسلمون إلى أبناء هذه الكنيسة للقيام بالإدارة والشؤون الاقتصادية، فانتدبوا الكثير منهم في دار الخلافة لمختلف الأعمال، وتشير الأدلة إلى أن النصارى استعملوا في الديوان منذ أوائل عهد العباسيين[72]. فقد استخدمهم السفاح، وخفف الضرائب المفروضة عليهم، وعاملهم المنصور بالحسنى وقرب كثيرا منهم إلى بلاطه، ومع انتشار حركة الترجمة في عهد المنصور منذ تأسيس بغداد شرع مسيحيو بغداد بترجمة الكتب اليونانية إلى العربية، فساهموا في إحداث نهضة فكرية وحضارية في بغداد.

وفي عهد المهدي اتسعت حركة الترجمة وتصاعد نفوذ النصارى، فكان للمهدي طبيبه الخاص وهو موسى بن إسرائيل الكوفي، كما كان لزوجته الخيزران صيدلاني خاص هو عيسى أبو قريش الذي حظي بنفوذ كبير في بلاط المهدي، ورغم ما ينقله البعض من آراء حول اضطهاد المهدي للمسيحيين في بعض الفترات وإجباره آلاف المسيحيين العرب من بني تنوخ على اعتناق الإسلام في سياق ردة فعله تجاه الزنادقة، وإخفاقه أمام الإمبراطور البيزنطي لاون الرابع[73]. يذكر ألبير أبونا أن تلك الإجراءات كانت استثنائية حسب وصفه، إذ إن موقف المهدي اتسم بكثير من التسامح تجاه المسيحيين، ويمكن أن نرى ذلك في علاقته مع البطريرك طيمثاوس الأول الكبير[74]. الذي اتسمت علاقته معه بالمودة وحسن المعاملة وأدب الحوار ورعاية مصالح المسيحيين، وقد وصلتنا من ذلك العهد مناظرة قيمة بين الجاثليق والمهدي تعد مثالا للحوار المتزن وللاحترام المتبادل بينهما[75].

واستمر التسامح في عهد هارون الرشيد (786-809م)، فقد جمع حوله المترجمين النصارى، وأسس ما سمي (خزانة الحكمة) التي أصبحت، فيما بعد، نواة لأكاديمية الترجمة التي عرفت باسم (بيت الحكمة). وكان طبيب هارون الرشيد الخاص هو جبريل بن بختيشوع، وجلب من جنديسابور الطبيب ماسويه أبا يوحنا الذي أصبح مديرا لأول مستشفى في بغداد، وصار ابنه يوحنا ماسويه (أبو زكريا) رئيس المترجمين في عهد المأمون[76]. أما زوجته زبيدة فقد كانت سندا فعالا للمسيحيين في البلاط، ومحسنة على الكنائس والأديرة، يقول عنها مارك (كانت زبيدة أم الأمين تكرم طيمثاوس كثيرا، وتميل إلى النصارى وتستخدمهم، وأخرجت توقيع الرشيد

بإعادة المستهدم من الدير وتوسيعه، وعملت إعلام الشعانين وصلبانا من ذهب وفضة، وعاونت جرجيس مطران البصرة على بناء البيع والكنائس)، وقد أسماها كتاب النصارى بالمحسنة الكبيرة[77].

عموما فقد كان عهد الرشيد من ألمع العهود العباسية على مختلف الأصعدة، واستمرت قوة الدولة العباسية مع ولده المأمون الذي كان ذا عقل منفتح، حيث اتسمت سياسته الدينية بالتسامح وبحرية كبيرة في الرأي والتعبير، حيث أسهم المسيحيون في عصره في الاتصال ببيت الحكمة الذي عدّ منارة العلم، ومركز الإشعاع الفكري والثقافي للدولة العباسية[78]. ويشير باحثون مسيحيون إلى أن الفرح ساد وحل الأمن واستتب السلام بالعالم (بفضل لطف المأمون ورحمته، وأمر جميع الحكام التابعين له بأن يسووا بالعدل والاستقامة... وأصدر المأمون أمرا بأن يرفع عن كواهل المسيحيين واجب إيواء العساكر في منازلهم، وألا يضرهم أحد من العرب أو الفرس، فصار المسيحيون في هذا الزمان ينعمون برخاء ويصلون دوما لأجل حياة المأمون)[79].

لقد كان المأمون ذا ثقافة واسعة ومحبا للعلم والعلماء، وكانت ثقافته الكبيرة سببا في احتكاك متواتر مع مختلف العلماء المسيحيين والمسلمين، وغالبا كانت النقاشات تدور حول مواضيع فلسفية وسياسية ودينية مع توفير حرية التعبير والفكر لمختلف الفئات والمذاهب. ويستشهد فهمي هويدي بقول لخلف المثنى يعبر بصدق عن فكرة التسامح وحرية التعبير التي بلغتها بغداد والبصرة ومناطق أخرى من العراق زمن المأمون (قال خلف المثنى: لقد شهدنا عشرة في البصرة، يجتمعون في مجلس لا يعرف مثلهم في الدنيا علما ونباهة، وهم الخليل بن أحمد صاحب النحو (وهو

سني) والحميري الشاعر (وهو شيعي) وصالح بن عبد القدوس (وهو زنديق ثنوي) وسفيان بن مجاشع (وهو خارجي صفري)، وبشار بن برد (وهو شعوبي خليع ماجن) وحماد عجرد (وهو زنديق شعوبي) وابن رأس الجالوت الشاعر (وهو يهودي) وابن نظير المتكلم (وهو نصراني) وعمر بن المؤيد (وهو مجوسي) وابن سنان الحراني الشاعر (وهو صابئي). هؤلاء جميعا كانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار ويتناقلون الأخبار ويتحدثون في جو من الود لا تكاد تعرف منهم أن بينهم هذا الاختلاف الشديد في دياناتهم ومذاهبهم[80].

وفي مثل هذه الأجواء انتعشت حياة الحرية لدى المسيحيين، ويشير بعض المؤرخين إلى أنه، وبعد تصاعد وتيرة الترجمة عن كتب الفلسفة اليونانية التي قام بها المترجمون المسيحيون، تأثر المأمون بالمذهب المعتزلي نتيجة دخول الفلسفة في الفكر الإسلامي، ويرى هؤلاء أن ردة الفعل الإسلامية بعد وفاة المأمون كانت شديدة الوطأة على المسيحيين، حيث انتقم منهم فراح ضحيتها العديد منهم. ولم يختلف عهد المعتصم عن عهد أخيه المأمون في التعامل المسالم والإنساني مع المسيحيين، ما خلا بعض الحوادث التي أثارها مسلمون متعصبون هنا وهناك، ولا سيما في مدينة حران حيث هدموا كنيستين للتكريتيين سنة 837م[81].

ويتفق باحثون على أن عهد المعتصم كان آخر عهود السلام والاستقرار التي عاشها المسيحيون في العراق، فقد اتسمت سياسات الخلفاء من بعده بالتذبذب بين الشدة واللين، حسب الواقع السياسي والاجتماعي الذي عاشوه، ففي عهد المتوكل كان الوقع شديدا على المسيحيين في العراق وعموم أهل الذمة في الدولة

الإسلامية، وكذلك في عهد أخيه المقتدر، ويـــذكر الطـــبري أن المتوكل في سنة 235هـــ-839م، ومخافة عاقبة المسلمين وبســـبب سوء النية، ولعدم ظلم المسلمين، حسب اعتقاده، (قد نهـــى عـــن الاستعانة بأهل الذمة في الدواوين وأعمال السلطان الـــتي يجـــري أحكامها فيها على المسلمين، ونهى أن يتعلم أولادهم في كتاتيـــب المسلمين، وألا يعلمهم مسلم، ونهى أن يظهـــروا في شـــعانينهم صليبا.... وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض لـــئلا تشـــبه قبـــور المسلمين (82). وقد سار على ذلك المنهج الخليفة المقتدر في بداية عهده، حيث خلع النصارى من المراكز الحساسة في الدولـــة وفي مقدمتهم ابن دليل النصراني الذي ثبت مكانه يوسف أبا الســـاج، وأمر المقتدر بألا يستخدم أحد من اليهود والنصارى وغيرهـــم إلا في الطب والجهبذة[83].

ورغم تلك الإجراءات التعسفية أيام المتوكل والمقتـــدر، بـــيّن المؤرخون النصارى أن تلك الأعمال لم تخـــدش الصـــورة الحســـنة والمكانة العظيمة التي حظي بها المسيحيون في الدولة العباسية[84]. كما أن أغلب تلك التعليمات كانت انعكاسا لظروف سياســـية ودينيـــة مؤقتة سرعان ما تزول، فحينما أصدر الخليفة المقتـــدر أمـــرا بـــألا يستخدم أحد من اليهود والنصارى أو غيرهم إلا في الطب والجهبذة، كان وزيره أبو الحسن علي بن الفرات لا يجلس إلى مائدة إلا وحوله أربعة من النصارى في كل يوم وهؤلاء كانوا من مجموع تسعة كتاب كان يستخدمهم[85]. ويعتقد المطران لـــويس شـــيخو أن المواقـــف المتشددة التي لم تخل منها العصور العباسية لا تشكل أمرا يـــذكر إذا قورنت بما يقابلها من التساهل، وبالفترة الطويلة التي امتـــد خلالهـــا حكم بني العباس أي طيلة قرون خمسة[86].

ولهذا يرى أرنولد أن مكانة النصارى في العهد العباسي أخذت تتصاعد حينما بدأ بعض الخلفاء يفضلونهم على المسلمين، ففي عهد المعتضد (892-901م) كان عمر بن يوسف واليا على الأنبار بحجة أن المسيحي إذا كان مخلصا يكون أنفع من المسلم، والسبب الثاني أن المسيحي مفضل عند المسلم على اليهودي والمجوسي[87]. واستكمالا لهذه المنزلة فقد أوكل الموفق أمر تنظيم الجيش إلى مسيحي يدعى إسرائيل، وقد اتخذ ابنه المنصور نصرانيا آخر كاتبا له وهو مالك بن وليد[88]. وفي الوقت الذي كانت فيه تلك المناصب مدعاة لحنق المسلمين وغيظهم ولا سيما بسبب جنوح بعض النصارى لاستغلالها لحسابهم الخاص، أو لحساب أبناء ملتهم، إلا أنها تظهر في النتيجة المكانة التي تمتع بها المسيحيون، وبقية أهل الذمة في ارتقاء أعلى الوظائف الإدارية الحكومية في العصر العباسي.

سادسا: أعلام المسيحيين وإبداعاتهم

كما أسلفنا أتاحت أجواء الحرية والتسامح التي كفلها العباسيون لأهل الذمة من المسيحيين وغيرهم أمام الكثيرين منهم للوصول إلى أعلى المراكز الأدبية والإدارية والعلمية والدينية. ومن المؤكد أن صفحات مطولة لا تكفي للإشارة إلى المهن التي برع فيها المسيحيون وأبدعوا، ولكن يكفي أن نشير إلى الإحصائية التي قدمها الأب لويس شيخو حول عدد العلماء المسيحيين الذين ظهروا في الدولتين الأموية والعباسية وفي مختلف العلوم، وفيها نورد الأرقام التالية: 275 طبيبا، 73 ناقلا، و46 منطقيا، و17 فلكيا، و14 كيميائيا، و10 رياضيين، و10 منجمين، و5 صيادلة، و3 مهندسين، ونسابة واحد، وحجام واحد، واصطرلابي واحد، ومورخ

واحد[89]. ويشير شيخو في كتاب آخر إلى عدد النصارى الذين حصلوا على مراكز عليا في الدولة الإسلامية وزراء وكتابا ومتنفذين، فقد أحصى في كتابه 75 وزيرا و300 كاتب و31 متنفذا بين قائد شرطة ووال وسفير، وما شابه ذلك[90].

ومما يلفت الانتباه في هذا الجدول ارتفاع عدد الأطباء والنقلة والفلاسفة بسبب ميل المسيحيين إلى تلك الاختصاصات، ورغبتهم في التجاوب مع معطياتها ومتطلباتها بفضل جذورهم الاجتماعية والدينية وارتباطاتهم الثقافية، فضلا عن أن السواد الأعظم من هؤلاء النصارى كانوا من البلاد الواقعة ضمن الهلال الخصيب، ويجيدون إلى جانب لغتهم الآرامية أو السريانية لغة الثقافة القديمة أي اليونانية ولغة الفاتحين الجدد العربية، وهو ما دفع الخلفاء إلى الاستعانة بأعداد كبيرة منهم لنقل ثروات الثقافتين اليونانية والسريانية إلى لغة العرب[91]. ولعلنا في هذه الصفحات القليلة لا يمكننا أن نشير إلى كل هؤلاء العلماء النصارى، وإنما نكتفي بالإشارة إلى أبرزهم، ولا سيما أولئك الذين لا يزال ذكرهم يتردد بسبب ما تركوه من إنجازات دينية وفكرية وعلمية:

أولا: رجال الدين النصارى

لعلنا نبدأ برجال الدين النصارى بسبب المكانة التي احتلها هؤلاء في الحفاظ على الهوية المسيحية ولدورهم في إشاعة ثقافة الحوار والتعايش في الوسط الإسلامي، فضلا عن قربهم ومكانتهم من الخلفاء المسلمين، ولعل أهم ما يمكن أن يشار له بالبنان هو الجاثليق مارخنا نيشوع الثاني الذي عرف بعلمه ومكانته عند الخلفاء والأمراء العباسيين، فقد وطد علاقة قوية مع الخليفة

المنصور مبنية على المحبة والاحترام، وبموجب هذه العلاقة استطاع أن ينقل كرسي البطريركية الشرقية من قطيسفون وساليق إلى بغداد في سنة 774م، ونتيجة ذلك الانتقال اعتبر الخلفاء العباسيون بطريرك الكنيسة الشرقية الأب والرئيس الروحي لكل المسيحيين من رعايا الخليفة العباسي(92). وبعد وفاته انتخب طيمثاوس الكبير أو الأول (727-823م) الذي يعد أبرز بطاركة الكنيسة الشرقية على الإطلاق، فقد عاش في فترة الخلفاء العباسيين الأقوياء، المهدي والرشيد والأمين والمأمون، ويعد من أبرز الذين تناولوا المسألة الدينية بالجدل والنقاش والإقناع، وقد كان إلى جانب ثقافته اللاهوتية السريانية واليونانية صاحب معرفة بالعربية واطلاع واسع على الإسلام، وأظهرت الكنيسة في عهده حيوية ونشاطا فكريا واجتماعيا ودينيا بسبب الحرية الدينية التي تمتعت بها، وسعى إلى إشاعة لغة التعايش المشتركة مع المسلمين، ولعل أهم ما اشتهر به البطريارك طيمثاوس هو مناظرته مع الخليفة المهدي سنة 800م، التي تعد من أهم نماذج أدب الحوار الديني بين المسلمين والمسيحيين بعد محاولات يوحنا الدمشقي مع الأمويين (675-749م) وفيها يظهر فن المحاورة والدفاع عن عقيدته المسيحية ضد الشبهات التي يثيرها المسلمون حيالها(93). ويروى أنه في يوم من الأيام دعا هارون الرشيد البطريرك مار طيمثاوس وسأله قائلا: يا أبا المسيحيين، أي المذاهب أصح عند الله؟ فأجاب البطريرك بحنكة وبلاغة: أيها الخليفة، الدين الذي شرائعه وأعماله هي الأقرب إلى أعمال الله في خلقه، فلما انفصل عن المجلس قال الرشيد: لله دره! لو قال النصرانية لأسأت إليه، ولو قال الإسلام لطالبته بالانتقال إليه، ولكنه أجاب جوابا كليا لا دفع له(94).

ثانيا: الكتاب والمترجمون

لقد شكل مجيء العباسيين إلى الحكم وانتقال مركز الخلافة إلى بغداد دافعا جديدا لتشجيع العلوم وتوطيد الإدارة ومكوناتها التي باتت على قدر عال من الأهمية بسبب اتساع مناطق الإمبراطورية الإسلامية وكبر مساحتها. وقد اعتمد الخلفاء العباسيون على جهاز إداري فاعل ومثقف، واستطاع المسيحيون بإمكاناتهم العلمية وخبراتهم الإدارية أن يدخلوا بلاط العباسيين، وينقلوا إليها خبراتهم في الإدارة والكتابة والترجمة[95]، فقد استخدم المنصور أعدادا كبيرة منهم في ديوان كتابة الإنشاء والشعر وديوان بيت المال حتى بات لبعضهم منزلة ونفوذ كبيران في الدولة، وسار على نهجه الخلفاء من بعده كالمهدي والرشيد والمأمون، فقد تقرب الشاعر أبو قابوس النصراني من بلاط هارون الرشيد، وكان من أهل الحيرة وينتمي إلى قبيلة بني شيبان، وله أشعار كثيرة في مدح الخليفة، وحظي الطبيب والأديب والشاعر إسحق بن حنين بمنزلة كبيرة لدى المأمون، وقد قال ابن النديم في الفهرست إن إسحق بن حنين كان فصيحا بالعربية وله أشعار مستطرفة ونوادر أدبية[96]. ولعل من أشهر شعراء المعتصم أبو تمام الطائي، وهو حبيب بن أوس الذي كان يعمل في دمشق، ولما رحل إلى العراق وبلغ الخليفة المعتصم خبره، حمل إليه فمدحه بقصائد عدة فأجازه المعتصم وقدمه على شعراء عصره، وقد أعلن إسلامه في أيام المعتصم[97].

وذكر الطبري أن المتوكل استخدم بشر بن هارون وأخاه إبراهيم بن هارون النصرانيين العراقيين كاتبين في ديوان الكتابة[98]. كما استخدم المتوكل أيوب بن إبراهيم الجنيد وكذلك أخاه سليمان في الإشراف على ديوان الكتابة، وعرف عن المقتدر أنه استخدم أبا

ياسر النصراني في أعمال الكتابة، وقرب وزيره أبو الحسن علي بن الفرات أربعة من الكتاب النصارى، هم أبو بشر عبد الله بن الفرخان، وأخوه أبو عمرو سعيد، وأبو الحسن سعيد بن إبراهيم التستري، وأبو منصور عبد الله بن جبير[99]. ومن الكتاب النصارى المشاهير عيسى بن فرخنشاه وهو من نصارى بغداد، اشتهر في القرن الثالث للهجرة في أيام الخلفاء المستعين والمهتدي والمعتمد، وقد اتخذه المستعين نائبا لوزيره الحسن مخلد سنة 245هـ-859م، ثم ولاه ديوان الخراج، ثم أثبته عليه خليفته المعتز. وقد ذكر ابن النديم أن عيسى فرخنشاه كان من كتاب ديوان الخلفاء ذوي الإنشاء البديع، وقد اشتهر من قرابته الأخوان سعيد وعبد الله ابنا فرخنشاه[100]. أما في ميدان الترجمة والتأليف فقد برز مسيحيون ثقاة قاموا بدور كبير في نشر الثقافة والعلم في الدولة الإسلامية عبر تراجمهم لأمهات الكتب الإغريقية والرومانية وفي مختلف فروع المعرفة الإنسانية، إذ ترجمت كتب أرسطو وجالينوس وبطليموس وغيرهم إلى العربية بواسطة المترجمين السريان.

ولعل في مقدمة المترجمين السريان الذين برزوا في العصر العباسي عبد الله بن المقفع ويعقوب بن إسحق الكندي وإسحق بن حنين العبادي والمترجم والطبيب حبيش بن الحسن الأعسم[101] ويحى بن عدي التكريتي الذي يطلق عليه الفيلسوف المنطقي حسب شهادة معاصريه، وهو من كبار المختصين بعلم الكلام واللاهوت، ورافق كبار فلاسفة بغداد ومنهم أبو نصر الفارابي، وقد ساهم بترجماته ومؤلفاته ومحاضراته في دفع حركة العلم والمعرفة في بغداد إلى الأمام[102]. وكذلك أبو رائطة التكريتي، وهو من فلاسفة القرن التاسع الميلادي وكان فيلسوفا ومترجما لامعا،

اتبع منهج يحيى بن عدي التكريتي في عرض آرائه وتحليل المواقف[103].

ثالثا: الأطباء النصارى

أما الأطباء الذين برزوا زمن الدولة العباسية فهم من الكثرة حتى لا يمكن الإحاطة بأعدادهم، ولكن يكفي أن نعيد هنا أن الأب لويس شيخو قد ذكر في كتابه علماء النصرانية في الإسلام أن عدد الأطباء النصارى الذين اشتهروا في العهود الإسلامية، ولا سيما في العهد العباسي، قد بلغ 275 طبيبا، وقد كان أبرزهم على الإطلاق أطباء عائلة آل بختيشوع التي كان لها باع طويل في مهنة الطب، وقد اعتمد عليها الخلفاء العباسيون في تأسيس مدرسة الطب في بغداد، وكان منهم جورجس بن جبريل بن بختيشوع[104]، الذي كانت له خبرة واسعة بصناعة الطب ومعرفة بالأدوية، وخدم المنصور، وكان حظيا عنده ونال أموالا طائلة، وقد نقل للمنصور كتبا كثيرة من كتب اليونان إلى العربية، ولما أهدى له المنصور جارية تخدمه قال للمنصور (نحن معشر النصارى لا نتزوج بأكثر من امراة واحدة، وما دامت في الحياة لا نأخذ غيرها) فحسن موقعه عند الخليفة[105]. وقد خلفه بختيشوع بن جورجس الذي استقدمه المهدي من جنديسابور، فظل في خدمة ولده الهادي والرشيد إلى أن توفي، وقد قربه الرشيد إليه كثيرا[106]. واشتهر من هذه الأسرة جبرائيل بن بختيشوع (توفي سنة 213هـ) الذي خدم الرشيد أيضا وأصبح طبيبه الخاص، فكانت منزلته من العلو أن قال فيه الرشيد (كل من كانت إليه حاجة فليخاطب بها جبرائيل، لأني أفعل ما يسألني فيه ويطلبه مني)[107]. كما اشتهر من هذه الأسرة الطبيب بختيشوع بن جبرائيل (سنة

257هـ)، وصار طبيبا للواثق والمتوكل، وقد قيل إنه كان يضاهي المتوكل في ملبسه وماله وطيبه وجواريه[108].

واشتهر في عهد الخلفاء العباسيين مسيحيون آخرون عملوا في الطب جنبا إلى جنب مع آل بختيشوع، بل نافسوهم أحيانا الزعامة في الطب، لعل أشهرهم عيسى بن شحلوفا أو شهلاثا، الذي اكتسب ثقة المنصور. وكان ثمة مسيحي آخر حظي بنفوذ كبير وهو عيسى أبو قريش الصيدلاني الذي لعب دورا هاما في التوسط أيام المهدي لانتخاب البطريرك طيمثاوس الكبير، وفي تحقيق مصالحة بين زعامات كنيسة المشرق بعد أن دبت الخلافات بينهم[109]. ومن الذين اشتهروا في الطب ماسويه أبو يوحنا، وكان خبيرا في معرفة الأمراض وعلاجها، واشتهر بمهنة الكحالة، وعالج بها الفضل وزير الرشيد، ثم الرشيد نفسه ونال منه هبات كثيرة[110]. واشتهر في صناعة الطب كذلك يوحنا بن ماسويه، وكان طبيبا ذكيا، وخبيرا بصناعة الطب. وقد شغف به الرشيد ووضعه أمينا على الترجمة، وخدم بعده الأمين والمأمون والمتوكل[111]. ومن الذين اشتهروا بالطب كذلك جبريل الكحال، وهو من أطباء المأمون، وكذلك بولس بن حنون الذي عاصر المعتصم، وكذلك سلمويه المتطبب، وزملاؤه يوسف بن صليبا، وسليمان بن داود، ويوسف القصير[112]. وكان سلمويه طبيب المعتصم وكان يخط توقيعات المعتصم وأوامره إلى الولاة والقادة، ولما مات سلمويه صلى عليه المعتصم بالشموع والبخور على عادة النصارى، وامتنع عن الأكل ذلك اليوم[113]. وإذا كنا قد ذكرنا حنين بن إسحق ضمن العلماء الفلاسفة، فإننا لا ننكر دوره الكبير في الطب العربي، حيث يقول المستشرق لوكلير (إن حنينا يعد أقوى شخصية أنجبها القرن التاسع، وهو من أشد رجال التاريخ ذكاءً،

وأحسنهم خلقا، وقد ساهم مساهمة فعالة عبر تراجمه الطبية وأبحاثـه في إحياء نهضة الشرق)[114]. وقد خلفه ابنه إسحق بن حنين فيلسوفا وطبيبا ومترجما، حيث كانت له مكانته لدى الخلفاء الثلاثة: المتوكل، والمعتمد، والمعتضد[115]. وهناك أطباء مسيحيون آخرون عاشـوا في القرنين التاسع والعاشر والقرون اللاحقة، نخص منهم بالذكر سابور بن سهل، وأبا يحيى المروزي، وعلي بن عيسى الكحال، وغيرهم من الأطباء الذين يصعب الإحاطة بهم في هذه الصفحات.

وإذا كان المسيحيون قد برعوا في ميادين الطـب والفلسـفة والترجمة والصيدلة والإدارة لخبرتهم ومهاراتهم الفردية، فإن هـذا لم يكن يتحقق ويأخذ مداه لولا عدالة الإسلام، وتسامح الخلفاء مـع المسيحيين وغيرهم، وهو ما عزز في النتيجة من ولاء هؤلاء وانتمائهم لهذه الأمة، وساهم في انطلاق الإبداع المسيحي إلى أبعد مسـتوياته، وعلى نحو عزز من واقع النهضة الإسلامية، ودفعها إلى الأمام ولقرون طويلة. لقد كانت هناك، على حد وصف المطران جورج خضـر، حضارة واضحة جدا هي الحضارة العربية الإسلامية، ونحـن كلنـا (المسيحيين) ننتمي إليها[116].

هوامش الفصل الثاني

(1) د. يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي. (القاهرة: مؤسسة الرسالة، 1994) ط3 و5.
(2) سورة الممتحنة، الآية 7-8.
(3) أيمن عبد العزيز جبر، روائع البيان لمعاني القرآن، (عمان: دار الأرقم، بلا تاريخ)، 550.
(4) د. سعيد حوا، الإسلام، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1979) ط2، 311.
(5) سورة العنكبوت، الآية 46.
(6) د. يوسف القرضاوي، غير المسلمين...، 6. وحول أحكام الزواج من نساء أهل الكتاب انظر: د. عبد الكريم زيدان، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، (بغداد: مؤسسة الرسالة، 1976) ط2، 341.
(7) سورة المائدة، الآية 5.
(8) د. محمد منير سعد الدين، العيش المشترك الإسلامي-المسيحي في ظل الدولة الإسلامية: شهادة من التاريخ، (بيروت: المكتبة البولسية، 2001)، 38.
(9) د. محمد منير سعد الدين، العيش المشترك الإسلامي – المسيحي في ظل الدولة الإسلامية، 39.
(10) د. رضوان السيد، المسيحيون في الفقه الإسلامي، منشور في مجموعة باحثين، المسيحيون العرب: دراسات ومناقشات، (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1981)، 39.
(11) انظر الإمام الشافعي، الأم، ج7، باب كتابة النصراني، 367.
(12) محمد الغزالي، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، (القاهرة: دار النهضة الجديدة، 2005) ط6، 63.
(13) سورة البقرة، الآية 285.
(14) سورة آل عمران، الآية 59.
(15) سورة البقرة، الآية 253.
(16) سورة آل عمران، الآية 47-50.
(17) سورة المائدة، الآية 75.
(18) سورة النساء، الآية 171.
(19) سورة آل عمران، الآية 37.
(20) سورة آل عمران، الآية 41-42.

(21) سورة المائدة، الآية 82.
(22) حول الصفات المشتركة بين الإسلام والمسيحية. انظر تيودور خوري ومشير باسيل عون، الرحمة الإلهية في المسيحية والإسلام، (بيروت: المكتبة البولسية، 1999)، 2.
(23) ورد الحديث في صحيح مسلم بشرح النووي، المجلد الثامن، تحقيق مجموعة باحثين، (القاهرة: دار الحديث، 2001) ط4، 130.
(24) صحيح مسلم، 131.
(25) صحيح مسلم، 132.
(26) د. إسماعيل عبد الفتاح، القيم السياسية في الإسلام، القاهرة: الدار الثقافية الجديدة، 2001)، 109.
(27) عبد اللطيف الفرافور، الإسلام لا يعرف الانغلاق، والعنف أكبر خطر على الدعوة، ندوة أي إسلام نريد؟ نظمتها صحيفة الشرق الأوسط، لندن في 21-9-1998، 16.
(28) د. يوسف القرضاوي، الأقليات الدينية والحل الإسلامي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 2000)، 44.
(29) سورة المائدة، الآية 82.
(30) نقلا عن د. سهيل قاشا، تاريخ نصارى العراق، 403 وكذلك د. فائز عزيز أسعد، تجديد الدور العربي المسيحي، 102.
(*) هو قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك، كان حكيم العرب، وخطيبها، وشاعرها وحليمها في عصره، وكان أسقف نجران، وأول من قال في كلامه (أما بعد)، وأول من اتكأ في خطبته على سيف، أدركه الرسول ﷺ قبل النبوة فرآه في سوق عكاظ فكان يؤثر عنه كلام سمعه منه، وسئل عنه فقال: (يحشر أمة وحده) مات نحو 23 ق.هـ. نقلا عن أبي حامد الغزالي، مقامات العلماء بين يدي الخلفاء والأمراء، تحقيق محمد جاسم الحديثي، (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، 1988)، 53.
(31) نقلا عن ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية ج2، 43.
(32) د. دهام محمد العزاوي، الأقليات والأمن القومي العربي، 54.
(33) محمد عبد الله عنان، وثبة العرب وكيف خرجوا من الصحراء إلى الظفر، منشور في مجموعة باحثين، قراءات في الفكر القومي، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1992)، 28.
(34) نقلا عن فكتور سحاب، من يحمي المسيحيين العرب؟، مجلة المستقبل العربي، العدد 30، (1981)، 28.

(35) الأب بهنام بطرس حنا، كنيسة المشرق ومحاولات الاتحاد مـع أوروبـا، مجلة صدى النهرين، العدد 3، السنة الثانية، (2006)، 15.
(36) نقلا عن ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، ج2، 52.
(37) نقلا عن ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، ج2، 55.
(38) محمد الغزالي، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، 42.
(39) د. رشيد الخيون، الأديان والمذاهب في العراق، 161–162.
(40) د. عبد الحسين شعبان، فقه التسامح في الفكر العربـي الإسلامي، الثقافـة والدولة، بيروت: دار النهار، 2005)، 127–128.
(41) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 394.
(42) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 399.
(43) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 400. وكذلك محمد الغزالـي، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، 149.
(44) انظر تاريخ الأمم والملوك للطبري، ج2، بيـروت 2005، 285، وقـارن أندراوس أبونا، الحيرة عاصمة وحضارة، 89.
(45) نقلا عن د. يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، 17.
(46) يوسف حمادي، نينوي والموصل المسيحية، مجلة صدى النهـرين، العـدد (1) السنة الأولى، (2005)، 7.
(47) د. نريمان عبد الكريم، حقوق غير المسلمين في الدولة الإسلامية، (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، 1996)، 25.
(48) نقلا عن تاريخ الطبري، ج3، 213.
(49) عبد الهادي عاصي، المنهج السياسي عند الإمام علي، (بيروت: دار الأمير للثقافة والعلوم، 1996)، 71.
(50) عبد الهادي عاصي، المنهج السياسي عند الإمام علي، 80.
(51) نقلا عن ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، (القاهرة: دار الحديث، ج6، 2002)، 338، 343.
(52) نقلا عن د. فائز عزيز أسعد، تجديد الدور العربـي المسيحي، 102.
(53) نقلا عن ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، ج2، 53.
(54) نقلا عن ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، ج2، 55.
(55) د. رشيد الخيون، الأديان والمذاهب في العراق، 172.
(56) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 232.
(57) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 232.
(58) د. رشيد الخيون، الأديان والمذاهب في العراق، 172.
(59) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 184.

(60) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 186.

(**) ولد الأخطل في الحيرة سنة 640 ميلادية 20 هجرية، وعاش في زمن معاوية، ويزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان، وفي عهد الوليد كانت أشعاره لاذعة، ووظفه خلفاء بني أمية في صراعاتهم السياسية الداخلية والخارجية. في عهد الوليد تضاءل دور الشعر فأعرض الوليد عنه وقرب شاعرا آخر هو عدي بن الرقاع، وقد توفي الأخطل في سنة 92 هجرية. نقلا عن سامي أبو زيد وآخرين، أدب صدر الإسلام والدولة الأموية، (الكويت: دار حنين ومكتبة الفلاح، 2007)، 93-94.

(61) أ. س. ترتون، أهل الذمة في الإسلام، ترجمة حسن حبشي، (1949)، 169.

(62) د. رشيد الخيون، الأديان والمذاهب في العراق، 195.

(63) د. سهيل قاشا، 128، نقلا عن الطبري، ج6، ص 572، وابن القيم، أحكام أهل الذمة، 690.

(64) نقلا عن عبد الحكيم حسن العيلي، الحريات العامة في الفكر والنظام السياسي في الإسلام: دراسة مقارنة، (القاهرة: دار الفكر العربي، 1974)، 219.

(65) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 128.

(66) د. رشيد الخيون، الأديان والمذاهب بالعراق، 173.

(67) ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية ج2، 174، وقارن مع د. بطرس حداد كنائس بغداد ودياراتها، (بغداد: شركة الديوان للطباعة، 1994)، 47.

(68) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 562.

(69) فهمي هويدي، مواطنون لا ذميون، (القاهرة: دار الشروق، 2005)، ط4.

(70) نقلا عن د. بطرس حداد، كنائس بغداد ودياراتها، 45.

(71) فهمي هويدي، مواطنون لا ذميون، 71.

(72) ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، ج2، 105-107.

(73) ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، ج2، 120.

(74) ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، ج2، 122.

(75) د. بطرس حداد، كنائس بغداد ودياراتها، 40.

(76) ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، ج2، 123.

(77) نقلا عن د. بطرس حداد، مسيحيو بغداد بين الماضي والحاضر، مجلة مسارات، العدد 14، السنة الخامسة، (2010)، 146.

(78) د. لويس ساكو، المسيحيون ودورهم في بناء حضارة العراق، مجلة مسارات، العدد 14، السنة الخامسة، (2010)، 26.

(79) ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، ج2، 144.
(80) نقلا عن فهمي هويدي، مواطنون لا ذميون، 63.
(81) ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، ج2، 127-169.
(82) نقلا عن تاريخ الطبري، ج6، 220.
(83) د. سهيل قاشا، تاريخ نصارى العراق، 579.
(84) د. بطرس حداد، كنائس بغداد ودياراتها، 63.
(85) لويس شيخو، وزراء النصرانية وكتابها في الإسلام، (بيروت: مركز التراث العربي المسيحي، 1987)، 18.
(86) لويس شيخو، وزراء النصرانية وكتابها في الإسلام، 19.
(87) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 579.
(88) نقلا عن فهمي هويدي، مواطنون لا ذميون، 70.
(89) للمزيد انظر لويس شيخو، علماء النصرانية في الإسلام، (بيروت: مركز التراث العربي المسيحي، 2009)، 25.
(90) انظر لويس شيخو، وزراء النصرانية وكتابها في الإسلام، 26.
(91) لويس شيخو، علماء النصرانية...، 26.
(92) يوارش هيدو، لمحة من تاريخ كنيسة المشرق، 12.
(93) لويس ساكو، الجاثليق طيمثاوس الكبير، مجلة الفكر المسيحي، العدد 439-440، السنة الرابعة والثلاثون، (2008)، ص 247.
(94) نقلا عن الأب ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، ج2، 142.
(95) ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، ج2، 148.
(96) جورج قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1984)، 135.
(97) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 451.
(98) جورج قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، 137.
(99) لويس شيخو، وزراء النصرانية وكتابها، 18.
(100) جورج قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، 137.
(101) ستار عبد الحسن الفتلاوي، المترجمون السريان في موكب الحضارة، مجلة بين النهرين، العدد 133-134، السنة 34، (2006)، 54.
(102) لويس ساكو، يحيى بن عدي التكريتي، مجلة الفكر المسيحي، العدد 437-438، (2008)، 169.
(103) لويس ساكو، أبو رائطة التكريتي، مجلة الفكر المسيحي، العدد 441-442، (2009)، 37.
(104) جورج قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، 149.

(105) لويس شيخو، علماء النصرانية في الإسلام، 143.
(106) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 472.
(107) نقلا عن رشيد الخيون، الأديان والمذاهب بالعراق، 180.
(108) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 472.
(109) ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، ج2، 160.
(110) ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، ج2، 161.
(111) جورج قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، 156.
(112) جورج قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، 150.
(113) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 473.
(114) جورج قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، 161.
(115) جورج قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، 162.
(116) حسين عويدات، العرب النصارى: عرض تاريخي، (دمشق: الأهالي للطباعة والنشر، 1992)، 2.

المسيحيون وسقوط بغداد

أولا: المسيحيون والاحتلال المغولي لبغداد

لم يكن وضع المسيحيين في بغداد حين سقوطها على يد المغول (656هـ-1258م) مستقرا، بل شابته حالة من عدم الثقة مع المسلمين، نظرا لما أجمع عليه المسلمون من دور معاد اتخذه كثير من المسيحيين حيال الدولة الإسلامية بتأييدهم، ولسنوات طويلة، القوات الصليبية في حملاتها المتكررة لاحتلال بيت المقدس، وقد اعتبر الصليبيون المسيحيين الشرقيين حلفاءهم الطيعين رغم اختلافاتهم الدينية[1].

ورغم أن مشاعر الصليبيين تجاه المسيحيين لم تكن نابعة من إيمان حقيقي، بل قناعة سياسية تسعى إلى توظيفهم في حملاتها حيال العالم الإسلامي، فإن وقوف كثير من المسيحيين مع الحملات الصليبية قد ترك ندوبا عميقة التأثير في العلاقات الإسلامية المسيحية، تكشفت آثارها لاحقا في الاحتلال المغولي لبغداد، حيث سعى المغول إلى توظيف الديانة المسيحية مدخلا لاستمالة مسيحيي العراق بشكل خاص، ومسيحيي المشرق بشكل عام، للوقوف مع احتلالهم للعراق وتدميرهم لعاصمته بغداد. ولم يكن التوظيف المغولي نتاج لحظة آتية فرضتها ظروف الغزو لبغداد، بقدر ما كان يعبر عن تواصل مغولي مع المسيحية، بدءا بعقود طويلة حينما تغلغلت المسيحية إلى بلاد

المغول عبر العراق، فاعتنقها كثير من سكانها، حتى إن مغوليا مثل يهبالاها الثالث قد نصّب في القرن الخامس الميلادي جاثليقا للكنيسة الشرقية، فضلا عن أن أمراء وخانات المغول قد تزوجوا من نساء مسيحيات، فقد كانت زوجة هولاكو، دقوز خاتون مسيحية نسطورية، كما أن أمه سيورقوقيتي كانت نسطورية أيضا، في حين كان هولاكو نفسه بوذيا[2]. إضافة إلى أن الجيوش المغولية الزاحفة إلى بغداد قد ضمت أعدادا كبيرة من الجنود المسيحيين.

وحسب الأب الدومنيكي فإن تعاطف المغول مع المسيحيين يعود لأسباب متعددة، لعل أهمها، وفق رأيه، (عقلية المغول التي تميل بطبيعتها إلى الخرافات، وتأثير النساء المسيحيات، والمصلحة السياسية تضافرت كلها لتقود الملوك المغول إلى تسامح كبير تجاه المسيحيين)[3]. ووفق اعتقادنا فإن المصلحة السياسية شكلت سببا رئيسا للتحالف أو التوافق الذي جرى لاحقا بين المغول والصليبيين لتشكيل جبهة واحدة لضرب العالم الإسلامي، والسيطرة عليه. وكانت الاتصالات قد بدأت بين المغول والبابوية قبيل منتصف القرن الثالث عشر حينما أرسل البابا أندسنت الرابع مبعوثا من الفرانسيسكان اسمه يوحنا كارينيس سنة 1245م، إلى خاقان المغول في قراقورم لدعوته إلى المسيحية، والقيام بعمل مشترك ضد الدولة الإسلامية، وقد تكرر الأمر بعد سنوات حينما أرسل البابا أندنسنت رسالة ثانية إلى بيجوا زعيم مغول القوقاز، وعندما تحركت الحملة الصليبية التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا، ووصلت الحملة إلى قبرص في ديسمبر في 1248م، التقى هناك سفارة تضم اثنين من نساطرة الموصل (داود ومرقص) قالا إنهما موفدان من قبل جغطاي خان نائب الخاقان الأعظم في القوقاز وفارس لبحث موضوع

التحالف بين الصليبيين والمغول ضد الأيوبيين في الشام والخلافة العباسية في بغداد، ورد الملك لويس بإرسال سفارة من ثلاثة أعضاء من الرهبان الدومنيكيين إلى المغول، وغادرت السفارة قبرص في يناير 1249م قاصدة جغطاي خان في أذربيجان مارة بأنطاكيا والموصل[4]. واستمرت الاتصالات بعد ذلك بين الصليبيين والمغول لضرب الدولة الإسلامية، حيث توجه هيثوم ملك أرمينيا الصغرى بنفسه إلى بلاط خاقان المغول (منكو خان) في قراقورم سنة 1254م، وأسفرت محادثاته هناك عن نتيجتين خطيرتين: الأولى، إعلان منكو خان وضع الكنيسة ورعاياها في البلاد التابعة له تحت حمايته ورعايته. والثانية، إعلانه أنه كلف أخاه هولاكو بالاستيلاء على العراق واستعادة الأراضي المقدسة للمسيحيين. أي أن منكو خان قدم نفسه بوصفه حاميا للمسيحية والأراضي المقدسة، ليضمن ولاء المسيحيين الشرقيين أو تعاطفهم على الأقل[5].

لقد كان نتيجة ذلك التحالف أن تحقق للمغول ما أرادوه من اختراق للجبهة الإسلامية عبر بعض فرق المسيحيين الشرقيين، فاشتركت نسبة كبيرة من النساطرة والأرمن والكرج في جيش هولاكو الزاحف على بغداد، حيث أسهم أولئك بكتائب عسكرية، وقدموا المؤن والعتاد الحربي للجيش المغولي الزاحف على بغداد. وبعد استباحة بغداد، وقتل خلق كثير من أهلها، وتدمير عمرانها أمر هولاكو بإظهار العطف على البوذيين والمسيحيين، حيث نال المسيحيون احترام المغول وحفظت أموالهم وأعراضهم، و لم يتعرضوا لدمار المغول، بل حفظت منازلهم وحرسها جنود المغول، وقد التجأ بعض من المسلمين إلى بيوت النصارى في بغداد هربا من السيف المغولي[6]. أما هولاكو فقد خلع على جاثليق النصارى مارمكيخا

رعايته وتكريمه فأهداه ختما ذهبيا يتيح له إصدار الوثائق الرسمية إلى جميع أتباعه، وجعله من أتباعه ومستشاريه ومن أعضاء مجلس الحكم الجديد، ومن أصحاب الرأي المقربين في بغداد(7). أما ابن هولاكو الأمير قرابوغا فقد أهدى إلى الجاثليق دار الدويدار الكبير علاء الدين الطبرسي الواقعة على شاطئ دجلة فقبلها الجاثليق، ودق الناقوس في أعلاها، وعمّر بيعة جديدة، واستولى على دار الفلك التي كانت تقابل دار الدويدار الطبرسي وكانت رباطا للنساء، وأزال الكتابة التي كانت عليها، وكتب عوضها بالسرياني(8). وتشير مصادر إلى أن ذلك جرى بتحريض من دقوز خاتون زوجة هولاكو(9).

واستغل الجاثليق مكيخا انكسار المسلمين، وسطوة المغول، فظهرت منه سلوكيات مؤذية لمشاعر المسلمين، ولا شك أن تصرفات الجاثليق مكيخا لم تكن حكيمة، وليس فيها نظرة مستقبلية لطبيعة العلاقة التي تربطه بالمسلمين، فالحكمة كانت تقتضي أن يستغل ظروف الاحتلال المغولي ليعلن تعاطفه مع المسلمين في محنتهم التي قتل فيها خليفتهم وأبناؤه، واستبيحت مدينتهم بغداد ودمرت، وقتل سكانها، كما قتل فقهاؤها وعلماؤها، وخربت حضارتها(10). لا أن يقوم باستغلال الظرف ليستولي على دار الديوان، ودار الفلك، ويعلق عليها النواقيس، ويتحكم برقاب المسلمين بشكل تعسفي.

لقد أجمع الكثير من المصادر على أن الكثير من المسيحيين في عموم الشرق وفي العراق قد رحبوا بقدوم المغول واشتركوا في دعمهم(*). وفقا للاتفاقات التي عقدها خاقانات المغول مع ملوك الغرب وباباواتهم حول شمول الرعايا المسيحيين بالحماية المغولية. وقد بلغ التفاهم بين المغول والمسيحيين ذروته عام 1285م حينما عرض خان المغول أرغون على البابا هونوريوس الرابع عقد تحالف عسكري

يهدف إلى شن هجمة مشتركة على مسلمي الأراضي المقدسة[11] ومع ذلك فإن لبعض الباحثين المسيحيين رأيا آخر في هذا الموضوع، إذ إنه رغم حماية المغول للمسيحيين في بغداد، وتبرع زوجة هولاكو دقوز خاتون بإسدال رعايتها على إخوالها النصارى في بغداد، لم يكن المسيحيون في وضع مستقر، بل غالبا شاطروا إخوانهم المسلمين نفس المصير من القتل والنهب والسلب من قبل السلطات المغولية، إذ سرعان ما تبخرت الآمال التي راودتهم حينا في العيش الآمن تحت قيادة الفاتحين الجدد، ويستشهد هؤلاء بحادثة الإبادة التي حصلت بعد عامين من احتلال بغداد سنة (1258م) وقتل فيها كثير من مسيحيي تكريت على يد هولاكو، إذ لم ينج منهم سوى القلائل من الشيوخ والعجائز، أما الصغار فقد أسروا، ولم يبق في تكريت سوى كاهنين لخدمة كنائسها[12]. وذلك بسبب وشاية قام بها بعض المسلمين وأوغروا فيها صدور المغول**).

ثانيا: المسيحيون والمغول المسلمون

لم تدم السطوة المسيحية في العصر المغولي طويلا، إذ بعد عقود من حكم الأمراء المغول التابعين لهولاكو للأقاليم العراقية[13] حصل تحول جذري في واقع المسيحيين في العراق حينما وصل إلى الحكم في قراقورم الحاكم المغولي غازان خان (1295-1303م)، الذي اعتنق الإسلام وسمّى نفسه محموداً، ومن خلاله انتشر الإسلام بين القبائل المغولية، إذ أصر هذا الحاكم على اقتلاع جذور المسيحية من بلاد الرافدين[14]، فقد أصدر غازان خان أمرا إلى المغول بقبول الإسلام، وجعله دينا رسميا للدولة المغولية، وإلى الحكم بين الناس بالعدل (وأن تقوض دور الأصنام والكنائس ومعابد المجوس والبوذيين، وتحول البيع

إلى مساجد. وأمر بإلزام أهل الذمة بلبس الغيار، فكانت علامة النصارى شد الزنار في أوساطهم، وجردوا من امتيازاتهم السابقة)[15]. وخيّر الكثير منهم بين الإسلام والرحيل عن بغداد وغيرها من المدن الأخرى، ففي مدينة تكريت التي كانت غالبية سكانها من المسيحيين ومقرا أسقفيا رئيسا لليعاقبة في العهد العباسي، اضطر الكثير من أهلها إلى الرحيل عنها بعد سيطرة المغول الإليخانيين على بغداد، خصوصا منذ عهد غازان محمود خان سنة 1300، حيث خير مسيحيو تكريت وضواحيها بين التحول للإسلام والبقاء فيها والرحيل عنها، فانتقل قسم منهم إلى ضواحي الموصل، وسكن غالبيتهم في منطقة قرقوش (20 كلم جنوب شرقي الموصل) في حين أسلم الذين آثروا البقاء، ومنهم، كما يؤكد مسيحيو قرقوش، العشيرة التي ينتمي إليها الرئيسان العراقيان السابقان أحمد حسن البكر وصدام حسين، ولا يزال قسم من أهالي تكريت وضواحيها يتبادلون الزيارات والعلاقات مع مسيحيي قرقوش على أساس تقليدهم المتوارث أبناء عمومة[16] ومع إعلان غازان خان عن أسلمة الإمبراطورية المغولية، أعيدت الأملاك الإسلامية إلى أصحابها فتقدم السلطان بأخذ دار الدويدار الكبير علاء الدين الطبرسي من النصارى، وكانت بأيديهم منذ استيلاء المغول على بغداد، وأزيل ما بها من التماثيل والخطوط السريانية، واستعيد الرباط الذي يقابل تلك الدار، الذي حوله النصارى لأكابرهم، فأزيلت القبور وصار مجلسا للوعظ، وبذلك انتهى نفوذ البطريارك النسطوري وتضاءلت أهمية الكنيسة النسطورية[17].

ولم تختلف سياسة خلفه محمد خدابنده عن سلفه محمود غازان خان، حيث أصدر أمرا عام 1306 يقضي بأن على كل المسيحيين

القاطنين في العراق، إما أن يعلنوا إسلامهم أو أن يدفعوا الجزية، فكان ذلك دافعا نحو إجبار الكثير من المسيحيين على اعتناق الإسلام كرها وخوفا، وهروب أعداد كبيرة منهم إلى المناطق الجبلية الوعرة في شمال العراق للحفاظ على عقيدتهم[18]. واستمر اضطهاد المسيحيين في زمن ولده أبـــي سعيد بهادر 1335م، حيث ألزم النصـــارى واليهـــود في بغداد (بلبس الغيار، ثم هدمت كنائسهم ودياراتهم، وأسلم منهم ومن أعيانهم خلق كثير، وجعل بعض كنائسهم جوامع للمسلمين، وشرع في عمارة جامع بدرب دينار وكان بيعة كبيرة جدا)[19]. ولعل الخطر الذي رافق حياة المسيحيين في العهد المغولي الثـــاني قـــد ازداد مـــع احتلال تيمورلنك بغداد سنة 1400م. فقد أتى على البقية الباقية من المسيحيين، حيث أعمل فيهم القتل وتبدد شملهم، ولم يـــنج إلا مـــن هرب إلى القرى والجبال النائية، فهدم أديرتهم وكنائســـهم وقـــراهم ومساكنهم[20]. واستنادا إلى تقويم قديم للكنيسة الكلدانية النسطورية، كان عدد المسيحيين في بغداد قبيل هذه المذابح ستة عشر ألف بيت، يدير شؤونها سبعة أساقفة وخمسمائة كاهن، أما في عهد تيمورلنـــك فقد تناقصت أعدادهم بشكل كبير[21]. ورغم هزيمة تيمورلنك على يد الجلائريين في 1401م، فإن واقع بلاد الرافدين، وسكانها قد ازداد سوءا، فقد أحل الجلائريون العقاب والدمار الثاني ببغداد، وبشكل لا يقل عن الدمار الذي ألحقه هولاكو، فضلا عن التدمير الشامل لكـــل معالم الحياة والممتلكات ونهب البلدات المحيطة ببغداد وأريافها، لقـــد كانت سياسة الجلائريين بمنـــزلة ضربة يعزى إليها، ولقرون عديـــدة لاحقة، توصيف العراق بكونه بلدا متخلفا ومنسيا[22].

وفي ظل الاحتلال الجلائري للعراق تراجع وضـــع المســـيحيين وازداد سوءا، حيث أجبر الكثير منهم على اعتناق الإسلام، ولجـــأت

أعداد أخرى إلى المناطق النائية والبعيدة، تخلصا من الملاحقة الدينية، وعاد الاضطهاد من جديد، بينما هدمت كنائسهم وأديرتهم وألزموا على لبس الغيار[23]. واستمر وضعهم هذا لقرون طويلة، إلى حين قدوم العثمانيين حيث بدأت أوضاعهم تشهد شيئا من التحسن والانفتاح.

ثالثا: المسيحيون في ظل الدولة العثمانية

عاش العراق طيلة قرون ثلاثة أوضاعا سياسية واجتماعية واقتصادية متخلفة ومضطربة إلى حد بعيد منذ سقوط بغداد سنة (656هـ-1258م) وحتى مجيء العثمانيين سنة 1534م، فبعد الدمار والخراب الذي ألحقه هولاكو المغولي في بغداد بدأت بعد ثلاثة عقود المرحلة الثانية من الاحتلال المغولي بتولي غازان خان وابنه محمد خدابنده الملك وإسلامهما، حيث ذاق العراقيون بمسيحييهم ومسلميهم ولعقود ألوانا من الشقاء بسبب تشددهما حيال المسيحيين وأهل الذمة الآخرين، فضلا عن بروز حالة من الصراع والتنافس بين أبناء الأسر المغولية الحاكمة نفسها، وهو ما ولد حالة من عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي، وفي خضم هذه الاضطرابات والصراعات تمكن الأمراء الجلائريون، وهم أيضا مغول متفرسون، بحلول العام 1340م، من السيطرة على الجزء الأعظم من إمبراطورية جنكيز خان ومنها العراق[24]. ولمدة نصف قرن.

ورغم أنهم تمكنوا، حسب وصف لونكريك، من إعطاء العراق جرعة من الاستقرار والسلام، بدعمهم الفقراء والمحتاجين، ونشر أعمال البر والإحسان، وإحياء الفنون، شهد العقد التاسع للقرن الرابع عشر انهيار حكم الجلائريين، بسبب تفشي الخلافات

والصراعات بين أمرائهم، ومن ثم تمكن تيمورلنك من اجتياح واحتلال بغداد سنة 1400[25]. ومع الدمار الذي ألحقه تيمورلنك بأهل بغداد، وقتل غالبية سكانها فإن الجلائريين تمكنوا، بعد مدة قصيرة من وفاة تيمور لنك سنة 1405م، من استعادة السيطرة على بغداد محملين هذه المرة بثارات وأحقاد على أهلها كانت نتيجتها إلحاق تدمير شامل لكل معالم الحياة. لم يستقر الحكم للجالائريين في العراق طويلا بعد أن تمكنت قوة صاعدة للتركمان القرة قوينلو (الخروف الأسود) من منافسة الجلائريين، وإزاحتهم ودخول بغداد سنة 1410، ليرسوا دعائم حكم استمر لستين عاما، انتهى بانهيار وسقوط على يد قوة تركمانية منافسة أخرى وهي آلاق قوينلو (الخروف الأبيض) التي لم تحقق طيلة 35 عاما من حكمها سوى الحروب والاقتتال بين المتنافسين على الحكم[26]. فقد العراق خلالها الكثير من سكانه فانهار اقتصاده، وبات غير محصن عسكريا لمطامع دولتين جديدتين متنافستين في الشمال والشرق هما الدولة الصفوية التي ترسخت بحلول سنة 1500 بقيادة إسماعيل الصفوي، والدولة التركية العثمانية[27] التي باتت منذ ذلك التاريخ قوة متنامية ومنافسة للصفويين.

وقد اتخذت الدولة الصفوية من تبريز عاصمة لها بعد القضاء على دولة الخروف الأبيض، وفي سنة 1508، اتجهت صوب العراق وتمكنت قوات إسماعيل من احتلال بغداد وكل أجزاء بلاد ما بين النهرين، وأمسى العراق إقليما فارسيا لربع قرن. وكان البعد الطائفي الشيعي أحد أبعاد السيطرة الفارسية على العراق[28]. إذ عزز الخلاف المذهبي السني الشيعي والكراهية الكاملة بين الأتراك والفرس في العرق والأعراف والصفات الشخصية من يقينية الصراع الوشيك بين

الطرفين، الذي اكتمل في معركة جالديران التي انتصرت فيها جيوش السلطان سليم الأول، وإلى الإخضاع شبه الرسمي للعراق حتى تمكن بعد ذلك السلطان العتيد سليمان القانوني من إكمال احتلال العراق في العام 1534م، وبشكل يكاد يكون سلميا ودون إراقة دماء، وهو ما أدخل العراق بعد ذلك في مرحلة هدوء شبه تام، ولمدة تزيد على تسعين عاما[29].

ومع استقرار الأوضاع السياسية والاقتصادية للفاتحين الجدد، استقرت كذلك أوضاع العراقيين، ولا سيما المسيحيين في ظل مبدأ التسامح والانفتاح الذي تبنته الدولة العثمانية مع الجماعات غير الإسلامية، حيث منحوا حقوقهم الثقافية وأمنت مصادر عيشهم من الناحية الاقتصادية والتجارية، وفتحت أمام أبنائهم أبواب المناصب الإدارية والسياسية حتى وصل الكثير منهم إلى مواقع هامة من المسؤولية[30]. ويذكر لونكريك في كتابه (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) أن اليهود والنصارى عاشوا في ظل نظام كان التساهل فيه يزيد على ما كان في الولايات العثمانية الأخرى، ولا سيما دمشق والقاهرة، إذ إن (بغداد كانت عالمية... إلى حد أنها لا تشجع شيوع التعصب، يضاف لذلك أن هذه الأقليات كانت تسلك سلوكا حسنا، كما كان الناس قد ألفوهم، نظرا لطول إقامتهم ولعدم وجود ما يمنع اختلاطهم ببقية السكان. إلا أنه كان من المنتظر أن يكون بينهم ما يفرقهم عن غيرهم، كما كان الأمر في دمشق والقاهرة. فربما كان من المحذور عليهم أن يمتلكوا الرقيق الأبيض، أو يركبوا الخيل، لأن حصتهم من هذه الأصناف كانت العبيد والزنوج والحمير. على أن التحقير الأعظم الذي كان يقضي بعدم الركوب مطلقا، أو النزول عند مرور سيد من السادة كان لا يؤتى إلا قليلا)[31].

وخلافا لأسطورة الصراع التي روج لها بعض الكتاب الغربيين، عاشت الطوائف المسيحية في ظل الدولة العثمانية ما سماه المؤرخ هولت (تعايشا متكافلا مسالما)[32]. ولهذا احتفظت الطوائف النصرانية بكل مؤسساتها وهياكلها الدينية، (فقد كان للنسطوريين كنيسة خاصة بهم، وكانت الأخويات الدينية ممثلة بالكبوشيين والكرمليين، ولم يتدخل الأتراك في ترددهم إلى الكنيسة ولا في إقامتهم للشعائر النصرانية)[33]. وقد انبرت الدولة العثمانية في زيادة مساحة الحرية الدينية حينما أعطت سلطات واسعة لرؤساء الأقليات الدينية الروحيين، فكان المسيحيون يرجعون إلى بطاركتهم في القضايا المتعلقة بالأحوال الشخصية، وتركت الحرية للكثيرين منهم للتقاضي وفق الشريعة الإسلامية ومساواتهم في التقاضي بينهم وبين المسلمين من جميع الوجوه[34]، وقد تركت الدولة العثمانية، وبلا أي تدخل، لرؤساء الطوائف المسيحية حرية تنظيم أنفسهم، في جميع الأمور التي تخص أوقاف الكنائس وشؤون المدارس والمؤسسات الخيرية الخاصة بالطوائف[35]. ولقطع الطريق أمام الاتهامات التي أخذت توجهها الدول الأوروبية المتدخلة في الشأن العثماني حول التفرقة بين المسلمين والمسيحيين، ورغبة تلك الدول بالتدخل في شؤون الدولة العثمانية بحجة حماية المسيحيين، فقد أصدرت الحكومة العثمانية الكثير من المراسيم والقوانين التي تعزز مفهوم المساواة بين رعايا الدولة، وكان مرسوم كلخانة الذي صدر سنة 1839، فاتحة لتلك المراسم الإصلاحية. وقد تضمن وعودا من السلطان بإصدار قوانين تحسن فيها كفاءة الإدارة الحكومية وبما يضمن حماية رعايا الدولة من مسلمين ومسيحيين في أرواحهم وأعراضهم وأموالهم[36].

وقد أردفت الحكومة مرسوم كلخانة بمرسوم آخر سنة 1856، تناول موضوع الأقليات الدينية وفي مقدمتها الأقلية المسيحية، فأقر جميع الامتيازات السابقة التي منحت لها، وأكد على أن تضمن الدولة (حرية الأديان والمذاهب، وإجراء الطقوس الخاصة بها، وسماحها ببناء الكنائس والمعابد، والمستشفيات الأهلية الطائفية، وترميمها بعد استحصال موافقة الباب العالي، وأن الدولة تأخذ بعين الاعتبار كفاءة الأشخاص في إشغال الوظائف الحكومية دون النظر إلى انتمائهم الديني أو المذهبي، ولا تمانع في تقاضي الأفراد غير المسلمين أمام رؤسائهم الروحيين، ولهم أن يرشحوا أنفسهم لعضوية مجالس البلديات، وأنهم متساوون مع المسلمين في أداء واجب الخدمة العسكرية، وفي الضرائب وفي جميع الواجبات الأخرى)[37].

ويبدو أن مراسيم الدولة وقوانينها كانت عاملا ساعد في التقدم الثقافي والفكري للمسيحيين في العراق، حيث استفاد هؤلاء من التعليم الطائفي الذي اتخذ شكله المتميز بعد مرسوم كلخانة المشار إليه، وقبل أن تقوم الدولة العثمانية بفتح وتأسيس المدارس في ولايات العراق بربع قرن، ذلك أن هذه الوعود التي تحقق بعض منها زادت من ترابط الجماعات المسيحية بسبب تنظيم شؤون البطريركيات والمجالس الروحانية التي اضطلعت بمهمة تأسيس المدارس لأبنائها، ولعل مما ساعد في دفع عملية التعليم إلى الأمام لدى مسيحيي العراق انتشار المدارس التي بدأت الإرساليات التبشرية الغربية بتأسيسها في ولايتي الموصل وبغداد، خاصة في السنوات التي أعقبت مرسوم سنة 1856. على أن نشاطات الإرساليات التبشيرية وبمختلف أشكاله لم يكن يلقى ترحيبا من قبل بعض الطوائف المسيحية، نظرا لطبيعته السياسية وبسبب التشاحن والخلافات المذهبية بين المسيحيين أنفسهم[38].

وبشكل عام، عاش مسيحيو العراق في ظل نظام من التساهل يزيد على ما كانت عليه أوضاع أقرانهم في ولايات ومناطق أخرى من الدولة العثمانية، وقد عد أحد السواح الأوروبيين (ولاية بغداد الولاية العثمانية الوحيدة التي يصاب فيها المسيحيون واليهود أيضا بأقل أذى)[39]. ونتيجة لذلك فتحت أبواب الحياة الاقتصادية والتجارية والاجتماعية أمام الكثير من المسيحيين، حيث ظهرت أسماء لعائلات مسيحية كانت لها إسهاماتها المباشرة في المجتمع العراقي، وهذا ما جعل المسيحيين، على وصف الرحالة صمويل أيفرز سنة 1779، يستحوذون على التجارة في العراق. وتظهر بعض المصادر أن معظم التجار المسيحيين في العراق كانوا من أرمن إسطنبول المهاجرين، وقد ارتكزت ثروتهم على تجارة الأحجار الكريمة والشال مع إيران والهند.

ويذكر جون أشر الذي زار الموصل في منتصف القرن التاسع عشر أن معظم تجار المدينة من الأرمن (الذين يظهر أن مقدرتهم في التجارة قد جعلتهم ينتشرون في أنحاء الشرق حتى في أبعد القرى وأوعرها طرقا)[40]. وترد في التاريخ العراقي أسماء لشخصيات وعوائل أرمنية عراقية كان لها باع طويل في الميدان التجاري في القرن الثامن عشر منها آل مرادجا وآل صوفيالي وآل مراديان، فضلا عن التاجر الأرمني المعروف نعوم سركيس الذي كان أول من قام بتخطيط مدينة الشطرة في الناصرية وإنشائها والسكن فيها. وقد ظل ملتزما بمقاطعات في أنحاء قضاء المنتفك وملاكا فيه، وكان يحظى بقبول وثقة أهالي عموم مدينة الناصرية، وظل ولده يعقوب مدة (أربعين سنة أو نحوها يخرج في كل سنة إلى أنحاء الشطرة والحي وقلعة سكر والناصرية ليعيش أشهرا في الخيام أو الدور في القرية متعهدا أملاكه وزراعته)[41]. واستطاعت شخصيات مسيحية أن

تتولى مناصب ذات أهمية، فكان إلياس الحلبي الكاثوليكي صرافا لوالي الموصل الحاج حسين باشا الجليلي، وكان زكريا الصائغ موظفا هاما لدى الوالي نفسه، ووصف بأنه (مسموع الكلمة عند الباشا). وعرف بطرس بن إلياس جبران البغدادي بالطمغجي، لأنه (كان من كبار الموظفين في الدائرة التي كانت تعرف بالطمغة)[42]. وهي من إدارات الضرائب الرئيسة في ولاية الموصل. وتقلد بيدروس كوركجي منصب رئيس الفراثين، ويوسف كيفورك رئيس الصيارفة، وستراك بوغوصيان مركز المفتش العام للبنك العثماني. وكان أول من أدخل تلقيح الجدري إلى ولاية بغداد هو الأرمني أوهانيس مراديان الذي اشتهر في صناعة الطب وقدم بغداد عام 1786[43]. وينقل القنصل الفرنسي في بغداد جان باتست روتسو صورة عن الأوضاع المعيشية لنصارى بغداد وأعمالهم التجارية، فهم (يتعاطون البيع والشراء الداخلي، ويزاولون مهنة الطباعة على الأقمشة وغيرها من المهن اليدوية)، أما الأرمن فهم الذين يتحكمون في الاقتصاد والتجارة في بغداد، وأن النحاس الذي كان يبعثه التجار الأرمن من الموصل إلى بغداد والبصرة كان من النوع نفسه الذي يجري صنعه في إنجلترا ويتحدث القنصل الفرنسي عن مشاهداته في مدينة الموصل عن احتكار التجار الأرمن لتجارة الأخشاب، وعلى نحو ينافس كبريات الشركات البريطانية، وكان الأرمن واليهود يشكلون غالبية موظفي الشركة الإنجليزية التي تحولت إليها ملكية شركة بغداد للقوة الكهربائية بعد الاحتلال البريطاني للعراق عام 1917[44].

ورغم أن القرن التاسع عشر تميز بصعوبة الأوضاع الداخلية في الدولة العثمانية، فإن سياسة التسامح ظلت قائمة حيال المسيحيين،

وهو ما شكل حافزا للتقدم العلمي وللتجديد الروحي لكل الطوائف المسيحية، ففي سنة 1857 أدخل الآباء الدومنيكان أول مطبعة حجرية إلى الموصل، وقد ألحقوا بها بعد ثلاث سنوات مطبعة حديثة كاملة الأدوات، وبقيت عجلاتها تدور حتى الحرب العالمية الأولى، وقد أغنت المكتبة العربية بنفائس الكتب الدينية والتاريخية والأدبية والعلمية. وفي سنة 1864، حمل الشماس روفائيل مازجي مطبعة صغيرة إلى الموصل طبعت كتبا مفيدة، كما سخر المازجي أمواله لبناء مدرسة حديثة للكلدان تخرج فيها رجال خدموا الطائفة وخدموا العراق، واجتهد الآباء الدومنيكان في فتح العديد من المدارس لتعليم القراءة والحساب والعلوم الحديثة، كما وسعوا من المدارس لتشمل البنات، ففي 1873، تم افتتاح مدرسة الأخوات راهبات التقدمة، ثم مدرسة الأخوات الكاترينات في سنة 1877[45].

ومن الشخصيات المسيحية التي عملت بإخلاص في العراق الأرمني فوسكان مارديكيان (أوسكان أفندي) الذي كان وزيرا للبريد والبرق في الدولة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر، وبناءً على دعوة وجهتها له الحكومة العراقية في عشرينيات القرن العشرين، أصبح خبيرا ماليا في وزارة المالية العراقية، وطور النظام المالي في العراق وترجم عدة نصوص قانونية من العثمانية إلى العربية، وبرز أيضا اسم سيروب أسكندريان مديرا للإدارة النهرية في بغداد عام 1910، وهناك أيضا سرابيون سيفيان الذي شغل المنصب نفسه قبل الحرب العالمية الأولى إبان العهد العثماني. ومن الشخصيات الأرمنية أيضا، مركوريان مدير شعبة المصرف العثماني الذي عين في العام 1910 رئيسا لأول غرفة للتجارة في بغداد، وقد بات في زمنه مرجعا للأمور المالية[46].

أما النساء المسيحيات زمن الدولة العثمانية فيمكن الإشارة إلى أهم شخصية لا تزال مثار إعجاب العراقيين، وهي الست سارة أسكندريان التي عرفها أهالي بغداد باسم (سارة خاتون) أو (سارة الزنكينة أو الغنية)، وسمي حي كمب سارة في بغداد باسمها، لأنها المالكة الحقيقية له، وقد كانت على درجة عالية من الجمال، ووقع في حبها والي بغداد الشهير ناظم باشا، إلا أنها رفضته رفضا باتا وهاجرت إلى فرنسا ولكنها عادت بعد مدة، وعاشت في بغداد حياة مضطربة أفقدتها كل ثروتها، فعاشت بقية حياتها عزيزة النفس حتى توفيت[47].

ومن مواقف التلاحم الوطني التي جمعت مسيحيي العراق مع مسلميه يمكن الإشارة إلى الحملات التي قادها الصفويون لاحتلال العراق إبان صراعهم المتواصل مع العثمانيين، ففي حملته التي قادها على الموصل سنة 1743، استطاع نادر شاه قلي خان الفارسي أن يدمر عددا من القرى والكنائس المسيحية في سهل نينوى تدميرا كاملا، ويبيد خلقا كثيرا من أهلها ورجال دينها[48]، فالتجأ المسيحيون إلى الموصل حيث استقبلهم واليها الحاج حسين باشا الجليلي (وشجعهم وجهزهم بالمؤن والأسلحة)[49] وبعد حصار فاشل سقطت خلاله على مدينة الموصل أكثر من 4000 قذيفة أثناء 42 يوما دام فيها الحصار، دمر الكثير من الكنائس المسيحية. ومما يذكر في هذا المجال أن والي الموصل حسين باشا الجليلي قد أوفد ابنه إلى إسطنبول فاستحصل من السلطان العثماني فرمانا يسمح بإعادة بناء الكنائس المسيحية المدمرة، وقد أعيد بناء وترميم ثماني كنائس[50]. ومما يروى في قصة حصار الموصل من قبل نادر شاه أن الحاج الجليلي قد استخدم حنا جقماقجيان من مدينة سعرت في تركيا اليوم، وكان

ماهرا بصنع الأسلحة ليستعين به في تجهيز الرجال لمواجهة هجوم نادر شاه، وبعد انتهاء الحصار طلب منه الوالي البقاء في المدينة ليعمل فيها هو وأسرته، فاشتغل في تجارة السجاد والأخشاب والخيول واشتهر فيها[51].

ومثلما تلاحم المسلمون والمسيحيون في محنة حصار الموصل، تلاحموا كذلك في المواقف الاجتماعية، إذ كثيرا ما ربطت المصاهرة بين المسلمين والمسيحيين، حيث لم يجد كثير من المسلمين أي بأس في التزوج من مواطناتهم المسيحيات، فارتقت بذلك أسر مسيحية عديدة الهرم الاجتماعي في بغداد والموصل بسبب صلات المصاهرة مع الأسر العريقة، وكانت المشاهد المقدسة لدى المسيحيين والمنسوبة إلى حواريي المسيح تلقى قدرا كبيرا من احترام المسلمين أيضا، فمسلمو الموصل ومسيحيوها كانوا يجلون مشهدي يونس (يونان) وجرجيس (جورج) على حد سواء، باعتبارها حماة المدينة ورعاتها، ويزور المسلمون ضريحا منسوبا إلى القديس شمعون الصفا في الكنيسة المعروفة باسمه تبركا.

أما الأماكن التي تتميز بصفتها الإسلامية والمسيحية المشتركة فهي ذات مقصد مشترك للمسيحيين والمسلمين على حد سواء، مثل المشهد المنسوب إلى الرجل الصالح (الخضر) الذي يقع على ضفاف نهر دجلة في بغداد، حيث كان يسمح للمسيحيين بزيارته والتعبد فيه لقاء رسوم معينة[52]. وظل الاحتفال بولادة النبي زكريا ابن خالة السيد المسيح عليه السلام عادة إسلامية لا تزال الأجيال تتوارثها إلى اليوم، حيث يصادف ذلك الاحتفال في أول أحد من شهر شعبان من كل سنة، حيث يوقد المحتفلون الشموع وورد إلياس تيمنا بنبي الله زكريا، ويتم الدعاء بهدف الحصول على الرزق، لا سيما للرجال

والنساء الذين لم يرزقوا بالأطفال تيمنا بدعاء نبي الله زكريا الذي وهبه الله يحى ليصبح نبيا أيضا[53].

رابعا: نظام الملة وحقوق المسيحيين العراقيين

اقتضت سياسة التسامح العثماني المستمدة من القرآن والسنة النبوية والاجتهادات المنفتحة للفقيه الإسلامي أبي حنيفة النعمان صدور الكثير من الفرمانات العثمانية التي نظمت العلاقة بين السلطة العثمانية والمسيحيين من جهة، والطوائف المسيحية في تنافسها وصراعها مع بعضها من جهة ثانية، وقد عرف القانون الذي نظم شؤون المسيحيين بنظام الملة، حيث تبلور هذا النظام نتيجة جهود الإدارة العثمانية التي أخذت بنظر الاعتبار بنية وثقافة المجموعة الإثنية والدينية التي حكمتها، إذ تركت الدولة العثمانية المجال مفتوحا أمام التعددية الدينية والثقافية والإثنية في نطاق هذه الجماعات، ومنحتهم حقوقا مدنية ودينية لم يكونوا يتمتعون بها قبل العهد العثماني، وهو ما سمح لهؤلاء بالاندماج في النظام السياسي والاقتصادي والإداري العثماني[54].

ويمكن التأكيد على أن بداية نظام الملة كانت على يد السلطان محمد الثاني (1451–1481) أو محمد الفاتح الذي تمكن من الاستيلاء على القسطنطينية في سنة 1453، والتي اعتبرت قلعة المسيحية الرسمية منذ القرن الرابع الميلادي وعاصمة الإمبراطورية البيزنطية، فأنهى بذلك حروبا دامت عشرات القرون بين الروم المسيحيين والساسانيين المجوس، واستمرت مع العرب المسلمين وانتهت مع الأتراك العثمانيين[55]. وقد سعى محمد الفاتح إلى معالجة آثار فتح القسطنطينية على واقع المسيحيين، عبر توجيه رسالة إلى

المسيحيين على مختلف فئاقم من أهم سيكونون آمنين في أرواحهم وأموالهم، وأهم سينعمون بالحرية في عبادقم وكنائسهم وطريقة حياقم، فقام السلطان الفاتح بتعيين البطريرك الأرثوذكسي اليوناني كينادوس وسيطا بين الرعية المسيحية وبينه، وبذلك أصبح مسؤولا عن إخوانه المسيحيين وعن إخلاصهم للفاتح، وعن دفع الجزية ومنح هذا البطريرك منصب رئيس الطائفة (ميليت باشي)، كما منح صلاحيات كبيرة لإدارة شؤون الكنيسة الأرثوذكسية كتعيين الأساقفة وعزلهم، والنظر في قضايا الأحوال الشخصية وتوزيع ضريبة الجزية التي كان العثمانيون يضعون لها مبلغا إجماليا على المسيحيين كافة[56].

لم تعترف الدولة العثمانية بادئ الأمر بجميع الطوائف المسيحية، إذ اعترفت بالأرثوذكس فقط وألحقت بقية الطوائف بحماية بطريرك الطائفة الأرثوذكسية. ولعل ذلك يعود إلى أن أغلب سكان الولايات العثمانية كانوا على المذهب الأرثوذكسي، لا سيما في مناطق البلقان وأوروبا الشرقية والولايات العربية. ولكن في العام 1641، أدخلت طوائف مسيحية أخرى برعاية السلطان العثماني في مقدمتهم الطائفة الأرمنية والسريانية، إضافة إلى الأحباش والأقباط[57]. وبتأثير لاحق من الدول الغربية اعترفت الحكومة العثمانية في القرن التاسع عشر بالطوائف الكاثوليكية لا سيما بعد تزايد أعداد المتكثلكين بسبب جهود الإرساليات التبشيرية، حيث حصل الأرمن الكاثوليك على اعتراف بهم عام 1831 طائفة مستقلة، كما اعترف لبطريرك الأرمن الكاثوليك عام 1875، بتمثيل طوائف الكنائس الشرقية المتحدة مع الكنيسة الكاثوليكية مثل الكلدان والسريان والملكيين أو الروم الكاثوليك[58].

أتاح نظام الملة، كما أسلفنا، للمسيحيين في الدول العثمانية حرية كبيرة في الاستقلال بشؤونهم الدينية وحياتهم المعيشية، فالدولة العثمانية كانت نادرا تتدخل في شؤون المسيحيين وغيرهم، طالما كانوا يؤدون الضرائب بانتظام ويلتزمون بالمنظومة الأخلاقية العامة للمجتمع الإسلامي[59].

وقد تعززت حرية المسيحيين في الدولة العثمانية بصدور الكثير من القوانين أو الفرمانات التي كرست من حرية الجماعات المسيحية وغيرها، وثبتت من خصوصياتها الثقافية، ويمكن الإشارة إلى القانون المعروف بخط كولخانة الشهير (1839) السالف الذكر، الذي أصدره السلطان عبد المجيد، وفيه أعلنت المساواة التامة بين جميع رعايا الدولة العثمانية، وتعهد باحترام الحريات العامة والممتلكات والأشخاص، بغض النظر عن أصولهم أو دينهم[60]. وتلاه إصدار خط همايون (1856) الذي أكد صراحة على (معاملة جميع تبعة الدولة العثمانية معاملة متساوية مهما كانت أديانهم ومذاهبهم مع إبقاء سلطات رؤساء الدين بشرط إعادة تنظيمها)[61]. وبموجب ذلك أصبح لكل طائفة مجلس روحاني ومجلس جسماني، إذ اعترف بطائفة اللاتين التي تكونت من المهاجرين إلى العراق، ومعظمهم من التجار الإيطاليين ومن تبعهم بفعل حملات التبشير التي بدأت في العراق في القرن السابع عشر، حيث استطاع الآباء الكرمليون الاستقرار في العراق في عشرينيات القرن السابع عشر، وتأسيس دير في البصرة ثم دير آخر في بغداد عام 1675[62].

واعترف العثمانيون، ولأول مرة، بالطائفة الكلدانية والنسطورية، فاستخرج البطريرك زيعا عام 1844، أثناء زيارته إلى إسطنبول فرمانا بلقب بطريرك الكلدان في بغداد والموصل، لكن

بطريركية الكلدان لم تحصل على براءة سلطانية أو اعتراف رسمي إلا عام 1901. في زمن السلطان عبد الحميد الثاني، والبطريرك يوسف عمانوئيل، وقد زار الأخير إسطنبول، واستقبله السلطان شخصيا بحفاوة[63]. وقد زاد خط همايون من ترابط الطوائف المسيحية بفعل القوانين التي أصدرتها الدولة من أجل تنظيم شؤون البطريركيات والأسقفيات، وتكوين المجالس الملية، ورغم أن الدولة قد كفلت لنفسها ولاء البطاركة، فإنها تركت جميع القضايا المتعلقة بأموال أبناء الطائفة الشخصية إلى رؤسائهم الروحانيين وكذلك أملاك الأديرة والكنائس وشؤون المدارس والمؤسسات الخيرية الخاصة بالطائفة[64].

وقد تلا تلك الإصلاحات صدور مراسيم وقوانين أخرى، لعل أبرزها خط الإصلاحات والتنظيمات الجديدة (1874) ودستور 1876، الذي أعلنه السلطان المتنور عبد الحميد الثاني الذي أقر فيه ضرورة نشر العدل والمساواة والحرية بين جميع المواطنين في الدولة العثمانية.

ويلاحظ المتتبع لتطور أوضاع المسيحيين في العراق والمنطقة العربية أن تلك القوانين لعبت دورا مؤثرا في ترسيخ استقلاليتهم، وزادت من قوة الروابط بين أفرادها وعلى نحو عزز من الروح الانفصالية لديها، ووسعت من سلطات هيئاتها الدينية وزعمائها الإقطاعيين ورجالاتها المتنفذين[65]. حتى بدت تلك الجماعات دولة في الدولة على وصف د. وجيه كوثراني[66]. ويشير الباحث التركي أورخان محمد علي إلى أن حقوق النصارى واليهود قد بلغت غايتها في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، ويستشهد بعدد الذين وصل منهم إلى مجلس المبعوثين الذي افتتحه السلطان في آذار/مارس 1877، فمن بين 115 عضوا، وهو العدد الإجمالي للمجلس كان هناك 46

من النصارى واليهود، أما مجلس الأعيان فقد ضم 26 عضوا منـــهم. الأمر الذي يؤشر لحجم العناية التي أولتها الدولة العثمانيـــة لحقـــوق المسيحيين الدينية والاقتصادية والسياسية، إذ كانت الحرية موفـــورة للجميع بغض النظر عن دينهم وجنسهم رغم أن الدولـــة العثمانيـــة حمت، وبصرامة، هويتها الإسلامية، ودافعـــت عنـــها في محيطهـــا الخارجي، إذ كان العاملون من الرجال والنساء والجواري والعبيد في قصور السلاطين يطبقون عباداتهم وشعائرهم بكل حريـــة جنبـــا إلى جنب[67]. وقد تحدث بعض الرحالة الغربيين عن مشاهداته في هـــذا الصدد (إن الديانات الإسلامية واليهودية والأرثوذكسية والكاثوليكية كانت متعايشة في كل مكان حتى في قصور الســـلاطين والـــوزراء والكبار، وكان هؤلاء أنفسهم من رعايا الأديان والطوائف والأقوام العديدة في البلقان بعد أن تحولوا إلى الإسلام، وصار بإمكانهم تقلـــد المناصب الرفيعة بكل يسر وسهولة، فكـــان اليونـــاني والصربـــي والبلغاري والإيطالي والبولندي والتتري والفلاخي والمجري... جنبـــا إلى جنب يعملون في مواقع واحدة، ويخدمون في أمـــاكن واحـــدة ويتجاورون، يجمعهم الولاء للدولة والسلطان فقط)[68]. لقد كان من نتائج سياسة التسامح حيال المسيحيين التي تميز بها الحكم العثمـــاني ظاهرتان:

الأولى: عودة المصالح التجارية الغربية إلى المنطقة عبر ارتكازها على غير المسلمين من المسيحيين وغيرهم الذين انخرطـــوا في خدمـــة هذه المصالح وكلاء ومترجمين ومقاولين ووســـطاء[69]، لا ســـيما أن نسبة غير قليلة من التجارة في العراق خصوصا في بغـــداد والموصـــل كان يتحكم بها الأرمن الذين يسيطرون على أغلب المعامل القليلـــة الموجودة هناك[70]، وفي الوقت الذي رفعت تلك الحالة من الواقـــع

المسيحي، وأبرزت المسيحيين إلى ساحة العمل التجاري والاقتصادي في المنطقة فإنها دمرت في الوقت عينه حياة الكثير من العائلات المسلمة، ومن بينها الحرفيون والتجار الذين عجزوا عن تطوير تقنيات إنتاج جديدة ومنافسة[71].

أما الثانية فتمثلت في الحماية التي حصل عليها المسيحيون، وفي التعليم الذي قدمته البعثات التبشيرية لهم، وأعدتهم خاصة ليخدموا وكلاء للتجارة والمصالح الدبلوماسية الأوروبية، والامتيازات الأجنبية، وسمحت للقناصل بمنح الحماية التجارية، ومن ثم الحماية السياسية للمسيحيين[72] إذ إن الكثير من الآباء ورجال الدين المسيحيين في العراق كانوا يتمتعون بحصانة دبلوماسية بهدف تسهيل القيام برسالتهم انطلاقا من موقعهم الدبلوماسي، بل إن بعض الدول الأوربية لجأت إلى إسناد مهمة دبلوماسية ثقافية إلى شخصيات دينية، مثلما حصل مع فرنسا التي عينت مطران اللاتين عمانوئيل بأييه في منتصف القرن الثامن عشر قنصلا لها في بغداد[73].

خامسا: المسيحيون ونظام الوصاية الغربية

في الوقت الذي شكل نظام الملة حلا عمليا لظاهرة التنوع الديني في الدولة العثمانية المترامية الأطراف، فإنه كون في سنوات انحطاطها وضعفها في القرن التاسع عشر وما بعده عبئا سياسيا دفعت وحدها الإمبراطورية العثمانية ثمنه باهظا، فقد مهد نظام الملة لإمكانية التدخل الأوروبي الغربي تحت ستار حماية الأقليات المسيحية، فاستخدمت القوى الأوروبية كل وسائلها المتاحة من دبلوماسيين وسفارات وغرف تجارية وتجار وإرساليات تبشيرية ورجال دين، لممارسة كل أشكال الضغط والابتزاز بهدف الحصول على مزيد من

المكاسب. ولأجل هذا ضخمت بعض المشكلات الدينية التي افتعلت ضد المسيحيين، وبولغ في بعض شكاواهم، وأظهرت الدولة العثمانية التي مارست أقل تعصب قياسا بمعاصريها، مجسدة للتعصب والانغلاق والتمييز الديني ضد المسيحيين وغيرهم[74]. هذا الاختراق الغربي الذي تسلل إلى الإمبراطورية العثمانية من باب نظام الملل، وتحت مظلة التبادل التجاري والإرساليات التبشيرية، ومستثمرا حالة الاهتراء والتحلل التي آلت إليها الأوضاع في ولايات الإمبراطورية العتيدة، أدى لاحقا إلى مجموعة نتائج خطيرة في واقع الإمبراطورية، وعموم المنطقة العربية لا تزال آثاره قائمة ربما إلى الآن.

النتيجة الأولى: ظهور طبقة من التجار والوكلاء المحليين من غير المسلمين على سطح المجتمع الإسلامي، تتمتع بمواقع ممتازة في هرم الثروة والسلطة، وتدين بالكثير للوكلاء الغربيين سواء كانوا سفراء أو تجارا، أو رجال دين مبشرين[75].

النتيجة الثانية: أن تلك الشرائح الجديدة من المسيحيين المتغربين اعتبرت الركائز الأساسية للاختراق الغربي للواقع الإسلامي، بعدما تطورت علاقة المنفعة التجارية والدينية إلى الولاء والحماية من جانب القناصل الأجانب، خصوصا أن كل ما كان يتمتع به هؤلاء المنتفعون من امتيازات وفرص للثراء ظل مرهونا باستمرار مظلة الحماية الأجنبية[76].

النتيجة الثالثة: أن تلك الشرائح ظلت تتمتع بانتماء مزدوج، فأفرادها كانوا رعايا الدولة العثمانية في الأساس، ولكنهم ألحقوا بحماية دولة غربية أجنبية، مما جعل تصنيفهم يتأرجح بين مربعي الوطنيين والأجانب، حتى استقر الأمر في النهاية إلى إلحاقهم بالرعايا الأجانب، مما أدى إلى زيادة ملحوظة في حجم الجاليات الأجنبية،

وهو ما تذرعت به الدول الأوروبية لاحقا للتدخل العسكري فيما بعد، رافعة لواء حماية تلك الجماعات[77].

النتيجة الرابعة: أن الدول الغربية حولت الملة غير الإسلامية إلى وجود يرتكز إلى مفهوم الأقلية القائمة على الحماية، ومن خلال توظيف استقلالية الملة المستوعبة في الأساس بصيغة رعايا السلطان في مفهوم يماثل بين الملة والأمة [78](nation). فبعد إلحاق الشرائح العليا في الملل بالجاليات الأجنبية جاءت الامتيازات التجارية والسياسية لتحول الجاليات إلى حزر مستقلة أو جمهوريات شبه منفصلة، يرأسها السفراء والقناصل، لها مجالسها وموازناتها وقضاؤها، وهذا الوضع الشاذ زرع، بمضي الوقت، بذور الكيانات الطائفية المنفصلة والمتناحرة، بل إن مصطلح الأقليات (minorities) لم يظهر في السياسة الأوروبية، ومن ثم في القانون الدولي خلال نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، إلا نتيجة لتدخل الدول الأوروبية في شؤون الإمبراطورية العثمانية، وبدعوى حماية المسيحيين[79].

وهكذا كان نظام الملل في القرن التاسع عشر وسيلة مباشرة لتحقيق ما تصبو إليه الدول الغربية من التدخل في شؤون الدولة العثمانية، فأعلنت فرنسا حماية الموارنة الكاثوليك، وتولت روسيا حماية مصالح الأرثوذكس، كما أعلنت النمسا وإيطاليا حماية مصالح الروم الكاثوليك، وأيدت إنجلترا البروتستانت، ولقد جاء هذا التدخل بطرق مختلفة، منها المدارس التعليمية والإرساليات التبشيرية التي كانت من أهم وجوه التدخل الغربي في شؤون السلطنة العثمانية[80]. الأمر الذي زاد من دور هذه الأقليات، وحسن من وضعها وقوى مركزها، وزاد في استقلالها الذاتي لا سيما بعد أن

ازداد إقبال أبنائها على تعلم اللغات الأوروبية كالفرنسية والإنجليزية والروسية، ولكن المؤكد في الأمر أن تصاعد دور تلك الأقليات قد جلب عليها في الوقت عينه نقمة الدولة العثمانية والغالبية المسلمة من السكان التي أخذت تنظر إليهم بعين الحذر، وأنهم آلة بيد السياسة الأجنبية[81]. لقد كان ارتباط العمل التبشيري بالأهداف الاستعمارية للدول الأوروبية الغربية واضحا في حماية تلك الدول للإرساليات التبشيرية ودعمها ماليا وسياسيا، وقيامها بالإشراف عليها وعلى المدارس التابعة لها من خلال بعثاتها الدبلوماسية[82]، فقد قامت فرنسا بحماية رئيس البعثة الكرملية في بغداد الأب عمانوئيل بأيبه، حينما تعرض لضغوط من قبل والي بغداد أحمد باشا، ومن قبل طائفة الأرمن الأرثوذكس في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، حيث عين بأيبه قنصلا لفرنسا في بغداد سنة 1742، وكان يحمل لقب المبعوث الخاص لملك فرنسا[83].

مما مكن البعثة الكرملية من مزاولة أعمالها في بغداد بحرية تامة منذ ذلك الوقت[84] وقدمت الحكومة الفرنسية مساعدات مالية متواصلة لإرسالياتها التبشيرية في بغداد والموصل[85] وبدعم من الحكومة الفرنسية توالى قدوم الإرساليات إلى مختلف نواحي العراق، وتحت أكثر من اسم منهم الأغسطينيون والكرمليون والكبوشيون، بهدف نشر المذهب الكاثوليكي[***]، وبافتتاح مركز الإرسالية الدومنيكية في الموصل سنة 1750، انتعشت الكثلكة في هذه المدينة، وزادت حركة التبشير بها نشاطا، ولم تمض سوى سنوات قليلة حتى كانت الإرسالية الدومنيكية قد استطاعت الحصول على موافقة بهرام باشا أمير بهدينان على فتح دار لها في عاصمته العمادية[86]. ومنذ مطلع القرن الثامن عشر ازدادت سرعة انتشار المذهب الكاثوليكي

بشكل مذهل، وبعد أن كان عدد الكاثوليك في الموصل سنة 1747 لا يتجاوز عشر أسر كلدانية متكثلكة ومثلها من السريان، بلغ عددهم في أوائل القرن 19، زهاء ألف أسرة كلدانية، وخمسمائة أسرة سريانية أغلبهم في قرة قوش في الموصل، وبينما لم يكن ببغداد من الكاثوليك في مطلع القرن السابع عشر إلا نحو ثلاثين بيتا فقط، زادوا بمساعي مطران بغداد الكرملي إلى 86 بيتا كاثوليكيا سنة 1753، وكانوا يتكونون من الطوائف الكلدانية والسريانية والأرمنية وبعض الملكيين. وبعدما لم يكن في البصرة في غرة القرن السابع عشر مسيحيون مستوطنون أصلا، أصبح فيها في أواسط القرن نفسه جالية مسيحية كاثوليكية لا بأس بها، أغلبهم من التجار الأرمن الذين توافدوا على المدينة لأسباب اقتصادية[87].

لقد زاد نشاط الإرساليات التبشيرية، والدعم المقدم لها من الدول الغربية من نقمة عوام المسلمين وخاصتهم، ومما زاد من نقمة هؤلاء إقبال المسيحيين على استلهام الثقافة الأوروبية، وإحجامهم عن ثقافة الدولة العثمانية التي ينتمون إليها، وازدياد اعتماد الدول الأجنبية عليهم في الأعمال الكتابية والتبشيرية في قنصلياتهم، ومؤسساتهم الدينية والثقافية والتجارية[****] وتقليدهم للغربيين في اصطناع أسلوب التجارة والصناعة، مما أدى إلى تفوقهم الاجتماعي، فقد عومل التجار العثمانيون والمسلمون المحليون معاملة دونية، قياسا بالأوروبيين والخاضعين لهم من الأقليات الطائفية. كما ساهمت الإرساليات بتفوقهم الثقافي، وهو ما زاد من حقد الأكثرية المسلمة عليهم. وبمرور الوقت كبرت الحواجز بين هذه الجماعات، وتحول ما كان نشاطا دينيا إلى مجموعات وطنية، ولم يصبح الولاء الديني هو الأساس لديهم، وأصبحت كلمة ملة تعني أمة، الأمر الذي جعل

فكرة القومية تنمو بين المسيحيين أولا[88]. ولا يمكن إغفال أن بروز الهويات الطائفية للجماعات المسيحية وتصاعد وتيرة التدخلات الغربية قد اقترن مع سياسات التتريك القومي، وبروز مفهوم الطورانية في توجهات السلطة العثمانية لا سيما أثر انقلاب 1908 ضد السلطان عبد الحميد الثاني، ونجاح حزب الاتحاد والترقي في تنفيذ سياسته القومية المتطرفة، وهو ما أشر إلى انتهاء ما يمكن تسميته بالحقبة المثالية للحكم العثماني[89]. ومع اقتران سياسات التدخل الغربي بسياسات التتريك لم يعد بالإمكان احتواء الصراعات الدينية والعرقية المتشعبة التي أخذت بالظهور، واتخذت في جملتها أشكالا متعددة أبرزها:

1 - الصراع بين الأقليات بعضها وبعض بتأثير رغبة كل منها في ترجمة ما تتمتع به من حماية إلى مزيد من النفوذ والامتيازات، وإذا كان الصراع قد اشتد بين الموارنة والدروز في لبنان، وانتهى إلى مذابح دير القمر 1860[90]. فإن الطوائف المسيحية في العراق لم تسلم هي الأخرى من التنافس والانشقاق، بل ربما كان النزاع هو السمة الغالبة على الحياة الاجتماعية لنصارى العراق إبان القرن التاسع عشر، إذ كانت الوشاية لدى الحكومات المحلية من الأساليب التي كثيرا ما لجأ إليها المتنازعون، خاصة أن تهمة تعاون أبناء البلاد الكاثوليك مع المبشرين الأوروبيين وهم أجانب تبدو معقولة دائما[91]. فبسعي من النساطرة واليعاقبة الأرثوذكس طرد والي بغداد محمد باشا الخاصكي الكبوشيين من مقرهم في بغداد سنة 1658، وبجهود الأرمن الأرثوذكس وأموالهم قام والي بغداد أحمد باشا بالاستيلاء على كنيسة النساطرة ومنحها لهم[92]. وبذل الخصمان الأموال الطائلة في المرافعة والمقاضاة في

سبيل هذه القضية، قبل أن تستقر الكنيسة في 1746، بيد الأرمن الأرثوذكس. وحاول بطريرك القوش في منتصف القرن الثامن عشر أن يرأب الصدع الذي أخذ يهدد طائفته النسطورية بالانشقاق فأسرع بالانضمام إلى كنيسة روما، إلا أن انضمامه هذا لم يدم طويلا، إذ سرعان ما عاد إلى مذهبه القديم محاولا الوقوف أمام مطرانية الموصل التي كانت توسع من نفوذها في أراضي بطريركيته باسم الكثلكة نفسها[93]. على أن ازدياد عدد الكاثوليك المتنامي، أظهر أن للصراع المسيحي جوانبه الاجتماعية الأخرى، فبعد أن كان متوقعا أن يؤدي تكثلك أبناء الطوائف في العراق إلى اختفاء النزاعات القديمة بينها، أخذ الصراع يتخذ أشكالا قومية ومحلية، حينما نشب الصراع بين الكاثوليك أنفسهم هذه المرة[94]، من ذلك مثلا أن مطران الموصل خاض صراعا طويلا مع مطران ديار بكر دام زهاء نصف قرن مع أن كليهما كاثوليكي العقيدة[95].

2 - نشوب الصراع بين الأقليات الدينية والدولة العثمانية طلبا للاستقلال التام، أو لإجبار العثمانيين على تقديم مزيد من التنازلات، ومن نماذج ذلك التحالف الذي حصل بين الأرمن وروسيا ضد الدولة العثمانية عام 1894، الذي تكرر في الحرب العالمية الأولى ودفع إلى حصول ما سمي بمذابح الأرمن التي راح ضحيتها عشرات الآلاف من المسيحيين الأرمن على يد القوات التركية[96]. ونزوح عشرات الآلاف منهم إلى الأقاليم المجاورة ولا سيما في العراق، حيث تم استقبال وإيواء أعداد كبيرة منهم، وتهيئة الظروف الملائمة لاندماجهم لاحقا في نسيج المجتمع العراقي.

وإذا ما قارنا وضع الإمبراطورية العثمانية التي كانت تغبط على اندماجها الاجتماعي والسياسي في القرن السادس عشر، وبالصورة التي انتهى إليها الحال في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فسوف نذهل للتلازم بين درجة التحلل والانحطاط وحجم الاختراق الغربي، وتنامي المسألة الطائفية[97]. التي ساهمت مضافة لعوامل أخرى في وضع خاتمة مأساوية لأسطورة الدولة العثمانية.

هوامش الفصل الثالث

(1) د. قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1990)، 57.

(2) رشيد الخيون، الأديان والمذاهب بالعراق، 181.

(3) نقلا عن الأب جان موريس فييه الدومنيكي، الآثار المسيحية في الموصل، ترجمة نجيب قاقو، (بغداد: مطبعة الطيف، 2000) 58.

(4) فهمي هويدي، مواطنون لا ذميون، 35.

(5) د. علي محمد الصلابي، دولة المغول والتتار بين الانتشار والانكسار، (بيروت: دار المعرفة، 20009)، 229.

(6) د. علي محمد الصلابي، دولة المغول والتتار بين الانتشار والانكسار، 253.

(7) فهمي هويدي، 36، وكذلك لويس ساكو، خلاصة تاريخ الكنيسة الكلدانية، 30.

(8) ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، ج2، 276.

(9) عبد الأمير الرفيعي، العراق بين سقوط الدولة العباسية...، 132.

(10) نقلا عن الأب موريس فييه الدومنيكي، الآثار المسيحية في الموصل، 59.

(11) رشيد الخيون، الأديان والمذاهب بالعراق، 182.

(*) كان هولاكو مطمئنا في زحفه إلى العراق بأنه مدعوم من بعض زعماء المسيحيين في الشرق مثل هيثوم ملك أرمينية الصغرى وبوهيمند السادس أمير أنطاكيا وطرابلس، وعندما اقترب من الشام خرج له مطران اليعاقبة ليقدم له فروض الطاعة، وعندما فتح المدينة أكثر فيها القتل والنهب في المسلمين، وتم إحراق الجامع الكبير في حلب في حين لم تمس كنيسة اليعاقبة، وحدث نفس الشيء في دمشق، ثم لاحقا في بغداد. انظر فهمي هويدي، مواطنو لا ذميون، 36.

(12) الأب موريس فييه الدومنيكي، الآثار المسيحية في الموصل، 63.

(13) ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، ج2، 276.

(**) لا يمكن لأي باحث منصف أن يعمم في الحكم على غالبية المسيحيين في الوقوف إلى جانب الصليبيين أو المغول، ويسوق بعض الباحثين أمثلة عديدة لوقوف المسيحيين إلى جانب المسلمين في الحروب الصليبية، فمثلما وقف السريان والأرمن معاونين الصليبيين في الاستيلاء على حلب وأنطاكية، ومثلما تطوع كثير من مسيحيي لبنان لخدمة الصليبيين والقتال

إلى جانبهم، فإن كثيرين منهم قد ناصر المسلمين وتطوع في جيوشهم، فقد اعترف الصليبيون في إحدى هزائمهم وحملاتهم بأنه كان من نصارى الشام من وقف إلى جانب المسلمين وخاشنوا الصليبيين، وهناك من يشير إلى مؤامرة عموري الأول ملك بيت المقدس مع بعض المسلمين للانقلاب على صلاح الدين الأيوبي، التي قام بإحباطها بعض أقباط مصر، وهناك من يشير إلى اتصالات بين صلاح الدين والمسيحيين العرب أثناء حصاره لبيت المقدس تعهدوا فيها بفتح أبواب المدينة له: انظر فهمي هويدي، مواطنون لا ذميون، 34.

(14) انظر ستيفن همسلي لونكريك وفرانك ستوكس، العراق منذ فجر التاريخ حتى ثورة تموز 1958، 67.

(15) د. خوشابا حنا الشيخ، الطوائف المسيحية في العراق، 85.

(16) د. بطرس حداد، كنائس بغداد ودياراتها، 129.

(17) جميل روفائيل، الآشوريون في العراق: من مجد آشوربينبال إلى حكم صدام، 4.

(18) عبد الأمير الرفيعي، 153–154.

(19) د. خوشابا حنا الشيخ، 85، وكذلك لويس ساكو، 31.

(20) رشيد الخيون، 183.

(21) بولص إيليا كجو، حقائق عن تيمور لنك، مجلة السراج، العدد 25–26، السنة السابعة، (2010)، 18.

(22) خوشابا حنا الشيخ، 85.

(23) ستيفن لونكريك وفرانك ستوكس، العراق منذ فجر التاريخ حتى ثورة تموز، 68.

(24) ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، (بيروت: دار الرافدين، 2003)، ط5، 113.

(25) ستيفن لونكريك وفرانك ستوكس، العراق منذ فجر التاريخ، 68.

(26) ستيفن لونكريك وفرانك ستوكس، العراق منذ فجر التاريخ، 68.

(27) ألبير أبونا تاريخ الكنيسة الشرقية، ج1، 343.

(28) عبد الأمير الرفيعي، 200–201.

(29) ستيفن لونكريك وفرانك ستوكس، 72.

(30) ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص 99.

(31) د. سيار الجميل، مؤتمر الولايات العربية والإمبراطورية العثمانية: الحياة الإدارية... الملل والأقليات... التنظيمات وبروز القوميات، مجلة المستقبل العربي، العدد 138، (1990)، 154.

(32) نقلا عن ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، 113.
(33) فالح عبد الجبار وهشام داود، الإثنية والدولة: الأكراد في العراق وإيـران وتركيا، ترجمة عبد الإله النعيمي، (بغـداد-بيـروت: معهـد الدراسـات الإستراتيجية، 2006)، 482.
(34) ستيفن لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص 113.
(35) د. جميل موسى النجار، التعليم العالي في العراق فـي العهـد العثمـاني الأخير: 1869-1918، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 2002)، 222.
(36) د. سلوى علي ميلاد، وثائق أهل الذمة في العصـر العثمـاني وأهميتهـا التاريخية، (القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1983)، 23.
(37) د. جميل موسى النجار، التعليم العالي في العراق فـي العهـد العثمـاني الأخير: 1869-1918، 223.
(38) د. جميل موسى النجار، التعليم العالي في العراق فـي العهـد العثمـاني الأخير: 1869-1918، 223.
(39) د. جميل موسى النجار، التعليم العالي في العراق فـي العهـد العثمـاني الأخير: 1869-1918، 227.
(40) د. جميل موسى النجار، التعليم العالي في العراق فـي العهـد العثمـاني الأخير: 1869-1918، 226.
(41) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 629.
(42) د. رشيد الخيون، الأديان والمذاهب بالعراق، 185.
(43) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 630.
(44) د. سيار الجميل، الأرمن العراقيون: الخصوصـية والجاذبيـة والأسـرار الحيوية، (الحلقة الأولى) مقال منشور على موقع إيلاف www.elaph.com في 17 أكتوبر 2010.
(45) د. سيار الجميل، الأرمن العراقيون: الخصوصـية والجاذبيـة والأسـرار الحيوية، (الحلقة الأولى).
(46) د. بطرس حداد، مسيحيو بغداد بين الماضي والحاضر، مجلة مسـارات، العدد 14، السنة الخامسة، (2010)، 157.
(47) د. سيار الجميل، د. سيار الجميـل، الأرمـن العراقيـون: الخصوصـية والجاذبية والأسرار الحيوية.
(48) د. سيار الجميل، الأرمن العراقيون: الخصوصـية والجاذبيـة والأسـرار الحيوية.
(49) د. خوشابا يوحنا الشيخ، 86.
(50) د. رشيد الخيون، 187.

(51) الأب جان موريس فييه الدومنيكي، الآثار المسيحية في الموصل، 72.
(52) د. سيار الجميل، الأرمن العراقيون: الخصوصية والجاذبية والأسرار الحيوية.
(53) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 635-636.
(54) تقرير مصور حول احتفالات زكريا على قناة الحرة في نشرة أخبار الثامنة بتوقيت بغداد في 4-3-2011.
(55) د.فدوى أحمد نصيرات، المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية في بلاد الشام ومصر (184-1918) سلسلة أطروحات الدكتوراه، (77) (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2009)، 47.
(56) رشيد الخيون، الأديان والمذاهب بالعراق، 188.
(57) رشيد الخيون، الأديان والمذاهب بالعراق، 189.
(58) د. فدوى نصيرات، المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية في بلاد الشام ومصر، 45.
(59) رشيد الخيون، الأديان والمذاهب بالعراق، 189.
(60) د. فدوى نصيرات، المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية في بلاد الشام ومصر، 48.
(61) د. فدوى نصيرات، المسيحيون العرب وفكرة للقومية العربية في بلاد الشام ومصر، 62.
(62) د. جميل موسى النجار، التعليم العالي في العراق في العهد العثماني الأخير: 1869-1918، 224.
(63) جان سليمان، الكنيسة اللاتينية في العراق: لمحة عن مؤسساتها، مجلة صدى النهرين، العدد 7، السنة الرابعة، (2008)، 29.
(64) رشيد الخيون، الأديان والمذاهب بالعراق، 190.
(65) د. فدوى نصيرات، المسيحيون العرب وفكرة للقومية العربية في بلاد الشام ومصر، 63.
(66) المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية في بلاد الشام ومصر، 64.
(67) نقلا عن فهمي هويدي، مواطنون لا ذميون، 39.
(68) أورخان محمد علي، السلطان عبد الحميد الثاني: حياته وأحداث عهده، (القاهرة: دار النيل، 2008)، 248.
(69) أورخان محمد علي، السلطان عبد الحميد الثاني: حياته وأحداث عهده، 249.
(70) فهمي هويدي، مواطنون لا ذميون، 40.
(71) د. سيار الجميل، الأرمن العراقيون.

(72) د. فدوى نصيرات، 49.
(73) فدوى نصيرات، ص 49.
(74) أفرام سقط، موقع كنيسة العراق من الحركة المسكونية، 356.
(75) د. وجيه كوثراني، السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، سلسلة أطروحات الدكتوراه، (13) (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1988)، 69-70.
(76) د. فالح عبد الجبار وهشام داود، الإثنية والدولة، 476.
(77) فهمي هويدي، 41.
(78) فهمي هويدي، 42.
(79) د. فدوى نصيرات، 50.
(80) فهمي هويدي، 42.
(81) بولس وسيم، تاريخ الكنيسة المفصل، ترجمة أنطوان الغزال، وصبحي حموي اليسوعي، (بيروت: مكتبة الشرق، المجلد الثالث، 2002)، 151.
(82) د. فدوى نصيرات، 51.
(83) بولس باسيم، تاريخ الكنيسة المفصل، 152.
(84) د. جميل موسى النجار، 258، وقارن مع أفرام سقط موقع كنيسة العراق من الحركة المسكونية، 306.
(85) ميتشيل دي نيتينار، الآباء الكرمليون في بغداد، مجلة نجم المشرق، العدد 18، السنة الثانية، (1999)، 213.
(86) د. طارق الحمداني وكريم الفرج، الإرساليات التبشيرية المسيحية وأثرها في نهوض الثقافي في العراق، مجلة مسارات، العدد 14، السنة الخامسة، (2010)، 88.
(***) كان أتباع المذهب الكاثوليكي في العراق يشكلون أقلية عددية بالقياس إلى المذهب الأرثوذكسي السائد تاريخيا في العراق، إلا أن ازدياد نشاط الإرساليات التبشيرية في العراق منذ منتصف القرن السابع عشر، قد قلب المعادلة حينما تحول غالبية مسيحيي العراق إلى الكاثوليكية بفضل الجهود الفرنسية والإيطالية، وتحولت الأرثوذكسية إلى المرتبة الثانية بسبب غياب التأثير والنفوذ الروسي نتيجة حروب روسيا المستمرة مع الدولة العثمانية.
(87) د. سهيل قاشا، 621، وانظر كذلك ميخائيل الجميل، تاريخ وسير: كهنة السريان الكاثوليك من 1750-1985، (بغداد: مطابع حبيب إخوان، 1986).
(88) د. سهيل قاشا، 622.
(****) رغم الانتقادات التي توجه إلى نشاط الإرساليات التبشيرية، لا يمكن في المقابل إغفال دورها في تطوير الحياة العلمية في العراق حيث جلبت

معها المدارس التي أنشأتها تلك الإرساليات تطورا نوعيا في أساليب التدريس ومواده، وفي الوقت الذي ركزت على تدريس العربية والتركية فإنها أدخلت تدريس اللغات الأوروبية كما أدخلت الرسم والتصميم والحرف اليدوية، وكانت أوضاع المدارس التبشيرية أفضل بكثير من المدارس الحكومية التي كانت تعاني النقص والإهمال في جميع النواحي. لقد تخرج في تلك المدارس شخصيات مهمة لعبت دورها في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية العراقية في مطلع القرن العشرين. د. طارق نافع الحمداني وكريم الفرج، الإرساليات التبشيرية المسيحية وأثرها في النهوض الثقافي في العراق، 88.

(89) د. فدوى نصيرات، 52.

(90) د. دهام محمد العزاوي، الأقليات والأمن القومي العربي، 64.

(91) د. دهام محمد العزاوي، الأقليات والأمن القومي العربي، 65.

(92) د. سهيل قاشا، 622.

(93) د. جمال موسى النجار، 227.

(94) د. سهيل قاشا، 627.

(95) بولس باسيم، تاريخ الكنيسة المفصل، 178.

(96) د. سهيل قاشا، 624، وانظر كذلك المطران ميخائيل الجميل، السلاسل التاريخية في أساقفة الأبرشيات السريانية من 1900-2003، (الموصل: مطابع الموصل 2003).

(97) د. نيفين عبد المنعم مسعد، الأقليات والاستقرار السياسي في الوطن العربي، (القاهرة: مركز الأهرام للدراسات السياسية، 1988)، 49.

(98) فهمي هويدي، مواطنون لا ذميون، 42.

الفصل الرابع

المسيحيون في ظل الحكم الوطني العراقي

أولا: المسيحيون في العهد الملكي

بعد اندحار العثمانيين في الحرب العالمية الأولى (1914-1918)، وتفكك إمبراطوريتهم العتيدة، ولد العراق الحديث وبحكومة وطنية رأسها الملك الهاشمي فيصل الأول ابن الحسين في 23 آب/أغسطس 1921، ومع أن الملك ذا الميول القومية حاول جهده السير بسفينة الدولة العراقية إلى شاطئ الاستقرار والوحدة، فإن عوامل كثيرة حالت دون نجاحه في مسعاه للتخلص من الانقسام العشائري والتناقض المذهبي، والتخلف الاقتصادي التي صاغتها ظروف الحقبة العثمانية ومرحلة الاستعمار البريطاني، ولم تفلح دبلوماسية الملك فيصل وحنكته السياسية في جذب الفئات الاجتماعية المتوجسة، ولا سيما الأكراد إلى مشروعه السياسي الرامي إلى خلق هوية عراقية واحدة، ولذلك ظل يصرح في مناسبات متعددة: بأن مهمة التوفيق بين العراقيين ليست بالهينة، وإقامة توازن وتفاعل بين مكوناته الرئيسة، لا سيما السنة والشيعة والأكراد، هي مهمة عسيرة[1]. ففي إحدى مذكراته إلى مجلس الوزراء عام 1931، تناول الملك فيصل الأول المشاكل القومية والطائفية التي يعاني منها العراق، فالعراق وفق تصوره (من جملة البلدان ينقصها أهم عنصر من عناصر الحياة الاجتماعية ذلك هو الوحدة الفكرية والملية والدينية، فهي

والحالة هذه مبعثرة القوى، منقسمة على بعضها، ويحتاج ساستها إلى أن يكونوا حكماء مدبرين وفي عين الوقت أقوياء مادة ومعنى، وعلى جانب كبير من الاحترام لتقاليد الأهالي، ولا ينقادون لتأثيرات رجعية أو أفكار متطرفة تستوجب ردة الفعل)[2].

ومع ذلك لم يمنع التنافس أو الصراع السياسي بين الفئات الكبيرة من أن تكون هناك فسحة واسعة للتعايش الاجتماعي بين فئات العراق المختلفة بعيدا عن صراعات السياسيين وتجاذباتهم، ولا سيما للجماعات التي لم يكن لها ثقل سياسي كبير كالمسيحيين الذين آثروا البروز في الساحة العراقية من خلال العمل والمثابرة وإثبات الذات عبر النشاطات الاجتماعية والتعايش السلمي والإبداع في المهن والتخصصات العلمية والتجارية. وعدى عن مشكلة الآثوريين عام 1933، فإن المسيحيين لم يكن لهم أي نشاط سياسي مميز عبر حزب أو منظمة خاصة بهم. كما لم يتورط المسيحيون في أحداث سياسية ولم يساندوا حزبا أو جهة معينة على حساب جهة أخرى، ولم يشتركوا في حرب طائفية ضد الآخرين مثلما حصل في لبنان. وإذا كان العهد العثماني قد شهد تجمع المسيحيين وانحسارهم جغرافيا في بعض المناطق الخاصة بهم في بغداد والموصل بسبب نظام الملة العثماني وطبيعة الواقع العشائري الذي ساد العراق آنذاك، فإن قيام الحكم الوطني في العراق قد دفع إلى خروج المسيحيين من عزلتهم المناطقية إلى كل محافظات العراق، ودون تحفظ في العيش مع المسلمين[3]. كما لم تكن للمسيحيين أي نوازع سياسية بانفصال أو حكم ذاتي يعبر عن خصوصياتهم الدينية أو الثقافية، عدا حادثة أو مذبحة الآثوريين أو الآشوريين التي حصلت في تموز 1933، والتي أحجم غالبية المسيحيين عن تأييدها.

وفي الأسطر التالية سنسلط الضوء، باختصار شديد، على أبعاد تلك المشكلة، التي استقطبت في حينها اهتماما سياسيا وإعلاميا لا يزال البعض يتناوله من زوايا مختلفة، ومن المهم الإشارة إلى أن مشكلة الآشوريين اعتبرت في حينها من أهم تركات نظام الملة العثماني الذي أعطى للجماعات الدينية نوعا من الاستقلال الذاتي تحت سلطة البطريرك الروحية، إذ بقي التمسك بهذه الفكرة من أهم أسباب الخلاف مع الحكومة العراقية حديثة النشأة لا سيما مع بطريرك الآثوريين المتحمس المار شمعون[4]. وكانت السلطات البريطانية قد جاءت بالآشوريين في فترة احتلالها العسكري للعراق من مناطقهم الأصلية في ولاية وان في الأناضول الشرقية عند جبل حكاري بعدما فتك الجيش العثماني بهم وبالأرمن بعد وقوفهم إلى جانب القوات الروسية، وقوات الحلفاء في الحرب العالمية الأولى عام 1915[5].

وقد سعت بريطانيا إلى إسكانهم أول الأمر في مخيمات خاصة في مدينة بعقوبة شرق العراق، ووفرت لهم سبل الحماية العسكرية بهدف توظيفهم لاحقا، لتحقيق أهدافها السياسية في العراق[6]. ومنذ قيام الحكم الوطني الملكي في العراق، نظر الآثوريون إلى ذلك الحكم نظرة توجس، وعدم ترحيب بسبب مخاوفهم من زوال الحماية البريطانية، وعلى نحو يشجع خصومهم الأكراد من الانتقام منهم، فضلا عن أن قيام دولة عربية سيعيدهم حسب اعتقادهم إلى خلفيات العداء المترسب في ذاكرتهم مع العثمانيين المسلمين[7]. من جهة ثانية فإن العراقيين، عربا وأكرادا، لم ينظروا إلى الوجود الآثوري في العراق نظرة القبول، فالمشاعر الوطنية كانت ترفض قبولهم، لأنهم في رأي الغالبية العراقية كانوا أدوات بيد الإنجليز لضرب الحركة الوطنية،

وتثبيت أقدام المصالح البريطانية في العراق[8]. وقد ساعد على تثبيت هذه الفكرة، وبالتالي زيادة النفرة من الآثوريين ما قامت به قوات الليفي الآشورية، وهي مليشيات مسلحة قامت بريطانيا بتشكيلها وتدريبها، من دور بارز في ضرب العشائر الكردية في الشمال، وقمع الحركة الوطنية في عموم العراق، وذلك رغم أن قبائل آشورية عديدة كانت تعارض السياسة البريطانية في استخدام الليفي[9]. فضلا عن توظيفها في قمع حركة العشائر العربية في لواء ديالى وقضاء تلعفر إبان ثورة العشرين، وما رافق عمليات القمع هذه من أعمال انتقامية بسبب القسوة والعنف الذين عرفت بهما مليشيات الليفي[10] وفي مثل هذه الأجواء المشحونة بالتوتر حاول الملك فيصل بقيادته الحازمة والحكيمة أن يجد حلا لمشكلة الآثوريين عبر توطينهم وحل مشاكلهم مع الجماعات الأخرى، وكان يسعى بحسن التدبير وقوة الإقناع، وإشاعة روح الثقة أن يكبح جماح الآثوريين وزعيمهم المندفع المارشمعون، ليكونوا أكثر واقعية، ويقبلوا العيش مواطنين عراقيين، وقد تجشم ولأكثر من مرة عناء السفر إلى شمال العراق ليقنع البطريرك الآثوري والنافذين من طائفته بتليين مواقفهم والتخفيف من غلوائهم[11] وكادت جهوده تؤتي أكلها لولا اندفاع الأمير غازي وحكومة رشيد عالي الكيلاني التي تبنت منهج المصادمة مع الآثوريين عبر حادثة سميل المعروفة في تموز 1933 مستغلين سفر الملك فيصل إلى الخارج، حيث اشتبك فيها المسلحون الآثوريون مع الجيش العراقي بقيادة الفريق بكر صدقي، مما أسفر عن سقوط مئات الضحايا من الآثوريين[12]. وبعد شهرين من الحادثة توفي الملك فيصل الأول في سويسرا، إلا أن الآثار السياسية والإنسانية لتلك الحادثة ظلت مستمرة طيلة عهد الملك غازي والمراحل اللاحقة، ورغم ما رافق

تلك الحادثة من تحشيد سياسي وتضخيم إعلامي من مختلف الأطراف، فإن الطوائف المسيحية في العراق لم تنسق وراء الدعاية التي صورت قتل الآثوريين على أنه استهداف لعموم المسيحيين في العراق، ربما بسبب عدم رغبة المسيحيين في اصطناع مشكلة تعكر اندماجهم السلمي في المجتمع، أو لاقتناعهم بالدعاية التي سادت آنذاك، التي ركزت على أن الآثوريين هم جماعة وافدة جلبتها بريطانيا في الحرب العالمية الأولى لحماية مصالحها في العراق[13]. وأنهم أقلية مسيحية نسطورية المذهب لا يتفق غالبية المسيحيين على تخريجاتهم اللاهوتية حول طبيعة السيد المسيح[14].

وبشكل عام، ورغم أن الأجواء النفسية والسياسية التي خلقتها مشكلة الآثوريين التي دفعت بعض المسيحيين إلى الانكماش، فإن نسبة كبيرة منهم آثرت الاستمرار في سياسة التعايش والانغماس في ميدان العمل السياسي والاجتماعي والاقتصادي في المجتمع العراقي، ولهذا شهدت الفترة اللاحقة مشاركة سياسية واسعة للمسيحيين تمثلت بانضواء شخصيات هامة في الأحزاب العراقية، ولا سيما الحزب الشيوعي العراقي، نذكر منهم على سبيل المثال الناشط العمالي الأرمني أراخاجادور الذي كان له دور متميز في الحركة العمالية العراقية، فضلا عن الناشط سركيس بدروسيان الذي ظل يردد باستمرار مقولته الوطنية (أنا عراقي أرمني، ولست أرمنيا عراقيا)[15]. في تأكيد منه على إنتمائه أولا إلى العراق الذي ولد فيه وتشرب قيمه وثقافته الجامعة.

إن انضمام المسيحيين إلى بعض الأحزاب السياسية في العهد الملكي لم يجعلهم في تصادم مع أي نظام أو حكومة عراقية، إذ لم يشهد تاريخ العراق الملكي قيام مسيحيين بقيادة جبهة وطنية معارضة

أخلت بالنظام العام، إذ كان هدفهم المشاركة في الحياة السياسية العامة ومن ثم إيجاد حيز للوجود المسيحي في العراق بإطار وطني وليس بإطار جهوي أو فئوي. لقد كان توجه الحكومات الملكية العراقية عدم استبعاد طرف سياسي أو اجتماعي من معادلة السلطة ومحاولة تمثيله في الحكومات العراقية بحسب ثقله ووزنه السياسي والاجتماعي، ولهذا لم يستثن المسيحيون من أغلب الوزارات العراقية المشكلة في العهد الملكي، بل إن بعضا منهم كانت له أدوار سياسية مؤثرة وكلمة مسموعة، في مقدمتهم الشخصية العراقية داود يوسفاني، الذي لعب دورا هاما أيام الاتحاديين وبدايات العهد الملكي، فكانت له مكانة سياسية هامة[16].

ولعل الدكتور حنا خياط في مقدمة المسيحيين الذين خدموا في العهد الملكي، حيث تولى أول وزارة صحة في العراق عام 1921، واحتل الدكتور يوسف غنيمة مركزا مرموقا في المجتمع العراقي، فهو أديب وسياسي واقتصادي بارع تقلد الكثير من المناصب الهامة في مقدمتها وزارة المالية لست مرات، ووزارة التموين مرتين للفترة من 1929 حتى 1947 حينما تفرغ لشغل منصب بطريرك الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية، حيث تمكن من نقل مقرها من الموصل إلى بغداد سنة 1950، ليكون قريبا من الحكومة وامتيازاتها[17].

ومن الشخصيات المسيحية في العهد الملكي المناضل الشهير نيقولا عبد النور، الذي انخرط في شبابه بصفوف جمعية العهد العربية المقارعة للاتحاديين وسياسة التتريك التي اتبعوها في العراق والولايات العربية، وراح يعمل بحماس متميز للمطالبة بحقوق العرب واستقلالهم، فسجن، وكابد الكثير من الاضطهاد إلى حين قيام الحكم الوطني، حيث أسلم وسمى نفسه ثابت عبد النور، وعين سفيرا للعراق

في المملكة العربية السعودية، وحاز على أوسمة كثيرة، تقديرا لجهوده الوطنية ومواقفه السياسية الفاعلة[18].

ومن الشخصيات الوطنية المسيحية البطريرك عمانوئيل توما (1900-1947) الذي كانت له مواقف وطنية مشهودة، فمما يؤثر عنه أنه اتخذ موقفا صلبا أمام القائد البريطاني ليحمان حينما استدعاه الأخير وأبدى له رغبة الحكومة البريطانية بإنشاء دولة للمسيحيين في شمالي العراق، إذ رفض البطريرك ذلك العرض رفضا قاطعا، مصرا على ضرورة إنشاء دولة لجميع العراقيين مسلميهم ومسيحييهم، مما حمل القائد البريطاني إلى نفيه إلى الهند، وحينما علم العراقيون المسلمون بموقفه الوطني الشجاع هبوا لنصرته فأعادوه معززا مكرما زعيما وطنيا، وكان أن تعين البطريرك لاحقا عضوا دائما في مجلس الأعيان العراقي[19].

ومن الشخصيات المسيحية التي يشار لها بالبنان الخوري يوسف الخياط (1903-1947) الذي ولد في الموصل وأجمع الموصليون على علو مكانته في المجتمع فانتخبوه عضوا في مجلس النواب، ومن مواقفه الوطنية دفاعه المستمر عن الدولة العراقية الفتية، وقد عينه الملك فيصل الأول مستشارا له[20]. ومن الشخصيات السياسية البارزة إسكندر ستيان ماركاريان الذي انتخب عام 1947، في البرلمان العراقي ممثلا لجميع المسيحيين في العاصمة بغداد.

أما في الوزارات العراقية فقد اشترك المسيحيون بقوة وكلاء ومستشارين وخبراء، في حين ساهم الكثير منهم بأدوار هامة في التأسيس أو الانخراط في أحزاب عراقية متنوعة الاتجاهات، خصوصا الحزب الشيوعي العراقي، نذكر منهم يوسف سلمان الملقب (فهد) مؤسس الحزب، وقياديين شيوعيين آخرين مثل جميل توما ونوري

روفائيل، وكركور آكوب بدروسيان، وثلاثتهم من خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت، وهناك يوسف الصائغ وداود الصائغ وكامل قزانجي وغيرهم بالعشرات(21).

لم يقتصر الاندماج المسيحي على الجوانب السياسية، وإنما شمل معظم نواحي الحياة التي أبدع فيها المسيحيون، وتركوا بصماتهم التي لا تزال كتب التاريخ تذكرها بإعجاب، فمن الشخصيات الفكرية والأدبية التي نذكرها هنا الأديب الصحفي الأب أنستاس الكرملي، ولويس مرمرجي والمطران سليمان صائغ، وشقيقه المحامي نجيب صائغ، والمحامي جرجيس فتح الله، وفؤاد سفر والباحث المبدع كوركيس عواد، وشقيقه ميخائيل، ويعقوب سمعاني وجبران ملكون ومطبعته وجريدته (الأخبار)(22). فضلا عن الشخصية البغدادية المشهورة الأب بير ماري والمعروف بالباتري بيير الذي اقترن اسمه بالأعمال الخيرية والإنسانية المختلفة(23). ولا يخفى على أحد الدور الذي مارسته هذه الشخصيات الفكرية والأدبية في تأسيس الجمعيات والمجلات، التي غذت المجتمع العراقي بالوعي الثقافي طيلة سنوات، ولعل في مقدمة تلك المجلات مجلة الأعيان، ومجلة العمل في 1905، ثم مجلة زهيرة بغداد 1905 عن الآباء الكرمليين، ومجلة لغة العرب لأنستاس الكرملي، ثم لحقتها مجلة نشرة الأحد في 1922، ومجلة النجم الكلدانية، ومجلة المشرق 1946، ثم مجلة النور في بغداد، حيث كانت تلك المجلات ميدانا شجع الشباب المثقف على الكتابة في مختلف المواضيع الدينية والأدبية وفي الشعر والتربية والتاريخ والآثار وغيرها(24).

كما أن من الأسماء المسيحية الأرمنية الهامة التي خدمت في العهد الملكي ديكران أيكماكجيان الذي كان رئيسا لأمناء صندوق

السكك الحديدية، وهناك مسؤول أرمني آخر هو إبكار هوفهانيسيان الذي نصب مديرا عاما للمواصلات، ونظير خدماته وإبداعاته منح وسام الرافدين من الدرجة الثالثة، وكان فاهي سيفيان مسؤولا ماليا في بغداد أثناء حكم الدولة العثمانية، ونصب في خمسينيات القرن الماضي مفتشا للري العام في بغداد، وقد أسهمت جهوده الممتازة والإجراءات الطارئة التي اتخذها في إنقاذ العاصمة بغداد وضواحيها من أسوأ فيضان تعرضت له في العام 1954[25].

وفي مجال الفكر والأدب، يبرز الكاتب والباحث القدير يعقوب سركيس الذي كان ضليعا في تاريخ العراق الحديث، ويقال إنه المؤلف الحقيقي لكتاب ستيفن همسلي لونكريك المشهور (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث). وهناك الكاتب المعروف ليفون شاهويان، والكاتب باكين بابازيان، فضلا عن الوزير والمثقف والمترجم القدير يوسف عبد المسيح الذي جاء إلى العراق مع طاقم الملك فيصل الأول، وكان من رجال الفكر والمعرفة، ووضع القاموس العسكري ومؤلفات أخرى، وترجم كتبا عسكرية عدة لوزارة الدفاع العراقية[26]. وهناك العشرات من الشخصيات المسيحية المبدعة التي لا يسع المجال لذكرها في مجالات القانون والطب والموسيقى والصحافة والرياضة والعلوم الإنسانية والطبيعية.

وطيلة العهد الملكي استجاب مسيحيو العراق لكل قوانين البلاد، وساهموا مع إخوانهم المسلمين في نهضة البلاد وتقدمها، ولم يتوان أبناؤهم عن أداء الخدمة العسكرية ودفع الضرائب والمشاركة في المهمات الوطنية التي تلقى على عاتقهم. ورغم أن غالبية المسيحيين لم يشتركوا في تمرد الآثوريين عام 1933، ولم يدعموه فإن ذلك التمرد قد ولد حالة نفسية وسلوكية دفعت بعضا منهم

للانكماش والتوجس من المشاركة السياسية، وكثيرا ما باتوا يتبنون مواقف حيادية من الأحداث السياسية والاجتماعية التي حصلت في العراق لاحقا، من أجل اتقاء شرور السلطة ومهالكها، لا سيما بعد التحولات السياسية الساخنة التي حدثت إثر انقلاب 1958[27].

ثانيا: المسيحيون في العهود الجمهورية

بعد سقوط النظام الملكي في العراق تموز/يوليو 1958، وقيام النظام الجمهوري بزعامة عبد الكريم قاسم، انقسم المسيحيون بين مؤيد للتغيير الجديد ومعارض له، لا سيما من تلك الطبقات المسيحية المتنفذة سياسيا واقتصاديا وإداريا، التي وجدت في تغيير النظام الملكي انهيارا لامتيازاتها ونفوذها. ومع ذلك شكل انحياز عبد الكريم قاسم لحقوق الفقراء، وقيامه بالإصلاحات التي رفعت من مستوى الطبقات الكادحة[28] عامل جذب لكثير من المسيحيين الفقراء للانخراط في الحركات السياسية الثورية، ولا سيما الحزب الشيوعي، حيث أصبحوا مقاومة شعبية، وكان لهم دورهم المؤثر في بعض الأحداث الهامة التي حصلت في الساحة العراقية. ومن المهم الإشارة إلى أن من بين قافلة الضباط المتمردين الذين ثاروا لاحقا على عبد الكريم قاسم في إعلام 1959، كان هناك ضابط مسيحي يدعى إسماعيل هرمز، حيث أعدم مع جماعة الضباط القوميين الذين تزعمهم العقيد عبد الوهاب الشواف[29].

لقد كانت فترة الزعيم عبد الكريم قاسم عاصفة بعدم الاستقرار السياسي، إذ تخللتها صراعات حزبية وشخصية ومحاولات انقلابية فاشلة[30]. انعكست على الواقع المسيحي، حيث أحجم كثير من الشخصيات المسيحية عن المشاركة في العمل السياسي مفضلة

الانغماس في العمل التجاري والاقتصادي، فظهرت شخصيات مسيحية مؤثرة في الاقتصاد العراقي آنذاك، نذكر منهم الثري ورجل الأعمال (كالوست كولبنكيان) الذي قدم للعراق خدمات جليلة، إذ كان يحتفظ كولبنكيان بنسبة 5% من مجموع أسهم شركات النفط التي طورها، وهي حصته من الأراضي التي كان يمتلكها في كركوك، التي غدت حقولا نفطية منذ العهد العثماني، وكانت له حصة 5% من أسهم شركة النفط العراقية (I.P.C) وقد أنشأ كولبنكيان العديد من المؤسسات الخيرية التي اهتمت ببناء المشاريع الثقافية والفنية في العراق، وكان للعراق نصيب وافر منها، حيث بني الكثير من الصروح العمرانية منها ملعب الشعب الدولي، وملعب كركوك، وقاعة الشعب في بغداد، كما منحت مؤسسته الخيرية المئات من الزمالات الدراسية للطلبة في العراق وبغض النظر عن ديانتهم وقوميتهم أو طائفتهم، وقد استفاد عدد كبير من الطلبة العراقيين من هذه الزمالات، ومنهم من وصل إلى مناصب رفيعة في الدولة، كما ساهمت مؤسسة كولبنكيان في بناء الكثير من المدارس والمستشفيات والكنائس، ومنها القسم الجديد لمدرسة الأرمن المتحدة الأهلية والمستوصف الملحق بها عام 1962. وقبلها تم بناء كنيسة الأرمن في بغداد وغيرها من المشاريع الخيرية[31].

ومع تصاعد الصراعات السياسية والعرقية التي خيمت على العراق بعد الإطاحة بالنظام الملكي، تصاعدت معاناة المسيحيين السياسية، لا سيما منذ أواخر العام 1960، أي مع اندلاع حركة التمرد الكردي من جديد وما صاحبها من عمليات حربية واعتداءات طالت المدنيين ومناطق سكناهم، ولأن نسبة كبيرة من المسيحيين يسكنون المناطق الكردية أو بمحاذاتها، أصابتهم ويلات المعارك الدائرة

بين الجيش العراقي وقوات البيشمركة الكردية، وهو ما وضعهم في مواقف صعبة اضطرت نسبة منهم إما للنزوح من قراهم أو الالتحاق بعناصر البيشمركة، أو مليشيا الفرسان التي شكلتها الحكومة العراقية لمساعدة الجيش في حملاته ضد المليشيات الكردية، في حين اضطر القسم الأكبر من مسيحيي سهل نينوى في قضاء عقرة وحرير وراوندوز وشقلاوة إلى النزوح، فتفرقوا في بغداد والمدن الرئيسة الأخرى، ثم هاجر من تمكن منهم إلى دول أجنبية ولا سيما الولايات المتحدة وأستراليا وكندا[32].

ويشير البعض إلى أن وضع المسيحيين في العراق بدأ يزداد صعوبة بعد الانقلاب على نظام عبد الكريم قاسم في شباط/فبراير 1963، إذ كان نصيب المسيحيين من الأذى كبيرا في مجال الاعتقالات والملاحقات، التي جرت ضد من اعتبروا من مؤيدي نظام عبد الكريم قاسم، إلى حد أن بعض المتطرفين المشاركين في الانقلاب أخذوا يروجون لمقولة إن كل مسيحي هو شيوعي يجب اعتقاله، واستمر الأمر صعودا ونزولا في عهدي عبد السلام عارف وأخيه عبد الرحمن عارف انطلاقا من مدى سخونة الأحداث المحلية ومزاج الحكام، حتى انقلاب حزب البعث واستلامه السلطة في تموز/يوليو 1968[33].

ومع استلام حزب البعث السلطة في العراق، سعى عمليا وواقعيا لحل مشكلة التنوع القومي والديني في العراق، وتوفير الحرية الضرورية للقوميات والأعراق العراقية والحفاظ على خصوصياتها، وإتاحة المجال لها للتعبير عن هوياتها الفرعية ضمن الأطر الوطنية العراقية، فأصدر المكتب الثقافي التابع للقيادة القومية للحزب وعقب صدور بيان آذار/مارس 1974، للحكم الذاتي في كردستان، دراسات

هامة في هذا الشأن، لعل أهمها الكراس المعنون (البعث والموقف من الأقليات القومية) تضمن وجهة نظر عملية لمسألة التعدد القومي والديني، وقد سبق تلك الدراسات اعتراف رسمي بوجود الأقليات القومية والدينية في الدستور المؤقت الذي أصدرته الحكومة العراقية في 16 تموز/يوليو 1970، حيث اعترف في المادة (5) من الباب الأول بالحقوق المشروعة للأقليات، وضرورة حمايتها وتطويرها[34].

وتأسيسا على ذلك سمح حزب البعث بتولي المناصب الإدارية في المناطق الكردية والتركمانية والآشورية المسيحية لأشخاص ينتمون إلى تلك الجماعات، لا سيما بعد الاتفاق الذي أعلن في آذار/مارس 1970، بين حكومة البعث والحركة الكردية بزعامة ملا مصطفى البارزاني، الذي أقر بالحكم الذاتي للأكراد في شمالي العراق[35]. كما اعترفت حكومة البعث بالخصوصية الدينية للمسيحيين في العراق، فأصدرت في العام 1970 قانون تشكيل اللجنة المركزية للطائفة الآثورية النسطورية الذي أعطى للمسيحيين، على اختلاف طوائفهم، الحق في انتخاب ممثليهم لإدارة شؤونهم الدينية، وما يتعلق بأمور أحوالهم الشخصية والعائلية وإدارة الكنائس، وبادرة لحسن النية أصدر مجلس قيادة الثورة في نيسان/أبريل 1972 مرسوما يقضي بالسماح للبطريرك الآثوري مار شمعون بالعودة للعراق وإبطال كل القرارات والإجراءات المتخذة ضده على خلفية تمرد الآثوريين عام 1933 وإعادة الجنسية العراقية إليه[36]. وتعزيزا لنهجها السلمي أصدرت الحكومة العراقية في نيسان/أبريل 1972 قرارا بمنح الناطقين بالسريانية من الآثوريين والكلدان والسريان الحقوق الثقافية المتعلقة بحقهم في إنشاء المدارس والنوادي والجمعيات الخاصة بهم، وأعقب ذلك القرار تأسيس العديد من الجمعيات والأندية الثقافية والفنية

والأدبية ومجمع للغة السريانية ضمن نطاق المجمع العلمي العراقي، فضلا عن تأسيس إذاعة ناطقة باللغة السريانية ومجلات باللغتين العربية والسريانية[37]. وفي 25-6-1972، صدر قانون تأسيس مجمع اللغة السريانية هيئة مستقلة ماليا وإداريا، ويديره ديوان رئاسة، ويمثله وزير التعليم العالي أمام الجهات المختصة، ويكون مركزه في بغداد ويهدف إلى النهوض باللغة السريانية وتعليمها وتدريسها في المدارس الابتدائية والثانوية وتدريس آدابها في الجامعة، وإحياء تراث السريانية الأدبي والحضاري، ونشر اللغة السريانية الفصحى والدعوة إلى التأليف والترجمة في موضوعات يختارها المجمع، وتقديم العون المالي للباحثين والمؤلفين والمترجمين السريان[38]، وصدر في 1972/9/13 قرار مهم يتعلق بإعادة تخطيط الحدود داخل الوحدات الإدارية (محافظات) وفي الأماكن التي تقطنها الأقليات القومية والدينية العراقية، وبما يضمن تجمع أبناء كل أقلية قومية ودينية في وحدة أو وحدات إدارية تخصص لهم داخل الوحدة الإدارية أو المحافظة بهدف تمكينهم من ممارسة حقوقهم الثقافية المشروعة. وفي 1972/12/25، صدر قرار حكومي بالعفو العام عن كل الجرائم التي ارتكبها الآثوريون المرتبطون بالحركة الآثورية سنة 1933، وإعادة الجنسية العراقية للمهاجرين منهم خارج العراق[39].

لكن من الواضح أن تلك القرارات، وفق رأي البعض، لم تكن سوى أكثر من قرارات نظرية هدفت إلى تلميع صورة الحكومة العراقية وإظهارها بمظهر المدافع عن حقوق الأقليات الدينية والقومية والضامن لحقوقهم الثقافية. إذ بقيت تلك القرارات فاقدة للروح العملية الدافعة لتفعيلها، وبث الحياة فيها، ففي ما يتعلق بتدريس اللغة السريانية فإنه لم يتم تبن أي خطوات فعلية لتدريسها في أي مرحلة

دراسية، وجرى لاحقا حل اللجان التي شـكلت لتـأليف الكتـب المدرسية السريانية بعدما أنجزت هذه اللجان كتابا واحـدا للصـف الأول الابتدائي واكتمل طبعه[40].

وتأسيسا على هذه الخطوة اتخذ في العام 1974 قرار يتعلق بتأميم وإغلاق المدارس الأهلية المسيحية، ودمجها بالمدارس الحكوميـة دون مراعاة للخصوصيات الدينية والثقافية، رغم أن تلك المدارس تعمـل ضمن مناهج وزارة التربية، وتخضع في مسؤولياتها لمديريات التربية في العراق وأجهزة الرقابة والتفتيش عليها، لقد ظل هذا القرار سـاري المفعول حتى العام 2003 حيث عادت الحياة للمـدارس المسـيحية الخاصة[41]. أما عن البرامج الإذاعية والتلفزيونية فقد استحدثت بمدة لا تتجاوز النصف ساعة يوميا، ولم تكن حسب وصف أبرم شـبيرا (أكثر من بوق لسياسة الحزب والنظام الحاكم)[42] أما قرار العفو عن الآشوريين فكان دعائيا وضئيل التأثير على أرض الواقع، لأن أكثـر من 95% من المشاركين في الحركة الآثورية كانوا قد توفـوا، ومـن بقي منهم أصبح كبير السن ومستقرا في بلدان أخرى.

أما قرار إعادة تخطيط الحدود فإنـه لم ينفـذ قـط للمنـاطق المسيحية، وفيما يتعلق بالنوادي والجمعيات الثقافية فقـد وافقـت الحكومة على ترخيص ما يقارب 25 ناديا أهليا في أنحـاء العـراق، وكانت ذات نشاط اجتماعي جيد، ولكن منذ 1979، جرى التضييق عليها حتى دمجت بعضها ببعض، وأصبح عددها لا يتجاوز العشـرة، وبعد العام 1988 لم يبق منها سوى خمسة نواد جردت مـن كـل نشاط، واضطرت إلى إنهاء وجودها.

أما فيما يتعلق بمجمع اللغة السريانية فقد كان فعالا في السنوات الأولى من تأسيسه في إقامة المهرجانات ونشر الكتب وإصدار المجلات

الدورية، لكنه لم يسلم بعد حين من التلاعب الحكومي به، حيث قلصت صلاحياته بالتدريج وألغيت صفته المستقلة بذرائع مختلفة، ونقل عام 1985 إلى مبنى المجمع العلمي العراقي ليصبح هيئة تابعة له، وبذلك أصبح نشاطه مجمدا من الناحية الفعلية[43].

ويرى بعض المحللين أن سبب الموقف السلبي من المسيحيين لم يكن نابعا من أسباب دينية بقدر تعلق الأمر بأسباب سياسية تمثلت في هيمنة النخب العسكرية على صنع القرار السياسي في العراق، لا سيما في مطلع السبعينيات، وذلك بسبب اشتداد الصراع مع الفصائل الكردية المتمردة، وهو ما دفع إلى بروز نظام شمولي يتعارض تماما مع الفكر الليبرالي، الذي يقبل بالتنوع الثقافي والسياسي، فضلا عن تنامي التيار أو الفكر القومي المنغلق الذي يتعارض مع الفكر القومي المنفتح، الذي يعد العروبة انتماء حضاريا وفكريا، وليست انتماء عرقيا، إضافة إلى تنامي الفكر الإسلامي المتشدد الذي لا يتعامل مع الآخرين بروح المساواة[44]، لقد كانت تلك الأسباب السياسية، ولا سيما الصراع مع القوى الكردية من أهم الأمور التي عطلت توجه الحكومة العراقية لتنفيذ التزاماتها حيال المسيحيين، إذ جر الانتشار المسيحي المكثف في المناطق الشمالية للعراق، وتحديدا في سهل نينوى واستمرار المعارك بين الجيش العراقي والفصائل الكردية، أوضاعا يمكن أن توصف بالمأساوية على سكان المنطقة من المسيحيين، وكذلك الأكراد، وبعض القبائل العربية، ونظرا لوقوع قرى ومناطق المسيحيين في ساحة العمليات العسكرية ضد المقاتلين الأكراد، وفيما بعد ضمن نطاق العمليات العسكرية للحرب العراقية الإيرانية (1980–1988)، فقد تعرضت عشرات القرى المسيحية بما فيها من كنائس ومبانٍ أثرية، في زاخو وعقرة ودهوك ونيروي ريكان

إلى التدمير والتخريب بين العامين 1976 و1987، مما أدى إلى فراغها من أهلها وفرارهم إلى مناطق أخرى(45) لا سيما في بغداد والبصـرة وكركوك حتى وصل عدد المسيحيين في بغداد وحـدها في مطلـع الثمانينيات من القرن الماضي إلى ما يقرب المليون نسمة على اختلاف طوائفهم مع غالبية كلدانية واضحة.

إلا إنه ومع اشتعال الحـرب العراقيـة الإيرانيـة (1980–1988) وحرب احتلال الكويت (1990)، وما رافقها من حصـار اقتصـادي خانق فرض على العراق، وترد في الأوضاع المعيشية، وجمود وتـدهور الحياة السياسية، اضطر الكثير من المسيحيين إلى مغادرة العراق واللجوء إلى دول الجوار، ودول أوروبا كالولايات المتحدة وأمريكا الشمالية.

إن الأوضاع السياسية والاجتماعية غير المستقرة الـتي عاشـها المسيحيون في العهود الجمهورية المختلفة، وتراجع مستوى معيشتهم، وتناقص أعدادهم لم يمنع اندماجهم في الحياة المجتمعيـة للعـراق، إذ استمرت طقوسهم الدينية واحتفالاتهم وحركة بناء الكنائس والأديرة في بغداد والموصل والبصرة وكركوك، وتواصل اندماج الكثير مـن الشخصيات المسيحية في حركة المجتمع العراقي في المجالات العلميـة والفنية والرياضية. وتقلد الكثيرون منهم مناصب سياسية رفيعـة في الدولة، لعل أبرزهم غانم خدوري نائب رئيس البرلمان العراقي للفترة (1980–1988) وطارق عزيز وزير الخارجية ونائب رئيس الـوزراء حتى سقوط نظام صدام حسين عام 2003.

ثالثا: ملامح التعايش في المجتمع العراقي

عرف المجتمع العراقي بإرثه الطويل من التعايش بـين وحداتـه الاجتماعية، إذ لم يشهد تاريخ العراق مواجهات شاملة بين الأديـان

والمذاهب والأعراق، فلم نعثر على حرب عربية كردية أو كردية تركمانية أو مواجهات شيعية سنية شاملة، أو صراع بين المسلمين والمسيحيين خارج سلطة حاكم أو أمير. ورغم الأحداث الطائفية والعنصرية والدينية التي جرت في العراق بعد العام 2003، وظهور مليشيات وأحزاب تمارس القتل من هذا الطرف أو ذاك، ورغم سياسة التحريض التي تبنتها قوى داخلية وأطراف إقليمية ودولية لخلق حالة من العداء والاصطراع بين الجماعات العراقية، فإن الطبقات والقوى الاجتماعية والعشائر والفئات الاجتماعية لم تنجر بشكل جماعي إلى ساحة الصراع والمواجهة[46]. ولا شك أن الأمر لا يرتبط بتعفف العراقين عن العنف، أو نأيهم عن ارتكاب الحماقات الطائفية والعنصرية الأخرى، التي حصلت في مراحل قليلة من تاريخ العراق الطويل، بقدر تعلق الأمر بالمصلحة الاجتماعية.

وبتقدير الخسارة في حالة اندلاع حرب شاملة بين الجماعات مثلما حصل في بلدان أخرى، يضاف لذلك التداخل العشائري والمناطقي والاجتماعي بين هويات العراق الفرعية، والخلفية التاريخية الطويلة من التعايش والتجاور والتصاهر والعلاقات التجارية المتواصلة[47]. ومهما أسرف الباحثون في الحديث عن الطبيعة العنيفة للمجتمع العراقي وعن قساوة العراقيين ومهما بالغ البعض في وصف العراق تاريخيا بأنه بلد الصراعات والنزاعات ولا يمكن أن تحكمه إلا شخصيات تسلطية تحافظ بالقوة على وحدته السياسية والاجتماعية[48]. فإن فسحة التعايش والسلام تبقى واضحة في تاريخ العراق، ولولا تلك الفسحة من التعايش ما احتفظ أهل العراق هذا العدد من الأديان والمذاهب والقوميات بعضها إلى جانب بعض، ولا شك أن أي باحث متبحر في الشأن العراقي بات يدرك أن ذلك

التعدد الإثني إنما يعود تاريخيا إلى أن أرض العراق كانت ملاذا ومستودعا لحضارات عريقة استوطنت هذه الأرض، واندرست فيها فتلاقحت وامتزجت، وأنتجت لنا شخصية متميزة برشادة عقلها وصحة بدنها وتدبيرها وبراعتها وتمام حلمها وعلمها وخيرها، كما وصفها أبو الحسن المسعودي في القرن الرابع الهجري(49).

ولم يكن المسيحيون في العراق حالة شاذة في تاريخه المبني، في الأعم، على التعايش والانصهار، إذ تروي لنا كتب التاريخ العراقي الحديث والمعاصر مئات الشواهد الدالة على تعايش المسيحيين على اختلاف طوائفهم مع إخوانهم المسلمين، وحبهم وامتزاجهم بالأرض التي ولدوا وعاشوا فيها، ولم يعرفوا أرضا سواها، منطلقين من مقولة أن جميع رعايا الوطن هم رعايا الله. ولم تحدث في التاريخ العراقي الحديث والمعاصر صدامات دينية بين المسيحيين والمسلمين، وما حدث في مرحلة الاحتلال الأمريكي من فتنة وتصادم بين بعض المتعصبين لا يعكس حقيقة المجتمع العراقي المتسامحة، إنما يعكس رغبة قلة داخلية منحرفة ومتورطة بأجندات سياسية خارجية في تفكيك النسيج الاجتماعي العراقي، وخلق حالة الاصطراع الداخلي لكي تذهب معه ريح العراق وقوته.

ولهذا، فإن العراق، وبشهادة الكثير من البطاركة والمطارنة والقسس، يعد بحق بلد التعايش السلمي للمسيحيين مع إخوانهم المسلمين، وفي هذا السياق تأتي وصية الكاردينال عمانوئيل دلي راعي الكنيسة الكلدانية في العراق للمسيحيين بضرورة التعايش مع إخوانهم المسلمين بسلام وتفاهم لتضفي بعدا إنسانيا اجتماعيا على سياسة التسامح التي تبناها المسيحيون حيال إخوانهم المسلمين للعيش في هذه الأرض بعيدا عن الكراهية والتعصب، فقد انطلقت وصية الكاردينال

من وصية السيد المسيح (عليه السلام): "أحبّوا بعضكم بعضا". إذ يجب على العراقيين وفق رأي الكاردينال أن يتعايشوا بعضهم مع بعض، ويتنازلوا عن الأنانية والمصالح الضيقة من أجل عراق أفضل للجميع[50].

لقد ساهم المسيحيون في جميع النكبات والمناسبات التي مرت في تاريخ العراق، مدافعين عن وطنيتهم ضد المشككين بها، مرسخين لانتمائهم لهذه الأرض، وكأنهم يأخذون من فطنة وحكمة ومبدأ الكثير من أعلامهم وعلمائهم الكبار، خطوطا عريضة لتعاملهم مع وطن لم يولدوا في مكان غيره، ولعلنا نذكر في مقدمة هؤلاء الأعلام الكبار العلامة اللغوي الأب أنستاس الكرملي الذي رسم ملامح هويته العراقية في تفانيه وإبداعه في لغة الضاد العربية التي شكلت الحاضنة الكبرى لهوية أهل العراق[51]، فقد كان الكرملي يسأله تلامذته عن سبب هذا الغور في التراث العربي، وأسرار لغته بدلا من التوجه إلى اللاتينية، فكان يرد بمقولته الشهيرة التي لا تزال الأجيال تفتخر بتناقلها: (النبتة التي لا تبحث في جذورها، وتصل إلى مكمن الماء هي نبته غير مثمرة)[52]. ولهذا مد المسيحيون جذورهم في العراق فشربوا ماءه وتشربوا انتماءه، فباتوا نبته مثمرة في نسيجه الاجتماعي العام.

وإذا كان لبعض منهم مشكلاته مع سلطات الحكم في مرحلة تاريخية معينة، فإننا لم نجد أي مشكلات في تعايش المسيحيين ضمن النسيج الاجتماعي العراقي نفسه، ويخبرنا التاريخ والمجتمع أن المسيحيين عاشوا في العراق الحديث والمعاصر متميزين بأنشطتهم وحيويتهم وأمانتهم وإنتاجهم وإجادتهم للعمل، بل ومشاركتهم لأبناء العراق الآخرين عراقيين وطنيين بسيرورة النهضة العربية

ومشروعات تقدم العراق في القرن العشرين[53]. وقد وثقت كتب التاريخ الكثير من المواقف الوطنية لرجال وقادة ومطارنة مسيحيين تجاه العراق واستقلاله الوطني، ومما تم توثيقه في هذا المجال أن الإنجليز حينما دخلوا الموصل عام 1918 أرسل القائد البريطاني في طلب البطريرك يوسف عمانوئيل توما مطران الطائفة الكلدانية في العراق، وأخبره بنية الإنكليز إنشاء دولة مسيحية في شمال العراق، فما كان من البطريرك إلا أن انتفض، ورد على القائد الإنجليزي بالقول: هل استشرت إخوتي الآخرين؟ فقال القائد البريطاني ومن هم؟ فقال له البطريرك: المسلمون وغيرهم. ثم أردف قائلا: (هذا العراق لا يتجزأ)[54]. ومثل هذا الموقف تكرر في مواقف علماء ورجال مسلمين (شيعة وسنة) في التأكيد على الأخوة الإسلامية المسيحية، وعلى أن المسيحيين في العراق شركاء في الإنسانية والوطن، مما يوجب حمايتهم ورعايتهم.

ويمكن أن نشير هنا إلى رسالة المرجع الشيعي الأعلى في زمانه محمد تقي الشيرازي التي أوصى فيها العراقيين بضرورة حماية أهل النحل والملل الأخرى، وفي مقدمتهم اليهود والمسيحيون كونهم أكثر سكنة بغداد والمدن المحيطة بها (أوصيكم بالمحافظة على جميع الملل والنحل التي في بلادكم في نفوسهم وأموالهم وأعراضهم ولا تنالوا أحدا منهم بسوء أبدا)[55]. ويذكر د. علي الوردي في كتابه لمحات اجتماعية من تاريخ العراق أنه في اليوم التالي لتلك الوصية (جاء إلى الكاظمية وفد يمثل اليهود والنصارى من أهل بغداد، فقابلوا علماء الكاظمية راجين منهم إبلاغ الشكر إلى الميرزا محمد تقي الشيرازي على وصاياه النبيلة بأهل الكتاب. وفي اليوم الثالث أرسل علماء الكاظمية السيد محمد الصدر ليرد الزيارة إلى البطاركة

والحاخامين)[56]. وحصل في العام نفسه أيضا أن استقبلت وفود من المسلمين من السنة والشيعة مواكب المسيحيين، وهم يحيون احتفالاتهم بعيد الجسد (فنثروا الورد ورشوا الماء المعطر على الموكب وهتفوا: عاش سيدنا المسيح، عاش إخواننا المسيحيون، عاشت الوحدة العراقية، عاشت الوحدة الوطنية)[57].

لقد ظلت هذه المشاهد تتكرر في مناسبات وطنية كثيرة، وفي جميع العهود الملكية والجمهورية، فقد اشترك المسيحيون مع المسلمين في كل المناسبات الوطنية المفرحة والمترحة، فتقاسموا معهم أحلام الطفولة في المدرسة والشارع، وداعبت أحلام الشباب مخيلة الكثيرين منهم فنسجوا علاقات مودة ومحبة في الجامعة والعمل والزقاق، فتكلل بعضها بزواج آلاف المسلمين من مسيحيات فاختلطت الأمشاج، وصار المسيحيون أخوال المسلمين، وعاش المسيحيون مع المسلمين السنوات العجاف التي مرت بالعراق طيلة سنوات الحرب العراقية الإيرانية (1980-1988)، وسنوات القحط وجفاف الضرع والزرع في الحصار الذي فرض على العراق بعد احتلال الكويت (1991-2003)، وفي الجيش العراقي شارك المسيحيون المسلمين لسنوات قدح الشاي ورغيف الخبز وشظية المدفع ووجدان الصداقة الدينية والدنيوية دون أن يظهروا أي ميل، أو سمة للبحث في انتماء من يعيشون معهم. لقد كانوا ينظرون إلى إنسانيتك وعراقيتك أولا، وحتى المشاغبين من الجنود المسلمين الذين يحاولون استفزاز المسيحيين لا يجدون منهم سوى الابتسامة وكلمات الأمل، حتى إن أحد الجنود من أبناء الجنوب كان يردد دوما: إن ابتسامة يوحنا دوائي، ويقصد أن يوحنا طباخ السرية كان يضع ابتسامة الأمل بين عينيه في أشد اللحظات حراجة وصعوبة[58]، تلك الابتسامة لم تختفِ من شفتي

المرأة المسيحية التي رزقها الله بولد ذكر وأسمته عليا، تيمنـا باعتقـاد جارتها المسلمة (الشيعية) التي أكدت لها أن زيارتها للإمـام علـي وتسمية ما في بطنها سيكون سببا لقدوم ذكرها الوحيد.

ولم تختفِ تلك الابتسامة من شفاه ملايين العـراقيين، وهـي تطرب لأغاني مطربين مسيحيين أبدعوا في أغانيهم وموسيقاهم النابعة من تراث العراق أمثال العازف والمؤلف الموسيقي حنا بطرس، الذي لا يزال ملايين العراقيين يرددون لحنه للنشـيد الـوطني (مـوطني.. موطني.. الجلال والجمال في رباك) للشاعر الكبير إبراهيم طوقـان، والموسيقي والعازف الشهير جميل بشير، وأخوه منير بشير، والمطرب والملحن الشهير وديع خوندة، والعازف الكبير ناظم نعيم والمطربـة القديرة سيتاهاكوبيان، وعفيفة إسكندر وغيرهم من أعمدة الموسيقى والطرب العراقي(59).

كما أن تلك الابتسامة لم تختفِ أيضا في المناسبات المشـتركة التي جمعت المسيحيين بالمسلمين باعتبارهم أتباع ديانـات سماويـة ويؤمنون بقيم إنسانية مشتركة، ولعل في مقدمة تلك المناسبات ولادة النبـي زكريا عليه السلام، حيث يوقد المسلمون الشموع ويطفئون الأنوار وينشدون أناشيد وابتهالات دينيـة تكـاد تشـبه التراتيـل المسيحية، بل إنهم ينذرون النذور في هذا اليوم على أمل أن يستجاب لهم في العام القابل. ومن المناسبات الدينية الجامعة للعراقيين احتفاليـة أو عيد خضر إلياس، ورغم عدم إجماع الآثاريين على مرجعية قـبر خضر إلياس في الموصل لديانة محددة، وسـواء كـان إسـلاميا أو مسيحيا أو أيزيديا، فإننا يمكن أن نعده مقاما عراقيا يشترك الجميع في الاحتفال به، حيث يجتمع المسـلمون والمسـيحيون والأيزيـدون ويوزعون الخبز على الناس، ويزور المقام أو القبر في أقرب خميس من

17–25 شباط/فبراير من كل عام، حيث يعد يوم الزيارة عيدا للعراقيين منذ القدم، إذ يتجمع الآلاف منهم على تل القبر ويعدون أكلات وحلويات خاصة لهذا اليوم، الذي يعد أول أيام الربيع. وفي مزار خضر إلياس تمارس عادات اعتاد الناس عليها، منها: أن بناية القبر فيها ثقب يسمى (ثقب المراد)، فإذا نوى الشخص عمل شيء ما يقف أمام الثقب، ويغمض عينيه، ويمد سبابته إلى الأمام، فإذا دخلت إلى الثقب فإنه يحصل على مراده وإلا فلا!!. ويعتقد أبناء المنطقة أن هذا اليوم هو النهاية الحتمية لموسم الشتاء، فمن يزرع بعده بيوم فلن تطلع له نبتة ولا ينمو في أرضه زرع[60].

إن هذه الممارسات والطقوس لا تزال متواترة، والناس ألفوها إلا أنها اليوم، وفي ظل شيوع حالة التعصب، تحتاج إلى انفتاح أكثر، وإزالة لما رسب في النفوس من أحقاد متبادلة كرستها السياسة وممارساتها السلبية. ولعل مما يزيل أدران السياسة، ويعيد ترسيخ ثقافة التسامح والتعايش تكثيف اللقاءات والحوارات بين رجال الفكر وعلماء الأديان، والمذاهب المختلفة للتباحث في كيفية نزع أغلال الحقد من بعض النفوس، وإعادة روح التسامح بدلا منها، فضلا عن إيجاد أرضية مشتركة لتجديد الفكر الديني المسيحي والإسلامي، وتنقيته من مخلفات الماضي ليتماهى مع الحالة الاجتماعية المألوفة لدى الناس، وبما يعزز مبدأ التعايش في الوطن الواحد، كما أن من واجب الحكومة إشاعة مفاهيم الحرية والمساواة بين المواطنين والتأكيد عليها عمليا، وتشجيع حالة الحراك الاجتماعي دون تمييز بين المواطنين، ومن خلال تعزيز القيم المشتركة وتفعيل ما يسمى الأطر الرضائية الجامعة التي تعزز من مفهوم المواطنة والولاء للوطن الواحد.

هوامش الفصل الرابع

(1) د. دهام محمد العزاوي، الاحتلال الأمريكي للعراق وأبعاد الفدرالية الكردية، (الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات، 2009)، 22.

(2) د. محمد علي الشمراني، صراع الأضداد: المعارضة العراقية بعد حرب الخليج، (لندن: دار الحكمة، 2003)، 57-58.

(3) د. بطرس حداد، مسيحيو بغداد بين الماضي والحاضر، 157.

(4) إيرم شبيرا، الأشوريون في الفكر العراقي المعاصر، (بيروت: دار الساقي، 2001)، 18.

(5) محمد السماك، الأقليات بين العروبة والإسلام، (بيروت: دار العلم للملايين، 1990)، 109. وحول قصص المذابح التي تعرض لها الآشوريون والأرمن وممارسات حكومة الاتحاد والترقي العثمانية انظر، الأب جوزيف نعيم، هل ستفنى هذه الأمة؟ ترجمة نافع كوسا، (بغداد: شركة الأطلس، 2006)، 15 وما بعدها.

(6) لورانت شابري واني شابري، سياسة وأقليات في الشرق الأدنى: الأسباب المؤدية للانفجار: ترجمة ذوقان قرطوط، (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1991)، 372.

(7) عبد المجيد حسيب القيسي، التاريخ السياسي والعسكري للآشوريين في العراق، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2007)، 35.

(8) عبد المجيد القيسي، التاريخ السياسي والعسكري للآشوريين في العراق، 36.

(9) محمد السماك، الأقليات بين العروبة والإسلام، 110.

(10) لورانت شابري واني شابري، سياسة وأقليات...، 373.

(11) عبد المجيد حسيب القيسي، 251.

(12) ستيفن لونكريك وفرانك ستوكس، العراق منذ فجر التاريخ...، 101.

(13) إيرم شبيرا، الآشوريون في الفكر العراقي المعاصر، ص 16.

(14) عبد المجيد حسيب القيسي، 96.

(15) سيار الجميل، الأرمن العراقيون: الخصوصية والجاذبية والأسرار الحيوية، (الحلقة الثالثة) مقال منشور على موقع إيلاف www.elaph.com في 2010/10/26.

(16) د. سيار الجميل، المسيحيون العراقيون: وقفة تاريخية عند الأدوار النهضوية والوطنية الحديثة، مقال منشور في موقع الدكتور سيار الجميل www.sayyaraljamil.com في 2009.

(17) يعقوب إفرام منصور، يوسف غنيمة بمناسبة مرور نصف قرن على وفاته، مجلة نجم المشرق، العدد 23، السنة السادسة، (2000)، 212.

(18) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق 645 وكذلك سيار الجميل، الأرمن العراقيون: الخصوصية والجاذبية والأسرار الحيوية.

(19) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 645.

(20) د. سهيل قاشا، تاريخ النصارى في العراق، 646.

(21) د. سيار الجميل، المسيحيون العراقيون: وقفة تاريخية عند الأدوار النهضوية والوطنية الحديثة.

(22) لويس شيخو، المسيحيون ودورهم في بناء حضارة العراق، مجلة مسارات، العدد 14، السنة الخامسة، (2010)، 25.

(23) برناديت عفاص، الآباء الكرمليون في العراق، مجلة الفكر المسيحي، العدد 241، السنة 25، (1989)، 17.

(24) د. بطرس حداد، مسيحيو بغداد بين الماضي والحاضر، 158.

(25) د. سيار الجميل: الأرمن العراقيون: الخصوصية والجاذبية (الحلقة الثانية) منشور في موقع إيلاف www.elaph.com في 20-2010/10/21.

(26) د. سيار الجميل: الأرمن العراقيون: الخصوصية والجاذبية (الحلقة الثانية).

(27) د. سيار الجميل، المسيحيون العراقيون: وقفة تاريخية...، 3.

(28) فيبي مار، تاريخ العراق المعاصر: العقد الجمهوري الأول، ترجمة مصطفى نعمان أحمد، (القاهرة: مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي، 2009)، 43.

(29) د. سيار الجميل، وقفة تاريخية.

(30) فيبي مار، تاريخ العراق المعاصر، 24.

(31) د. سيار الجميل، الأرمن العراقيون: الخصوصية والجاذبية، الحلقة الثانية.

(32) جميل روفائيل، الآشوريون في العراق...، 5.

(33) جميل روفائيل، 6.

(34) إيرم شبيرا، الآشوريون في الفكر العراقي المعاصر، 28.

(35) جميل روفائيل، 6.

(36) إيرم شبيرا، 35.

(37) إيرم شبيرا، 39.

(38) جميل روفائيل، 7.

(39) إيرم شبيرا، 39.

(40) جميل روفائيل، 7.

(41) د. سيار الجميل، الأرمن العراقيون...، الحلقة الأولى والثالثة.

(42) إيرم شبيرا، 53.

(43) جميل روفائيل، 8.

(44) د. فائز عزيز أسعد، تجديد للدور العربـــي المسيحي، 107.

(45) جميل روفائيل، 8.

(46) د. رشيد الخيون، المجتمع العراقي: تراث التسامح والتكاره، (بغداد: معهد الدراسات الإستراتيجية، 2008)، 12.

(47) د. رشيد الخيون، المجتمع العراقي: الصورة المشرقة في التعايش، مجلـــة أطياف، العدد الأول، السنة الأولى (2009)، 94.

(48) جاريث ستانسفيلد، العراق: الشعب والتاريخ والسياسة، (أبو ظبـــي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، 2009)، 36.

(49) نقلا عن د. رشيد الخيون، المجتمع العراقي، الصورة المشرقة في التعايش، 22.

(50) حوار خاص مع الكاردينال عمانوئيل دلي في مجلة أطيـــاف، العـــدد (1) بغداد، خريف 2009، 23.

(51) كريم عبد الحسين العزاوي، الأب أنستاس الكرملي رائد الصحافة العراقية، مجلة مسارات، العدد 14، السنة الخامسة، (2010)، 53.

(52) نقلا عن نعيم عبد مهلهل، مسيحيو سهل نينوى، صحيفة الزمان، لندن فـــي 2010/3/10.

(53) د. سيار الجميل، مأساة الأقليات في العراق، صحيفة البيان الإماراتية فـــي 14 أكتوبر 2008.

(54) نقلا عن د. رشيد الخيون، المجتمع العراقي...، 35.

(55) د. رشيد الخيون، المجتمع العراقي...، ص 98.

(56) نقلا عن د. رشيد الخيون، المجتمع العراقي...، 98.

(57) نقلا عن د. وميض عمر نظمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعيـــة للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق، (بيروت: مركز دراســات الوحدة العربية، 1985)، 375.

(58) نعيم مهلهل، مسيحيو سهل نينوى.

(59) د. سعدي المالح، مسيحيو العراق ودورهم في نشأة الموســيقى العراقيـــة المعاصرة وتطورها، مجلة مسارات، العدد 14، السنة الخامســـة، (2010)، 69.

(60) د. سيار الجميل، المسيحيون العراقيون، الحلقة الثانية.

الفصل الخامس

مسيحيو العراق

في ظل الاحتلال الأمريكي

أولا: الولايات المتحدة واستراتيجية التفكيك الإثني

كان من الطبيعي وبعد مضي أكثر من تسع سنوات على مشروع احتلال العراق 2003، أن يتبين مدى عقم وسذاجة الذرائع التي ساقها الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش وتياره اليميني المحافظ لهذا الغرض، إذ لم تكن تلك الذرائع أكثر من كذبة كذب بها بوش حتى على نفسه، حسب وصف كريستوفر شير[1]، هدف التورية عن الأسباب الحقيقية للإستراتيجية الأمريكية حيال العراق والمنطقة العربية[*]. فما جرى من تدمير لمؤسسات الدولة العراقية، ومحو لهويتها الوطنية، وتفكيك لطابعها المركزي عبر نشر ثقافة الفوضى والقتل والإقصاء والتهجير الطائفي والعرقي والديني وتغذية أسباب الحرب الأهلية وروح الكراهية والانتقام والثأر في نفسية المواطن العراقي، يؤكد أن منهج التقسيم وإعادة رسم الخرائط للدول الوطنية يشكل لب وجوهر الحرب الأمريكية لإعادة تشكيل ملامح الهوية العراقية عبر تجزئتها وتحويلها إلى دويلات قزمية متعادية وعاجزة ومشلولة، لتعبر من خلالها السيطرة الأمريكية والإسرائيلية على ثروات العراق النفطية وتوجهاته الخارجية[2].

لقد طالت إستراتيجية الفوضى والتدمير كل معالم الحياة في العراق، فقد حل الجيش والمؤسسات الأمنية والاستخبارية، وفتحت أبواب مؤسسات الدولة للنهب ولأطماع المرتزقة وقطاع الطرق، وقد قدر الحاكم الأمريكي الأول للعراق جاي غارنر أن أكثر من 17 وزارة عراقية من أصل 21 قد نهبت بالكامل، وباتت عديمة الجدوى[3]. ولعل من أهم جوانب إستراتيجية التدمير والتفكيك التي أصابت العراق تفكيك اللحمة الوطنية بين مكونات الهوية العراقية، وتمزيق النسيج الثقافي الجامع للمجتمع العراقي، وصولا إلى تدمير أسس التعايش التاريخي بين الجماعات المؤلفة للسكان وثقافاتها الخاصة والمحلية.

وبهدف الحفاظ على سياسة الفوضى والتفكيك وإدامة زخمها في المشهد العراقي، كان لا بد من إيجاد الطفيليات السياسية المستعدة لإنجاز مهمة تدمير وتحطيم أبعاد التعايش بين العراقيين، فمن المعلوم ووفق تجارب الحروب وظواهر الاحتلال، أن مقدمات أي مهمة تخريبية يقدم عليها المحتلون في أي بلد مستباح هي تفريخ هويات فرعية طائفية أو عرقية أو دينية، وتغليبها على الهوية الوطنية الجامعة[4]، ومن ثم رعاية شخصيات من الانتهازيين والنفعيين والطائفيين والعنصريين بهدف تكريس الثقافة الجهوية ومظاهر التناحر الاجتماعي بين أبناء البلد، ولا شك أن العراق ما كان ليبلغ هذا المدى من الاحتراب والعنف الأهلي ويصبح سلمه الأهلي في خطر[5] لولا رعاية الاحتلال للأحزاب والجماعات والشخصيات التي تبنت البرامج الطائفية والعنصرية، ورفعت الشعارات الفئوية التي تخدم بالنتيجة أجندة الاحتلال في البقاء والهيمنة على مقدرات البلاد ومستقبله السياسي، فعراق موحد ذو سيادة وطنية، وتحكمه قيادة

واحدة، وشعب متجانس ومتلاحم، لا يخدم في المحصلة أهداف الاحتلال ومراميه الإستراتيجية(6).

لقد كانت فرق الموت ودعم المليشيات والجماعات المتطرفة من أبرز الآليات التي استندت إليها قوات الاحتلال للقيام بالأعمال القذرة في التطهير العرقي، والتهجير الطائفي والديني، وقتل العلماء ورجال الدين والشخصيات الوطنية المعارضة للاحتلال، وتفجير أماكن العبادة(7). وفي إطار خطط الاحتلال لإثارة الفتنة والاحتراب بين العراقيين، عمدت فرق الموت إلى انتهاج سياسة التفجير المتوازن، ففي مقابل اغتيال قيادي شيعي وحسينية شيعية، يتم اغتيال قيادي سني وتفجير، أو قصف أو احتلال مسجد سني للإيحاء بأنه رد فعل على الفعل الأول، وتجاوز الفعل حدود السنة والشيعة إلى العرب والأكراد، بل إلى المسلمين والمسيحيين(8)، إذ لم تسلم أحياء ومناطق مسيحية في بغداد والموصل والبصرة من هجمات فرق الموت والاغتيالات، حيث رحل عشرات الآلاف من المسيحيين، واغتيل العشرات منهم بمسدسات كاتمة للصوت وبسيارات مفخخة، وفجر الكثير من الكنائس والأديرة على مرتاديها، وغالبا يتم التفجير بعد يوم أو يومين من تفجير مساجد إسلامية، للإيحاء بأن تفجير الكنائس جاء رد فعل على تفجير المساجد، وهو ما خلق ردود فعل قوية بين المسلمين والمسيحيين، وساهم إلى حد بعيد في نشر ثقافة الكراهية والعنف المضاد، رغم أن الأهداف والمقاصد كانت ولا تزال معروفة لدى غالبية العراقيين.

وبكل تأكيد لم تكن تلك الأعمال تنم عن جهل في الحسابات الإستراتيجية لمخططي الحرب الأمريكيين، كما يتصور البعض، بل كانت هناك نوايا مقصودة لم يعد رجل الشارع العراقي البسيط

غافلا عنها، نوايا تهدف إلى الإيغال في تخريب أسس الاندماج بين العراقيين، وصولا إلى تثبيت حالة عدم التعايش، وبالتالي إقرار واقع تقسيم العراق إلى دويلات هامشية متعددة، أو على أقل تقدير إبقاؤه دولة ضعيفة ومتهالكة القوة وفقا للحسابات الإستراتيجية الأمريكية والإسرائيلية، وبعض القوى الإقليمية المتطلعة، وفي مقدمتها إيران(9). وهو ما أكده نائب الرئيس الأمريكي جوزيف بايدن في مشروعه لتقسيم العراق إلى دويلات ثلاث، حيث طرح بايدن فكرة أن العراق بلد مؤلف من مجموعات متناحرة ومتحاربة، وبالتالي تصبح مسألة التوفيق بينها مسألة في غاية الصعوبة(10).

لقد كان انعكاس سياسة الفوضى والتفكيك الإثني كبيرا على العراق من حيث سيادة الخوف والإرهاب والإقصاء والشحن الطائفي والديني، الذي انعكس في ممارسات التهجير المتبادل، وإذا كان نصيب السنة والشيعة والأكراد كبيرا في هذا المجال، فإن نصيب المسيحيين على اختلاف مشاربهم لم يكن قليلا أيضا، إذ أصابهم الأذى، ولحقتهم التصفيات والاغتيالات، وهجرت آلاف العوائل منهم من أماكن سكناهم، واضطروا للعيش مجبرين في أماكن جديدة لم يألفوها، وحصل في مناطق متعددة من بغداد والموصل فرز ديني بعد أن قامت مجموعات أصولية بتهديد عائلات مسيحية بدخول الإسلام عنوة أو دفع الجزية أو التعرض للقتل، فاضطرت آلاف العائلات وتحت تهديد السلاح إلى الهجرة إلى أماكن يعتقدون أنها أكثر أمنا في شمال العراق أو الهجرة إلى خارج العراق في البلدان المجاورة أو دول أوربا وأمريكا الشمالية وأستراليا، وكانت النتيجة أن أفرغت أحياء كاملة في بغداد والموصل ومناطق أخرى من ساكنيها المسيحيين، فاختلت أسس التعايش الوطني، وضعفت علاقة التسامح

التي كانت سائدة في السابق بين المسيحيين والمسلمين لقرون طويلة، وفقد العراق كفاءات وطنية مسيحية خدمت العراق لعقود طويلة، ولم تعرف وطنا بديلا عنه فاضطرت للهجرة إلى بلدان ليس لها أي رابط وطني معها.

لقد بات من المؤسف القول إن السياسة الأمريكية في العراق قد تمكنت بعد الاحتلال من بذر بذور الشقاق والتصدع في النسيج الاجتماعي العراقي، بحيث إن المواطن العراقي اليوم أخذ يتميز عن أخيه وشريكه في الوطن، ليس بكفاءته وعمله وتخصصه، بل بهويته الفرعية (العشائرية والطائفية والدينية) بعد أن كانت الهوية الوطنية ومقدار الإخلاص للوطن معيار التمييز بين المواطنين، وبعد أن كانت الهوية الوطنية هي المعيار الجامع الذي يتسربل بخيمته جميع العراقيين، بغض النظر عن انتماءاتهم الضيقة.

ولعل الأخطر من ذلك أن هذا التصور الجديد لمفهوم الهوية قد ولد حالة جديدة في الواقع العراقي، لعل أهم مميزاتها أن المواطن قد أخذ ينظر إلى الآخر في الوطن نظرة الريبة والتحيز، بل نظرة المنافس، وربما العدو في بعض الأحيان، بدل نظرة الشريك، وهذا دون شك ستكون له انعكاسات خطيرة في المستقبل على وحدة العراق، وقد يحتاج العراقيون لعقود لإزالة ما علق من ترسبات التشاحن والبغضاء والأحقاد المتبادلة، التي زرعتها السياسة الأمريكية في هذا المجال، وقد يكون من المهم الإشارة إلى أن المسؤولية بعد رحيل الاحتلال تقع على الحكومة العراقية التي لا بد لها لكي تنجح في مسؤوليتها السياسية من تبني مشاريع متنوعة لإعادة اللحمة الاجتماعية والسياسية بين العراقيين، ومن خلال تبني مشاريع المصالحة الوطنية، وتعزيز سياسات التعليم والتربية التي تعلي من قيمة الانتماء الوطني

على حساب الانتماءات الفرعية، كما أن من واجب العراقيين، ولا سيما نخبهم المثقفة والمتعلمة إعادة وتغيير الوعي الفئوي المتسرب إلى نفوسهم إذا ما أرادوا العيش كتلة بشرية واحدة وقوة إقليمية يحسب لها حسابها، ويعول عليها كثيرا في التوازنات الإقليمية في المنطقة، ولا يتم هذا إلا عبر إعادة تفعيل هويتهم العراقية الجامعة التي شكلت، ولا تزال، أحد مصادر قوتهم بعد أن تبين لهم أن التمسك بانتماءاتهم الفئوية لم يجلب لهم سوى الانقسام والوهن أمام الذات وأمام الآخرين.

ثانيا: إسرائيل وتشظية العراق

كانت إسرائيل، ولا تزال، من أكثر المستفيدين من نتائج الاحتلال الأمريكي للعراق في نيسان/أبريل 2003، فقد جاءت نتائج الاحتلال وفق تصور الكثير من المحللين لمصلحة إسرائيل التي ظلت طيلة عقود من الزمن تملك رؤية إستراتيجية لتفكيك العراق وإجهاض دوره المحوري في الصراع العربي الإسرائيلي[11]. فما حصل من تدمير لمؤسسات الدولة العراقية من حل الجيش وأجهزة الأمن وتدمير البنية التحتية، وسرقة الآثار، وأعمال التخريب الشاملة لبنية العراق ولحمته الوطنية، وتشكيل فرق الموت وشبكات الاغتيال والقتل الطائفي والديني، كان متوافقا تماما مع الرؤية الإستراتيجية لإسرائيل وحلفائها في البيت الأبيض من التيار اليميني الصهيوني المحافظ، من أمثال جورج بوش، وديك تشيني، ورامسفيلد، وريتشارد بيرل، وبول وولفويتز، ودوجلاس فايث وغيرهم، والرامية إلى توظيف تدمير العراق لصالح هيمنة إسرائيل في المنطقة.

فالحرب قامت بالأصل خدمة لشارون وحكومته، كما يؤكد باتريك بوكانن مرشح الرئاسة الأمريكي الأسبق[12]، حيث قضت مصلحة إسرائيل من تلك الحرب تحطيم قدرات العراق العسكرية والاقتصادية وتفتيته عبر دفعه إلى الاقتتال الداخلي، وخلق العنف والفوضى الشاملة بهدف تدمير العراق، إذ إن تدمير قدرات العراق كان نعمة على أمن إسرائيل، كما أكد رئيس وزراء إسرائيل السابق إيهود أولمرت، فعراق دون صدام حسين هو أمر هام لمصلحة وأمن إسرائيل، وأي انسحاب أمريكي متسرع من العراق سيضر بمصلحة إسرائيل[13]. وبهدف تعزيز حضورها في تفكيك الواقع العراقي خطت إسرائيل خطوات هامة في اتجاه ذلك الهدف عبر دفع العراق نحو مزيد من التشرذم والتفكك.

وقد أكد الكثير من المحللين الغربيين أن الوجود الإسرائيلي في العراق بات مكشوفا وعلنيا، وهو ما أكده الصحفي الأمريكي سيمور هيرش في مقالة نشرت له في حزيران/يونيو 2004، بعنوان "كيف خلقت إسرائيل أسطورة القاعدة؟". إن عملاء الموساد دخلوا العراق منذ وقت طويل، وكان اختصاصهم تلغيم السيارات والتعذيب الجسدي وقطع الرؤوس، وقد جاء هؤلاء الإسرائيليون إلى العراق باعتبارهم مدنيين عربا أو أكرادا ورجال أعمال، بل حتى مقاولين متعاقدين مع الإدارة الأمريكية[14]. ولعل دور الموساد الإسرائيلي كان بارزا في شمال العراق ولا سيما في المناطق المتوترة كالموصل وكركوك، فقد كان إشعال الفتنة بين العرب والأكراد والتركمان، وبين المسلمين والمسيحيين من أهم توجهات شبكات ومنظمات التخريب الإسرائيلية من خلال تهريب الأسلحة إلى الأطراف المتنافسة، ودعم عصابات مأجورة

وتزويدها بالأموال والأسلحة اللازمة للقيام بعمليات تصفية وتهجير متبادل للسكان.

وقد ذكرت صحيفة معاريف الإسرائيلية في عددها الصادر في 2007/9/1 أن أكثر من 250 إسرائيليا يسافرون سنويا إلى العراق للمتاجرة بالسلاح[15]. ولا يخفى ما لهذا العدد الكبير من تأثير في أعمال العنف والقتل والتهجير المتبادل في بعض المناطق الساخنة، ولا سيما في سهل نينوى ومدينة كركوك التي يتصاعد فيها الصراع القومي بين العرب والأكراد، مما يجعل بعض الجماعات الصغيرة، ولا سيما المسيحيين عرضة للتوظيف في ذلك الصراع بهدف إجبارهم للوقوف إلى جانب هذا الطرف أو ذاك، أو دفعهم للهجرة عبر عمليات القتل وتفجير الكنائس ودفع الفدية لأجل إخلاء ساحة الصراع من أعداء محتملين.

وقد نقلت صحيفة الشعب المصرية في أكتوبر 2011 تقريرا نشرته وكالة وين ماديسن الأمريكية تحدث عن الدور الخطير الذي يقوم به الموساد الإسرائيلي بالتعاون مع مسؤولين أكراد لتهجير المسيحيين في الموصل وكركوك، وبأساليب متنوعة من القتل والابتزاز والخطف وهدم المنازل بهدف إفراغ تلك المناطق وإعادة إسكانها باليهود الأكراد العائدين من إسرائيل، الذين بدؤوا بتملك الكثير من العقارات والأملاك في الموصل وكركوك ومناطق أخرى بعد العام 2003، وشرائها بأثمان متواضعة من المسيحيين المهجرين، ووفق دعاوى استرجاع أراضي يهودية تاريخية وتمكين اليهود من زيارة الأماكن والمزارات الدينية المنتشرة هناك[16]. واستعرضت الوكالة أسباب الاهتمام الخاص الذي يوليه الإسرائيليون لأضرحة الأنبياء ناحوم ويونس ودانيال في الموصل وكركوك، وكذلك النبي حزقيل

وعزرا في بابل وميسان، موضحةً أن إسرائيل تنظر إلى هذه الأضرحة والمدافن على أنها جزء من (إسرائيل الكبرى التوراتية)، حالها حال القدس والضفة الغربية التي يسمونها (يهودا والسامرة).

وتقول مصادر كردية وعراقية إن الموساد يعمل بالتعاون مع مؤسسات يهودية وشركات إسرائيلية سياحية، للتقدم بمطالبات بـ (أملاك) يهودية قديمة، عائدة إلى الإسرائيليين الذين هجروا من العراق بعد قيام إسرائيل عام 1948. ويستخدم الموساد نفوذه في المنطقة باعتباره يشارك بقوة في تدريب قوات البيشمركة الكردية، ويعمل على تكريس انفصال الإقليم الكردي عن العراق، ولهذا يشارك وكلاء الموساد في التخطيط لإخلاء سكان المناطق التي يعدها الإسرائيليون أملاكا تاريخية لهم، لا سيما في المناطق المسيحية في الموصل كالحمدانية وبرطلة وتلكيف وباطناية وباشكية والقوش وقره قوش وغيرها، بغية تهجيرهم بالقوة، وعادة تلصق التهم بتنظيم القاعدة الذي يمارس عمليات إرهابية متنوعة ضد غالبية العراقيين، وتشير مصادر موثقة إلى أن الإسرائيليين يتلقون مساعدة في مخططاتهم تلك من مرتزقة أجانب في المنطقة، تدفع رواتبهم دوائر المسيحية الإنجيلية في الولايات المتحدة، التي تساند عقيدة المسيحية الصهيونية الرامية إلى إعادة بناء إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل[17]. ولا شك أن كل تلك العمليات الإجرامية تصب في خدمة الأهداف الإستراتيجية الكبرى التي رسمتها إسرائيل للعراق.

ولعلنا نختتم بما قاله رئيس جهاز الأمن الإسرائيلي السابق (آفي ديختر) من أن إسرائيل قد حققت كل أهدافها في الحرب الأمريكية ضد العراق، بل إنها حققت أكثر مما هو متوقع، وشدد ديختر على ضرورة إبقاء الضعف في قوة العراق العسكرية، فالعراق وفق تصوره

تلاشي كقوة عسكرية وكبلد متحد، وخيار إسرائيل الإستراتيجي هو في بقائه مجزءا ومنقسما ومعزولا داخليا بعيدا عن البيئة الإقليمية[18]. وإذا كان كلام الجنرال الإسرائيلي يعبر عن حقيقة الدور الذي مارسته أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية في تفكيك النسيج الاجتماعي العراقي وخلق احتراب داخلي بين مكوناته الفرعية، فإن الحقيقة الأهم هو أن الإسرائيلي لا يزال غير منفك في مواصلة هذا الدور بهدف إنهاء أي أمل في إعادة اللحمة بين العراقيين، وبما يؤمن نهائيا تحقيق تقسيم العراق إلى دويلات طائفية وعرقية ودينية متناحرة كما خططت لذلك دوائر صنع القرار الإسرائيلي.

ثالثا: المسيحيون والطائفية السياسية في العراق

شكلت الطائفية السياسية مرتكزا رئيسا للنظام السياسي والاجتماعي في العراق بعد العام 2003، وتم تثبيت هذا المبدأ في الحياة السياسية، وبشكل ألغى عمليا مبدأ المواطنة الذي يساوي بين العراقيين، واعتمد نظرية الأكثرية والأقلية القومية والطائفية، وهو منهج خطير يشرعن لسيادة مبدأ الغلبة والاستئثار تحت دعاوى حقوق الأكثرية، وبشكل لا يجعل أي اعتبار لحقوق فئات اجتماعية أخرى[19]. لقد أثبتت تجربة التعايش التاريخي بين العراقيين أن المجتمع العراقي هو مجتمع منفتح وليس مجتمعا طائفيا، كما بيّن تاريخ الدولة العراقية أن مكونات المجتمع العراقي لم تتصرف بعضها حيال بعض من منطلقات طائفية، بل رفضت ذلك وتبنت الأساس الوطني معيارا للتعامل، كما أن القوى الوطنية الممثلة لأطياف المجتمع ساهمت إيجابيا بكل أنشطة الدفاع عن حقوق المواطنين دون استثناء أو تمييز، ولهذا

لم يكن يوما ما يحتاج الشيعي أن يتحدث بروح طائفية في دفاعه عن أخيه في الوطن سواء السني أو المسيحي أو الأيزيدي، و لم يكن السني محتاجا للحديث بلغة طائفية في دفاعه عن أخيه الشيعي أو المسيحي أو أي مكون ديني أو مذهبي آخر، ما يجعلنا نصل إلى نتيجة مفادها أن الطائفية السياسية لا تنتمي إلى دين أو مذهب ولا هي تعبير عن التعدد المذهبي والديني والقومي في العراق، بقدر ما تعكس أداة تضليلية وغطاء طائفيا غايته تبرير الفعل السياسي وشرعنة عملية الاستحواذ على السلطة(20)، وهو ما حصل بعد العام 2003، حينما تم تفعيل الطائفية السياسية أداة لتشكيل الحياة السياسية بعيدا عن أي مرتكزات وطنية جامعة، وتحت دعاوى الديمقراطية التوافقية التي أربكت المشهد السياسي العراقي، ودفعت إلى ظهور صراعات واقتتال بين مكونات المجتمع العراقي(21). مما أدى إلى شيوع ثقافة الفوضى والانفلات في كل مفاصل الدولة العراقية وتعطيل آليات العمل المؤسساتي الديمقراطي، والتداول السلمي للسلطة، والقبول بالآخر، ورفع شعارات مضللة بأحقية بعض الأطراف في الحكم دون ممثلي المجتمع الآخرين. فضلا عن شيوع مظاهر الفساد وحماية المفسدين ووضعهم فوق القانون(**).

ولعل أخطر مظاهر الطائفية السياسية انقسام المجتمع العراقي أفقيا إلى فرق وطوائف متناحرة، وتحلل المادة الصمغية التي كانت تربط بينها وظهور الاحتقان الطائفي والتوتر الإثني، وفيما بعد الاحتراب والتطهير الطائفي، حيث تعاظمت التمترسات الطائفية المذهبية (الشيعية-السنية) خصوصا بعد أحداث تفجير مرقدي الإمامين الحسن العسكري، وعلي الهادي في سامراء في 22 شباط/فبراير 2006، واحتدمت الخلافات والنزاعات الكردية

التركمانية العربية بخصوص كركوك ناهيكم عن بعض الاحتكاكات والتشنجات العربية الكردية حول الفدرالية.

كما تكرست الاصطفافات المسيحية والكلدو آشورية وغيرها[22]. وتعزز تشكيل الميليشيات المسلحة التي تمارس الخطف والقتل وتصفية الحسابات بطريقة بشعة والتضليل على جرائم الميليشيات بطريقة قانونية تمنع الوصول إلى هويات المسؤولين عن جرائم قتل العلماء وأصحاب الرأي، وتهجير مئات الآلاف من العراقيين بطريقة قسرية من أماكن سكنهم[23]. فضلا عن تكريس مفهوم المحاصصة الطائفية والعرقية في دوائر الدولة ومفاصلها، وتحويل بعض المناصب السيادية في الدولة إلى ملكية واحتكار لطرف معين على أساس طائفي وعرقي[24]، ومنع أي خطاب وطني من الظهور بديلا موضوعيا للتقدم بالعملية السياسية وتطويرها وإنضاج مسيرتها[25].

إن ظهور الطائفية السياسية في المشهد العراقي لم يكن لولا سياسة التفكيك والتشظية التي تبنتها الولايات المتحدة لمفاصل الدولة العراقية، وبشكل أفقد الفرد العراقي كل ضمانات البقاء والحياة، مما أنعش الطائفية بديلا ودرعا يحتمي في ظله الأفراد وقت الأزمات، وطالما بقيت الدولة العراقية مغيبة ومهمشة فإن الفرد العراقي سيجد في الطائفية السلاح الذي يحمي به نفسه ليس من الطوائف الأخرى ولكن من أبناء طائفته أنفسهم، (فالطائفة تظل تعمل هنا حزبا سياسيا يدافع عن مصالح الأفراد، ويحل مشكلات انتمائهم لها طالما لا توجد هناك أطر أخرى أكثر فعالية في تنظيم مشاركة الفرد في حياة الجماعة، وفي الدفاع عن حقوقه ومصالحه، وفي تأمين كرامته وضمان توازنه النفسي والمادي)[26]. لقد باتت الطائفية مصدر قلق

مؤثر في وحدة العراق، فكل يوم يمر يحمل في طياته ازدياد مخاطر التفكك في اللحمة الداخلية، إذ إن كل مجموعة تزداد في عزلتها عن الأخرى يوما بعد يوم، وأصبح لكل جماعة فرعية مطالبها الخاصة التي تعبر عن رغبة في اقتطاع جزء من الجسد العراقي الموحد، ولا يبدو في الأفق أي مشروع وطني سياسي يعيد التوازن إلى مفهوم المواطنة أو الوطنية، بعد أن ظهرت السلطة في العراق أحد أطراف الصراع الاجتماعي والسياسي، وكشفت عن وجهها العنصري والطائفي سواء في خطاها أو سلوكها السياسي[27].

إن هذا المشهد السياسي المأزوم كان له انعكاسه الواضح على الواقع السياسي والاجتماعي المسيحي في العراق، فقد أضر بذلك الواقع من جهتين، الأولى: أنه أبعد المسيحيين عن ممارسة دور فاعل في الحياة السياسية حيث شعروا بالتهميش والانعزال، والثانية: أنه أوقع بعض المسيحيين في فخ الطائفية السياسية، ولهذا وانطلاقا من الواقع السياسي الفئوي الذي ساد في العراق واستعداد بعض المسيحيين للعب دور هامشي ضمن إطار هذا الواقع أدخل المسيحيون عنوة ضمن نفق مفهوم الأقلية الذي يعني بالنتيجة خضوعها لمنطق وهيمنة وسلوك الأغلبية المتحكمة. لقد كان من المفترض ببعض القادة المسيحيين أن يكونوا من الداعين للفكر الوطني وللوحدة الوطنية، كما هو شأهم عبر تاريخ العراق، فالفكر الطائفي يقود إلى التمزق والتشرذم حتى ضمن إطار الفئة الواحدة نفسها، وهو ما نجده تحقق في العراق بعد العام 2003، إذ إن جميع الفئات قد تشرذمت، وتمزقت إلى فئات أصغر متناحرة ومتضادة في أحيان، ومتقاتلة بما فيها المسيحيون أنفسهم، إنها حرب الجميع ضد الجميع كما وصفها المفكر الإنجليزي توماس هوبس في حالة الطبيعة، لقد

نظر فولتير أيام احتدام الصراع الطبقي في فرنسا، قبل الثورة الفرنسية وخلالها، ووجد أن هذه الطبقات قد انقسمت على ذاتها فقال (أرى الآن أمما داخل الأمة)[28]. ويقدم المجتمع العراقي صورة مشابهة لذلك، فالعراق بات أمة مجزأة تتقاذفها الأهواء والأمزجة.

ولم يستثن المسيحيون أنفسهم من حالة الانقسام والتشرذم، فهم يتوزعون اليوم إلى قوميات أساسها طائفي، وقد ساهم قانون إدارة الدولة 2004، والدستور الدائم 2005، في تكريس الانقسام المسيحي حينما أبرز تسميات مختلفة للمسيحيين، فقد تم تحويل التسميات الكنسية المتعارف عليها في الواقع المسيحي إلى قوميات متعددة، فقد عدوا الكنيسة الكلدانية قومية مستقلة، وعدوا الكنيسة السريانية قومية بذاتها، رغم أن هذه الكنائس قد نشأت تاريخيا باسم طقوسها، ولا تزال تستخدم اللغة السريانية لغة طقوسية مشتركة، إذ إن المسيحيين في العراق يتوزعون كما مر بنا إلى قوميات عديدة، ففيهم الآراميون الناطقون أصلا باللغة السريانية، وفيهم الآشوريون الذين يرون أنفسهم قومية مستقلة برغم لغتهم السريانية، وهناك المسيحيون العرب الذين يحاول البعض إنكارهم رغم وجودهم التاريخي الطويل في العراق واليمن وبلاد الشام قبل الإسلام وبعده، وهناك المسيحيون التركمان والمسيحيون الأرمن والمسيحيون الأكراد وغيرهم[29].

لم تعد مشكلة المسيحيين في العراق اليوم هي في ترسيخ الطائفية السياسية إطارا للنظام السياسي وآلية للعمل السياسي، وما نجم عنه من اعتبارهم أقلية صغيرة تأخذ من الحقوق بما يتناسب مع حجمها الطبيعي، وإنما مشكلتهم تكمن كذلك في شرذمة واقعهم وتفتيت وحدة صفهم، عبر خلق واصطناع قوميات وهمية تقوم على أساس طائفي، وهو ما يطرح سؤالا مهما لا نجد أن الإجابة عليه ستكون

ميسورة وهو: كيف تكون الطائفة الكلدانية الكاثوليكية قومية مستقلة؟ وفيها الآراميون والعرب الآشوريون والتركمان، ومن هم من أصل بريطاني وهندي وكردي؟ إن هذا التقسيم لا يستقيم مع الواقع المسيحي، وهو غير جائز من الناحية الواقعية، ولكنه بات، كما يبدو، واقعيا وجائزا في لغة التقسيم والتجزئة التي شرعها الاحتلال الأمريكي لتفكيك بنية العراق السياسية والاجتماعية.

رابعا: استهداف المسيحيين.. الحقيقة المغيبة

اليوم وبعد حملات التهجير المنظم والقتل المتعمد الذي يتعرض له المسيحيون في العراق وعلى مختلف شرائحهم ومستوياتهم، وبعد أن هدمت عشرات الكنائس وحرقت مئات المحال التجارية لمواطنين مسيحيين وأجبرت عشرات المسيحيات على ارتداء الحجاب، واغتصبت عشرات البيوت التي يملكها مسيحيون في بغداد والبصرة والموصل، فإن السؤال الأكثر إلحاحا هو من يقف وراء استهداف المسيحيين؟ ومن تلك القوى التي تسعى إلى الإخلال بالتعايش الأهلي والسلمي بين المسيحيين وإخوانهم المسلمين، الذي ظل قائما منذ تأسيس العراق الحديث دون أي مشكلات تذكر؟ فهل هي حالة الفوضى والتدمير التي عمت العراق بعد العام 2003، وما رافقها من تدمير لمعالم الدولة تفكيكا لنسيجها الاجتماعي، وفتح الحدود ودخول الأسلحة والمخربين، وضعف أجهزة الدولة الأمنية والعسكرية؟ أم الإرادة الأمريكية والإسرائيلية الرامية إلى اصطناع الفوضى والحرب الأهلية، تمهيدا لفرض التقسيم بين العراقيين نظرا لاستحالة التعايش بينهم وفق المنظور الأمريكي؟ أم هو صراع دول الجوار في الساحة العراقية، وما رافقه من توظيف لكل إمكانات

تأجيج الصراع المذهبي والديني تحت دعاوى منع انتقال عدوى الاحتلال، حتى ولو كان ذلك على حساب وحدة العراقيين واندماجهم الوطني؟ ولعل السؤال الأبرز هو عن مدى مسؤولية القوى والأحزاب والجماعات السياسية وصراعاتها الدموية عن تأجيج وتفعيل الاحتقان في الشارع العراقي لصالح مخططاتها الطائفية والقومية، وما جره ذلك من أوضاع مأساوية على المسيحيين، باعتبارهم الحلقة الاجتماعية الأضعف التي لا تملك مليشيا عسكرية ولا دعما ماليا أو سياسيا من أي جهة دولية أو إقليمية؟

لا شك أن ما حدث للمسيحيين في العراق تتقاطع فيه الأسباب العامة مع الأسباب الخاصة، والعوامل الداخلية مع الخارجية، كما تتقاطع فيه الأسباب الدينية مع العوامل السياسية والاقتصادية، ويمكن لنا أن نحدد أهم الأسباب التي تقف وراء استهداف المسيحيين في النقاط التالية:

أولا: حالة الفوضى والتدمير التي اجتاحت العراق بعد العام 2003، وما رافقها من انتشار مظاهر التسلح والمليشيات الطائفية والقومية، ونهب ممتلكات الدولة العراقية، وضعف الأجهزة الأمنية واختراقها، وانعدام الروابط الوطنية بين أبنائها، والانقسام الطائفي والقومي والديني، وما تبعه من صراعات وصدامات راح ضحيتها مئات آلاف العراقيين، وفي ظل هذا الواقع المتردي وجد المسيحيون أنفسهم دون حماية ولا أمن ولا غطاء وطني يدفع عنهم مآسي التهجير والقتل والانعزال. ولا شك أن قوات الاحتلال الأمريكي، ومعها الحكومات العراقية التي تشكلت لاحقا تتحمل المسؤولية الرئيسة عن هذا الخلل في حماية المسيحيين وغيرهم من الأقليات الدينية الأخرى كالأيزيديين والصابئة والشبك.

وقد دفعت حالة اليأس من ضعف وبطء إجراءات الحماية الحكومية والأمريكية للكنائس والأديرة ولرجال الدين المسيحيين كثيرا من المسيحيين إلى التفكير، وبطريقة يائسة، بالهجرة من العراق، أو بخلق مناطق للحكم الذاتي لحماية مناطقهم المستهدفة لا سيما في محافظة الموصل، أو في خلق مليشيا أو قوات صحوة مسيحية مسلحة توفر الحماية لدور العبادة وللأحياء المسيحية من هجمات المليشيات الإرهابية. وهي كلها في النتيجة خيارات ستؤدي إلى تعقيد الحالة المسيحية وتزيد من انعزال المسيحيين عن واقعهم العراقي وتصب في تحقيق غاية القوى التخريبية والإرهابية[30].

ثانيا: غياب المساءلة والتحقيقات النزيهة، لا شك أن أهم ما أفرزته الأحداث الدموية التي حصلت في العراق بعد الاحتلال الأمريكي وتسارع وتيرة القتل والتهجير الطائفي والعرقي والديني غياب العدالة والشفافية في متابعة آثار الجرائم وعمليات تفجير الكنائس وقتل الأساتذة وطلبة الجامعات ورجال الدين والموظفين المسيحيين، وإذا كانت هذه الظاهرة عامة لمعظم جرائم القتل والترحيل والتفجير التي تحصل في العراق، فإن إجراء التحقيقات ومتابعة الجناة في بعض القضايا التي تمس الشخصيات السياسية ومصالح بعض الفئات الطائفية يدل على أن هناك انتقائية وانتهازية في تحقيق العدالة ومعرفة الجهات التي تقف وراء أحداث العنف الطائفي والديني، فلماذا يتم التحقيق في ملابسات تفجير مرقدي الإمامين العسكريين في سامراء في 22 شباط/فبراير 2006، ولا يتم التحقيق في عشرات التفجيرات التي حصلت ضد كنائس مسيحية في مناطق مختلفة من العراق؟ ولماذا لم تجر تحقيقات نزيهة في مئات من حالات القتل ضد أفراد وعوائل مسيحية؟ وكيف ترسل الحكومة

العراقية مئات آلاف الجنود وقوات الأمن لحماية المزارات الشيعية في المناسبات الدينية، في حين تتنصل وتتقاعس عن إرسال تلك القوات لحماية المسيحيين وغيرهم من الأقليات الدينية الأخرى في مناسباتهم الدينية والاجتماعية[31].

ثالثا: نمو ثقافة الكراهية والتطرف حيال الآخر، في ظل أجواء الفوضى والتطرف التي يعيشها العراق وانحدار القيم الوطنية الجامعة، وتراجع مفهوم المواطنة والمساواة أمام تصاعد الانتماءات الطائفية والدينية والتمييز على أساس تلك الانتماءات، بدأت تسود المجتمع العراقي موجة غير مألوفة من الكراهية والتطرف في النظرة إلى الآخر المخالف دينيا ومذهبيا، وفي ظل سيادة ثقافة الاستحواذ والاستئثار، باتت بعض الجماعات تعتقد أنها استأثرت بحكم العراق وما على المكونات الاجتماعية الأخرى سوى الإذعان والخضوع لإرادتها أو ترك العراق[32]. وفي ظل هذه الأجواء والتصورات عانى المسيحيون وغيرهم من انتشار ثقافة الكراهية، لا سيما مع بروز التيار الإسلامي المتطرف بشقيه الشيعي (جيش المهدي) والسني (تنظيم القاعدة)، الذي مارس شتى أنواع العنف والإرهاب ضد المسيحيين. لقد بات المسيحيون محاصرين اليوم بين مطرقة الجماعات الإرهابية والمتطرفين، وسندان حكومات متعصبة تسعى لتكريس مفهوم التمييز بين المواطنين على أساس الدين والعرق والمذهب لتحقيق بقائها في السلطة لأطول وقت ممكن[33].

رابعا: وتأسيسا على ما تقدم، وفي ظل اشتداد الصراع بين الفئات الاجتماعية للاستئثار بالسلطة والثروة أجبر المسيحيون على أن يكونوا طرفا في الصراع سواء باستقطاب بعض الشخصيات المسيحية وإغداق المال عليها ليكونوا مع هذا الطرف أو ذاك، أو

باستخدام وسائل العنف لفرض سياسة الأمر الواقع وإخضاع المسيحيين عنوة بالقبول بحلول معينة، ولهذا يعتقد بعض المسيحيين أن العنف الموجه ضدهم، ولا سيما وقت الانتخابات والأحداث السياسية الهامة مثل انتخابات العام 2010، إنما كان جزءا من خطة حكومية لإبعادهم عن الانتخابات البرلمانية، مما ترك الائتلافات السنية والشيعية والكردية تخلط الأوراق في سعيها للاستحواذ على الحكم[34]، في حين يرى آخرون أن الصراع العربي الكردي في بعض المناطق المتنازع عليها مثل كركوك وديالى ومناطق سهل نينوى يعبر عن حقيقة سعي المتصارعين إلى استقطاب المسيحيين إلى جانبهم في لعبة الاستحواذ[35] والغلبة ليكونوا مساندين لحقهم في ضم أو منع ضم بعض المناطق إلى إقليم كردستان في المستقبل. وفي هذا السياق أشار النائب المسيحي السابق يونادم كنا (قائمة الرافدين) إلى أن هناك رغبة لدى بعض الأطراف في (أن نكون جزءا من هذا الصراع، وكل طرف يريد كسبنا له وأدى ذلك إلى حرماننا من حقوقنا)[36].

ويلخص ميناس اليوسفي، رئيس الحزب الديمقراطي المسيحي الموقف المسيحي من الصراع العربي الكردي في الموصل بأن المسيحيين أصبحوا وقودا للخلافات العربية الكردية[37]. ويؤيد وليم وردة الناشط المسيحي في مجال حقوق الإنسان في بغداد فكرة أن العنف الموجه ضد المسيحيين إنما هو (جزء من خطة كردية لضمان هروب المسيحيين إلى الجانب الكردي عند خطوط التماس التي تفصل العرب عن الأكراد) ويضيف وردة أنه (بكل دورات القتل والتخويف هذه خسرنا آلاف المسيحيين الذين ذهبوا إلى الأردن وسوريا وأوروبا وأمريكا، ونحن الآن محاصرون في معركة بين الأكراد والعرب حول الموصل)[38].

خامسا: أبعاد حملات التهجير ضد المسيحيين

تراوحت أبعاد الحملات الإرهابية لتهجير المسيحيين بين أسباب ودوافع متعددة، فمنها ما هو ذو طابع ديني تعصبي يتعلق برؤية بعض الجماعات الإسلامية حيال الآخر المختلف دينيا والسعي لإجباره على اعتناق الإسلام، أو ترك الدولة الإسلامية بدفعه للهجرة، أو التعرض له بالقتل، ويمكن أن يعزى قتل رجال الدين المسيحيين وتفجير الكنائس وحرقها إلى هذه الرؤية الظلامية. وهناك من يرى غير التعصب الديني سبيلا وراء حملات استهداف المسيحيين، فيعزوها لأسباب اقتصادية تتعلق بتوجهات أصحاب الجريمة المنظمة وأرباب السرقة الذين يعمدون إلى قتل أو خطف أصحاب المحلات التجارية والعقارات وصائغي الحلي الذهبية والمجوهرات، وأصحاب مكاتب الصيرفة من المسيحيين بهدف ابتزازهم أو ابتزاز عائلاتهم للحصول على الأموال، وقد حصل أن استهدفت عشرات المحال التجارية وقتل عشرات المسيحيين لهذه الدوافع وخطف عشرات مثلهم، وتمت مساومتهم بمبالغ نقدية خيالية لقاء إطلاقهم.

ورغم أن مثل هذه الدوافع العنصرية والمالية تحصل في كل يوم لعشرات العراقيين، وبغض النظر عن انتماءاتهم وهوياتهم، فإن للمسيحيين، كما يبدو، خصوصية في ذلك كونهم بالنسبة لتلك العصابات مسيحيين مخالفين أولا، ولأن الكثيرين منهم يمتهن مهنا ذات مردود مالي مرتفع. في ظل هذا التصور تمت عمليات استهداف منظمة لمئات من رجال الدين وعلماء، وأساتذة وتجار ومواطنين عاديين مسيحيين، تعرضوا منذ 2003، لأبشع صور القتل والتهجير والخطف والابتزاز على يد عصابات متطرفة دينيا، وعصابات أخرى

امتهنت الإجرام سبيلا للحصول على المال، وعصابات مدفوعة بأجندات خارجية غايتها تفكيك النسيج الاجتماعي والوحدة الوطنية بين العراقيين.

لا شك أن ما حصل للمسيحيين في العراق لا يعدو أن يكون جرائم حرب منظمة، على حد وصف أمنيستي إنترناشونال وجرائم إبادة ضد الإنسانية وفقا للقانون الدولي الإنساني[37]. فوفقا لتقديرات المنظمات الحقوقية منذ العام 2003 حتى الآن، تعرض المسيحيون لأكثر من 200 تفجير لمحلات تجارية ودور سكن وسيارات مفخخة، حيث قتل أكثر من ألف مواطن مسيحي بينهم 13 كاهنا وأسقفا، في مقدمتهم أسقف كلدان الموصل المطران بولس فرج رحو الذي اختطف وقتل في 12 آذار/مارس 2008[***]. وتم تفجير أكثر من 53 كنيسة[****]، وأجبرت جماعات مسلحة تابعة لجيش المهدي المسيحيات في البصرة على ارتداء الحجاب، وبدؤوا بشن حملة لغلق محلات الخمور وبيوت التجميل وصالونات الحلاقة التي يملكها المسيحيون في البصرة، ونتج عن ذلك تناقص أعداد المسيحيين في البصرة من 2000 عائلة إلى أقل من 40 عائلة[40]. وفي بغداد تعرضت في آب/أغسطس 2004، خمس كنائس للتفجير، منها كنيسة سيدة النجاة، ونتج عن ذلك مقتل 11 فردا وإصابة 55، وتهجير أكثر من 40 ألف مسيحي خارج العراق، أما مدينة الموصل، التي تعد من أكثر المحافظات عنفا ضد المسيحيين، فقد شهدت ما يشبه حملة تطهير عرقي، ففي بداية تشرين الأول/أكتوبر 2008 ظهرت موجة عنف تسببت في هرب أكثر من 6000 مسيحي، تاركين منازلهم التي فجرت وأحرقت الكثير منها حيث لجؤوا إلى القرى المسيحية القريبة[41]، وهدد أنصار القاعدة الكثير من العائلات المسيحية بوضع

منشورات على بيوتها تخيرهم بين التحول إلى الإسلام، ومغادرة الموصل. وفي شباط/فبراير 2010 قتل 12 مسيحيا في الموصل، حيث نزحت على إثر الحادث أكثر من 1700 عائلة إلى إقليم كردستان[42].

ولا يخفى حجم الأخطار التي يمكن أن يتعرض لها النازحون عن أماكن سكناهم، لعل في مقدمة تلك الأخطار إمكانية التعرض لسوء المعاملة، وازدياد مخاطر تمزق أوصال العوائل المسيحية بسبب رغبة البعض بالهجرة، والبعض الآخر في البقاء، فضلا عن إمكانية فقدان الممتلكات الشخصية من أموال نقدية وبيوت ومحال تجارية، إضافة إلى احتمالية التعرض للمخاطر الصحية وصعوبة الحصول على الاستقرار في أماكن النزوح الجديدة[43].

ولعل أكثر الحوادث دموية في الواقع المسيحي المعاصر ما تعرضت له كنيسة سيدة النجاة في بغداد في 31 تشرين الثاني/نوفمبر 2010، حيث قتل أكثر من 55 شخصا، وجرح العشرات من المصلين داخلها، وهو ما أدى إلى موجة جديدة من النزوح الجماعي للمسيحيين من بغداد والموصل، قدرتها وزارة الهجرة والمهجرين بأكثر من 5000 عائلة مسيحية في العام 2010، توجه معظمها إلى دول تركيا وسوريا والأردن[44]. وقد قدر رئيس جمعية السريان الخيرية في الأردن عضو مجلس كنائس الشرق الأوسط جورج هزو عدد العراقيين المسيحيين الذين قدموا إلى الأردن بعد العام 2003 بـ 120 ألف شخص، وقال لوكالة فرانس برس إنه وبعد الهجرة إلى أمريكا وأوروبا (مازال هناك ما بين أربعين وخمسين ألف مسيحي)[45]. في حين أكد عبد هرمز النوفلي الرئيس السابق للوقف المسيحي، لصحيفة الشرق الأوسط وجود إحصاءات تؤكد أن 40% من

المهجرين العراقيين في سوريا هم من المسيحيين، متمنيا عـــودهم إلى العراق[46].

حدث هذا الاستهداف المنظم للمســيحيين وســط صــمت حكومي، وشلل كبير في قدرة الأجهزة الأمنية عن متابعة أو ملاحقة من يقف وراء جريمة قتل وترحيل المسيحيين، وقد طالــب نائــب البطريرك الكلداني الكاثوليكي العراقي شــليمون وردوني الحكومــة العراقية باتخاذ كل الإجراءات الأمنية والعسكرية لحماية المســيحيين، ووضع حد لهذا التدهور في واقعهم السياسي والاجتماعي، وأبــدى أسفه لعدم تنفيذ الحكومة العراقية لوعودها بحماية المسيحيين، مناشدا الجهات الحكومية المسؤولة بتقديم المساعدات الإنســانية للعــائلات المسيحية النازحة من بغداد والموصل لأن حالتهم يرثى لها، وطالــب بضرورة عودهم إلى مناطقهم ووظــائفهم ومحــلات أرزاقهــم[47]. وشجب مجلس الأساقفة الكاثوليك في العراق في اجتمــاع طــارئ عقده في 2008/10/29، في أربيل ما يتعرض له المسيحيون في العراق، وأصدر بيانا أكد فيه أن المسيحيين جزء أصيل من النســيج الــوطني المتكامل، ويريدون العيش مع سائر إخوانهم المواطنين، ووجهوا رسالة إلى المسيحيين في العراق يــدعوهم فيهــا إلى الصــبر والثبــات في العراق[48]. وكان قادة وممثلو نحو عشرين حزبا ومنظمــة مســيحية عراقية قد طالبوا بإعلان نتائج التحقيق الذي فتح للكشف عن الجهة التي تقف وراء قتل وتهجير المسيحيين في الموصل، متهمين القــوات الأمنية بالتقصير في أداء واجباتها، وعدم تمكنها من تنفيذ مهماتهــا في ضبط الأمن، ودعوا الحكومة العراقية إلى الإسراع في إعادة المهجرين إلى منازلهم وتعويضهم من جراء ما تعرضت له منازلهم وممتلكاتهم من هدم وتفجير[49].

وكان رئيس البرلمان الحالي أسامة النجيفي قد اتهم، في وقت سابق، قوات الأسايش الكردية بافتعال أزمات والقيام بأعمال تخريبية ضد المسيحيين في الموصل، وأكد النجيفي في تصريح له لوكالة الصحافة المستقلة في 2008/10/13 أن (القوات العسكرية في مدينة الموصل مخترقة من المليشيات الكردية التي تقوم بكتابة عبارات تحريضية تطالب المسيحيين بمغادرة منازلهم)، مؤكدا أن (قوات الجيش في الموصل تتلقى أوامرها من الأسايش الكردية والبيشمركة الذين يوجهون بالقيام بأعمال تحريضية ضد الطوائف الأخرى، بهدف تكريد المنطقة وتوسيع رقعة النفوذ الكردي لتغيير الهوية الديمغرافية للمدينة). وشدد النجيفي على أن (الأحزاب الكردية التي تسيطر على المدينة تحاول فرض هيمنتها على المدينة، وتغيير هويتها لأهداف توسعية تخدم مصالحها، ويراد منها حصر المسيحيين في إقليم خاص بهم للتهيئة إلى إلحاقهم بإقليم كردستان)[50].

وفي ظل صراع القوى السياسية المتنافسة على السلطة في العراق، وانشغالها بعقد صفقاتها السياسية، وضعف دور الحكومة المركزية في تبني وسائل أمنية وسياسية لحماية المجتمع العراقي، يبقى المسيحيون وغيرهم من أقليات العراق الأخرى عرضة للتهديد بالقتل والترحيل في أي لحظة تختلف فيها مصالح فرقاء العملية السياسية الهشة في العراق.

سادسا: قراءة في المواقف المحلية من استهداف المسيحيين

إذا كانت المواقف المحلية والدولية من محنة مسيحيي العراق قد توافقت من الناحية الإنسانية على شجب واستنكار ما تعرض له المسيحيون من حملات تصفية وتهجير وقتل، واعتبار ذلك عملا غير حضاري، ويهدد حياة جماعة إنسانية عرفت بانضباطها ووطنيتها،

فإن تلك المواقف قد تقاطعت وربما اختلفت سياسيا بسبب تناقض المصالح وتضارب الأهداف في النظرة إلى مأساة المسيحيين، فقد وظفت بعض القوى المحلية الفاعلة في الساحة العراقية المسيحيين جزءا من صراعها مع القوى الأخرى للحصول على مكاسب سياسية على الأرض، عبر إجبار القوى المسيحية بالوقوف إلى جانبها، حصل هذا فيما يسمى المناطق المتنازع عليها بين القوى الكردية والعربية في كركوك وديالى والموصل، في حين سعت القوى الشيعية الماسكة بزمام السلطة إلى إرخاء قبضتها وسيطرتها الأمنية على أماكن العبادة والانتشار المسيحي، وبشكل سهل للقوى الإرهابية استهدافها وتفجيرها، وبما يسمح بتشويه صورة القوى السنية وإظهارها بمظهر التكفير ومحاربة الآخر.

وقد لمسنا في حواراتنا مع بعض المسيحيين مثل هذه الرؤية التي تظهر أن المناطق الشيعية هي أكثر أمنا، وأنهم يشعرون بالاستقرار فيها أكثر من المناطق السنية التي تنشط فيها القوى الإرهابية التي تستهدفهم في عيشهم وعبادتهم -حسب وصفهم-، أما موقف قوات الاحتلال الأمريكي فكان انتهازيا وغير أخلاقي من مأساة المسيحيين، فبعد أن أشاعت تلك القوات الخراب والتدمير والقتل بين العراقيين سعت بآلتها الإعلامية والسياسية إلى توظيف تلك المأساة لتشويه صورة المقاومة العراقية، والإيحاء بأنها تقف وراء تهجير وقتل المسيحيين واغتصاب أموالهم وبيوتهم، بهدف تجفيف المناطق الحاضنة للمقاومة، وتسريع وتيرة التخلي عنها، في حين يعلم الكثيرون أن فصائل المقاومة المسلحة قد أعلنت في كثير من خطاباتها وبياناتها أنها لا تستهدف المواطنين الأبرياء وأن سلاحها موجه لقوات الاحتلال الأمريكي، وأن القوى التي تقوم بقتل العراقيين أيا كانت انتماءاتها،

إنما هي قوى استخبارية وأجهزة أمنية تتلقى أوامرها وتمويلها من قوات الاحتلال الأمريكي والقوى الداخلية المتسربلة بمشروعها السياسي.

أما القوى المسيحية العراقية، فرغم أن موقفها موحد حيال الدعوة إلى حماية المسيحيين ومنع استهدافهم، ومطالبة الحكومة بتوفير أسباب العيش الآمن والمستقر لهم، فإنها اختلفت كذلك في النظرة إلى مستقبل الوجود المسيحي في العراق، فقد أيدت شخصيات دينية وحزبية مسيحية أن مستقبل الوجود المسيحي بات في خطر، وأن على المسيحيين مغادرة العراق للبحث عن ملاذات آمنة يعيشون فيها بعيدا عن الإرهاب والقتل الموجه ضدهم، ودعا رجل الدين المسيحي العراقي المقيم في لندن المطران أثناسيوس داود مسيحيي العراق لمغادرة بلادهم والهجرة إلى الخارج، حيث صرح لقناة بي بي سي، بعد ترؤسه قداسا للمسيحيين الأرثوذكس العراقيين في العاصمة البريطانية في تشرين الثاني/نوفمبر 2010 (إذا بقينا سيقتلوننا، فأيهما أفضل، الهروب أم البقاء؟ أن نقتل أم أن نبقى على قيد الحياة؟ عندما أقول لرعيتي اخرجوا فإني أقولها بقلب مجروح)[51].

في المقابل فإن كثيرا من الزعماء الدينيين والسياسيين المسيحيين في العراق الذين يشاطرون المطران أثناسيوس القلق على مصير ومستقبل المسيحيين، يؤيدون ضرورة ثبات المسيحيين في وطنهم، وعدم إعطاء القوى الإرهابية الفرصة لإفراغ العراق من ميزة التعايش المشترك بين أبنائه، فقد صرح أسقف بغداد للسريان الكاثوليك أغناطيوس متي ميتوك، الذي فقد نصف أبرشيته في حادثة كنيسة سيدة النجاة في تشرين الثاني/نوفمبر 2010 أن (الكنيسة تعارض الهجرة، فعلينا المكوث هنا مهما غلت التضحيات لنكون شهودا

لدينا)[52]. في حين قال النائب السابق في البرلمان يونادم كنا أن قدر المسيحيين هو العيش في العراق (هذا بلدنا الذي عشنا فيه جنبا إلى جنب مع المسلمين لمئات السنين، هذا قدرنا وسنبقى هنا سويا) وردا على دعوة المسيحيين للخروج من العراق ذكر النائب كنه أن هذه الدعوات موازية لما تفعله القاعدة بالمسيحيين، (فالقاعدة تدفعنا للخروج بينما يقوم الغربيون بسحبنا، وكلاهما ضد شعبي، وضد بلدي، وضد مصالحي)[53].

ولعل أقوى المواقف المسيحية تلك التي صدرت من رأس الكنيسة الكاثوليكية في العراق الكاردينال عمانوئيل دلي الثالث الذي دعا في مناسبات متعددة المسيحيين إلى الثبات وعدم مغادرة العراق، مؤكدا أن العراق سيبقى للعراقيين بكل أطيافهم، مشددا على أن العراق هو بلد المسيحيين كما هو بلد المسلمين، وأكد دلي أنه (رغم التطرف الذي يواجهه المسيحيون فإن هذا أمر طبيعي في أوضاع العراق، وإن مراجعة تاريخ العراق القديم تظهر أن المسيحيين تعرضوا لاضطهادات أكثر مما يجري لهم الآن)، وقد رفض دلي أي تدخل خارجي في العراق تحت دعوى حماية المسيحيين، ورأى أن حل مشكلة المسيحيين هي شأن داخلي يتولاه العراقيون أنفسهم[54]. أما مستشار الكاردينال دلي، فقد شدد هو الآخر على الأخوة الإسلامية المسيحية، مذكرا القوى الإرهابية التي تستهدف المسيحيين وتقتلهم وتهجرهم بضرورة العودة إلى رشدهم والكف عن استهداف المسيحيين، وعليهم (أن يتذكروا أن دين الإسلام هو دين الحق والفضيلة والأخوة، وأن سيدنا محمد ﷺ والقرآن الكريم أكدا أن من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا، وقد خاطب الله في القرآن بني البشر، وإننا نبرئ إخواننا المسلمين في

العراق من أية جريمة تقترف ضد إخوتهم المسيحيين، لأنهم إخوة أحباء وإن ما يحدث هو من عمل مخربين يستهدفون وحدة العراق ونسيجه)[55].

أما مواقف القوى السياسية فكانت إجمالا منقسمة وضعيفة، ولم تخرج عن إطار التصريحات الإعلامية والسياسية البعيدة عن أي تحرك حقيقي يعالج أزمة المسيحيين، سواء بتشديد إجراءات الحماية ضد مناطقهم أو أماكن عبادتهم أو بتسهيل عودة المهجرين منهم وتعويضهم، أو ترميم ما هدم من بيوتهم(*****). وقد عكست تلك التصريحات عمق الأزمة بين شركاء العملية السياسية، حينما بدأ كل طرف يلقي بأعباء أزمة المسيحيين على الطرف الآخر، وعده سببا فيما يعانيه المسيحيون من تهجير وتقتيل. ولعل أقل ما يوصف به موقف القوى السياسية المحلية حيال أزمة المسيحيين أنه موقف غير مكترث وغير مبال، وأحيانا انتهازي ومتشف. وربما أفضل ما يوصف به موقف تلك القوى هو الوصف الذي أطلقه الكاتب العراقي المسيحي د. فائز عزيز أسعد، واستنبطه من قول الشاعر الكبير الفرزدق حينما سأله الإمام الحسين (ع) وهو عائد من العراق: كيف وجدت أهل العراق؟ فأجاب الفرزدق: قلوبهم معك وسيوفهم بيد يزيد. إن هذا المثل ينطبق كما يقول د. أسعد على موقف القوى السياسية داخل العراق، فالكثير منها متعاطف ومتألم لما يجري للمسيحيين من تقتيل وتهجير، ولكن تلك القوى لا تحرك ساكنا على أرض الواقع، كما أنها حينما تصبح على المحك، تبدأ بالحديث عن حقوقها القومية والمذهبية والعشائرية بدلا عن مصالح وحقوق العراقيين جميعا، وهذه القوى لا تعلم أنها بفعلها هذا إنما تقتل العراق وأهله كما تقتل مستقبلها السياسي[56].

سابعا: دوافع الدعوات الغربية لحماية المسيحيين

شغلت أزمة استهداف المسيحيين الحيز الأكبر من اهتمام الدول الأوروبية، وعبرت تلك الدول وبوسائل سياسية متعددة (زيارات، تصريحات، وعود) عن قلقها البالغ لما يجري من استهداف منظم للوجود المسيحي في العراق، وبشكل أفرغ العراق وعموم الشرق الأوسط من أهم شرائحه الاجتماعية. وضمن هذا السياق دعا البرلمان الأوروبي في تشرين الثاني/نوفمبر 2010، ممثلة السياسة الخارجية للاتحاد الأوروبي كاثرين آشتون إلى إعداد اتفاقية شراكة وتعاون بين الاتحاد والعراق لمعالجة سلامة المسيحيين العراقيين باعتبارها مسألة ذات أولوية، وأعرب البرلمان عن قلقه العميق والإدانة الشديدة للهجمات التي استهدفت الطوائف الدينية المسيحية، ودعا السلطات العراقية إلى زيادة جهودها وبصورة جذرية لحماية الأقليات المسيحية وبذل قصارى جهدها لتقديم مرتكبي الجرائم للعدالة[57].

وأثناء زيارته إلى بغداد أكد وزير الخارجية الإيطالي فرانكو فراتيني أنه سيطلب من الحكومة العراقية تشكيل لجنة خاصة تعنى بحرية العبادة للمسيحيين، وحسب فراتيني، فإن اللجنة المقترحة بوسعها معالجة مسائل حرية المسيحيين في ممارسة شعائرهم الدينية في أي مكان[58]. ويبدو أن مشكلة الوزير الإيطالي كما غيره من المسؤولين الغربيين هي في قصور الرؤية حول واقع المجتمع العراقي عبر إظهاره مجتمعا عنيفا يمنع المسيحيين وغيرهم من ممارسة شعائرهم الدينية بحرية، وعدم إدراك الأسباب الحقيقية لذلك العنف، الذي يتمثل في إجهاض مشروع الدولة العراقية الوطنية من قبل الاحتلال الأمريكي، وما جره ذلك من تفريخ لقوى تخريبية داخلية تعمل في معية الاحتلال وتنفذ أهدافه ومراميه في تفكيك نسيج اللحمة الوطنية

بين العراقيين عبر تكريس الخطابات الطائفية والانقسامات الدينية والعنصرية.

إن التوجه الإيطالي لم يختلف عن التوجه الفرنسي، إذ سعت فرنسا إلى إظهار نفسها بمظهر المدافع عن حقوق المسيحيين العراقيين، حينما دعا وزير خارجيتها السابق برنارد كوشنير في تشرين الثاني/نوفمبر 2010، المسيحيين للهجرة إلى فرنسا، مؤكدا أن حكومته ستفتح أبوابها للمسيحيين العراقيين الذين يطلبون اللجوء الإنساني، وقد صعدت فرنسا من موقفها حينما دعت مجلس الأمن الدولي في 2010/11/10، إلى عقد جلسة طارئة لمناقشة ما يتعرض له مسيحيو العراق من قتل وعمليات تهجير جماعي من أماكن تواجدهم، وقد أكد مندوب فرنسا الدائم في مجلس الأمن أن هناك إرادة متعمدة للقضاء على الطائفة المسيحية من جانب المتطرفين[59]. وتأكيدا لتوجهها السياسي (الإنساني)، فقد قامت الحكومة الفرنسية باستقبال عشرات الجرحى من المسيحيين الذين سقطوا في حادثة كنيسة سيدة النجاة، وسمحت للكثيرين منهم بالحصول على الإقامة الدائمة في فرنسا، في إشارة إلى تعاطف الحكومة الفرنسية مع ما يتعرض له المسيحيون في العراق من استهداف منظم لوجودهم.

وقد رحبت المفوضية العليا لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة بدعوة بعض الدول الأوربية ولا سيما فرنسا وإيطاليا وألمانيا لاستضافة المسيحيين العراقيين الفارين من أعمال العنف، وبتسهيل إقامتهم ولجوئهم. وقالت الناطقة باسم المفوضية ميليسا فليمنغ إن المفوضية تناشد جميع الدول أن تفتح أبوابها ليس للمسيحيين، وإنما لكل مجموعة عرقية ودينية تجد أن العيش في العراق بات خطرا على وجودها، وقد أبدت المفوضية أسفها لأن السلطات في السويد قامت

بطرد 20 عراقيا وإعادهم إلى العراق ومن بينهم 5 مسيحيين، إذ لا يزال الوقت غير ملائم لعودة العراقيين. وشددت فليمنغ على أنها لا تستطيع أن توجه أصابع الاتهام إلى جهة محددة تقف وراء ما يحصل للمسيحيين، ولكن ندق جرس الإنذار حول أن مجموعة عرقية تريد العيش بسلام في العراق لا بد من توفير الحماية لها[60].

أما بشأن المواقف الكنسية العالمية، فقد أدان البابا بنديكت السادس عشر حملات التصفية التي يتعرض لها المسيحيون في العراق، وطالب المسيحيين بالثبات في بلادهم وعدم مغادرتها، كما ناشد الحكومة العراقية بتشديد إجراءات الحماية للمسيحيين ولأماكن عبادهم. وجاء في تصريح لمجلس الكنائس العالمي في أيلول/سبتمبر 2007 أن أكثر من نصف العراقيين يعانون من الفقر وأن نسبة 40% من مجموع مليوني عراقي هاجروا العراق هم من المسيحيين، وشدد التصريح على أن هذا مؤشر على فشل السياسات في العراق والمنطقة بأكملها[61]. وفي السياق طالب مؤتمر الأساقفة الكاثوليك في كندا الحكومة الاتحادية في أوتاوا بحماية المسيحيين في العراق، وتسهيل استقبال من يريد منهم اللجوء إلى كندا، وشددوا في رسالة إلى رئيس الوزراء ستيفن هاربر على أن مسيحيي العراق يتعرضون لدوامة عنف متفاقم، وأشاروا إلى أن كندا تبدو منذ هجمات 11 سبتمبر 2001 أقل تعاطفا مع طالبي اللجوء، وطالبوا هاربر (بالتدخل بغية إيلاء اهتمام خاص بالمسيحيين العراقيين الذين يطلبون تأشيرة من القنصليات الكندية)، وطالبوا على لسان المطران جيمس وايزغيربر أسقف وينيبيغ ورئيس المجلس، حكومة كندا برفع سقف استقبال اللاجئين العراقيين والموارد المخصصة للتعامل مع طلبات التأشيرات، وقال (منذ عامين تشكل الاغتيالات والخطف والتهديد بأنواعه

تصيب المسيحيين الذين لا يتمتعون بأي حماية من المليشيات أو السلطات السياسية)[62].

وبشكل عام، ومهما كان حجم التعاطف والمواقف التي أبدها القوى والدول الغربية حيال محنة المسيحيين في العراق، ورغم صدقية بعض تلك المواقف لاعتبارات إنسانية أو دينية، اتخذ البعض الآخر من تلك المواقف من مسيحيي العراق ذريعة لإبراز دوره السياسي المفقود في العراق، بعد أن جردت الولايات المتحدة القوى الأوروبية ولا سيما فرنسا وألمانيا وإيطاليا من أي دور في تشكيل واقع العملية السياسية والاستثمار الاقتصادي في العراق. فضلا عن أن التذرع الفرنسي والإيطالي يحمل دلالات انتقائية لا سيما لجهة التعاطف مع المسيحيين الكاثوليك دون غيرهم من مسيحيي العراق الآخرين من الأرثوذكس والبروتستانت، إضافة إلى أن التعاطف مع المسيحيين وفتح أبواب الهجرة والاستقرار هدفه اقتناص الكفاءات المسيحية العراقية، ورفد المجتمع الفرنسي والإيطالي بكفاءات علمية رصينة وجاهزة بدلا من توجهها إلى دول أوروبية أخرى معروفة باستقطاها للعراقيين كالسويد والدنمارك وبلجيكا وبريطانيا. فغالبية المسيحيين العراقيين هم من حملة الشهادات الجامعية في الهندسة والطب والصيدلة والعلوم الإنسانية الأخرى، كما أن عاداهم الشرقية من حيث التماسك الأسري وقدسية العائلة والاهتمام بإنجاب الأطفال قد تعيد إلى المجتمعات الأوروبية شيئا من المناعة القيمية والأخلاقية التي افتقدها في العقود الأخيرة بسبب تراكمات المدنية الحديثة، فضلا عن رفد تلك المجتمعات بعامل ديمغرافي مؤثر في تركيبته السكانية التي بدأت تظهر عليها علامات الشيخوخة. إن تلك الدوافع والمبررات قد تكون أكثر عقلانية ومنطقية في تحليل الاندفاع الفرنسي والإيطالي

للتعاطف مع محنة المسيحيين في العراق أكثر من التبريرات الأخلاقية والإنسانية، التي تنازلت عنها القوى الأوروبية إبان الاحتلال الأمريكي للعراق.

وهنا نود أن نختم بما قاله المفكر اللبناني فيكتور سحاب في كتابه (من يحمي المسيحيين العرب؟) حول انتهازية الغرب في التعامل مع قضايا الأقليات في العالم العربي، وضرورة عدم الانجرار وراء مقولاته والتأثر بها، فمما يقوله في كتابه (إن استبعاد التأثر بالأقوال العاطفية التي تصدر عن الغرب بين الحين والآخر، فيما يخص مصير المسيحيين العرب، هو من ضمانات الموضوعية واجتناب الخداع الذاتي، وليس من المبالغة القول إن برميل نفط في الحسابات الغربية غير المعلنة أهم من عشرة مسيحيين عرب، تلك حقيقة لا بد من وضعها بوضوح في أساس كل تحليل سليم... لقد أدى امتداد النفوذ الغربي إلى بلاد العرب... إلى إضعاف مسيحيي المنطقة، وتقليص وجودهم وتهديد مصيرهم. ولا بد للمسيحيين العرب من نبذ المشروعات الغربية التي تضع مصيرهم في المهب، وتدفعهم إلى المقامرة بوجودهم لتحقيق مصالح ليست مصالحهم)[63].

ولعل في رفض الفعاليات المسيحية العراقية بكل مستوياتها الدينية والمدنية للدعوات الأوربية للتدخل لحماية المسيحيين العراقيين ما يؤكد صدق نوايا مسيحيي العراق في التمسك بأرضهم ووطنهم، ورفضهم للتدخل الأجنبي مهما كانت عناوينه، فغالبية المسيحيين يريدون أن يكون حل أزمتهم بأيد عراقية وعربية وليست أجنبية، وهو ما أكده الكاردينال شليمون وردوني معاون بطريرك الطائفة الكلدانية حينما أوضح (نحن نريد أن يكون الحل عراقيا، وهذا يكفينا، لأننا نحن عراقيون ولا نريد أي تدخل أجنبي مهما كانت

هويته ومهما كانت دولته)[64]. وفي هذا التصريح دلالة قاطعة على المعرفة المسبقة لمسيحيي العراق بنوايا الغرب وتوجهاته حيال العراق ورغبتهم في الابتعاد عن دور الضحية التي يسعى الغرب إلى استغلالها للنفوذ إلى العراق والمنطقة.

ثامنا: مسيحيون يروون معاناتهم

كثيرة هي القصص المؤلمة التي يرويها مسيحيون عراقيون، وجدوا في المنافي ملاذا مؤقتا واستعادوا فيها شيئا من طمأنينة الذات التي تمكنهم من سرد قصص وحكايات عن حالات التهديد بالقتل وممارسات الابتزاز التي تعرضوا لها على يد إرهابيين، وممارسات التهجير وعمليات التفجير التي تعرضت لها منازلهم وكنائسهم، مع ما حملته رحلة البحث عن أماكن آمنة من عذابات الرحيل وألم الغربة وقسوة التعايش والاندماج في مناطق غير مناطقهم وبلاد ليست بلادهم، وأناس ليسوا جيرانهم وأحباءهم. كثيرة هي الصور التي أظهرتها أم مسيحية لابنها الذي فقدته في تفجير أو اختطاف أو قتل أو تهجير، ومتنوعة هي الذكريات التي روتها بمرارة زوجة خطف زوجها ووجد مقتولا على قوارع الطرقات، ومتعددة هي المشاهد المؤلمة لطوابير المؤمنين المسيحيين الذين سقطوا جرحى وصرعى وهم يؤدون صلاتهم وتراتيلهم في كنائسهم، وكثيرة هي العائلات التي أمست دون مأوى بعد أن اضطرت، وتحت تهديد السلاح، لترك بيوتها ووظائفها، أو أن بيوتها اغتصبت أو فجرت، أو سكنها أناس آخرون. روايات المسيحيين ومعاناتهم لا تنتهي، وهي تعبر عن واقع مأساوي لعائلات فقدت الأمن في بلدها ليس لشيء إلا لاختلاف انتمائها الديني الذي بات بعد العام 2003 أحد عوامل التفريق

والانقسام بعد أن بقي طيلة قرون خلت مصدرا للتعايش والانسجام. وقد رصدت مجلات ومواقع إلكترونية وقنوات فضائية تلك المعاناة وتابعت مراحلها.

وفي هذا الصدد تروي مراسلة الشرق الأوسط في لقاء خاص منتصف مارس/آذار 2010، معاناة إحدى العائلات المسيحية التي اضطرت لمغادرة بغداد بعد حادثة كنيسة سيدة النجاة وازدياد الاستهداف المنظم للمسيحيين، إذ لم يكن قرارا سهلا على إسحق بيداويد وهو في الثمانين من عمره أن يرزم حقائبه لمغادرة العراق مع زوجته تاركا جل ذكرياته بين أزقة الموصل وحارات بغداد، لكنه كما يقول لم يعد يتحمل المفاجآت والتهجير والقتل بسبب صراعات لم نكن نحن المسيحيين طرفا فيها، عائلة بيداويد لم يكن حالها مختلفا عن آلاف العائلات التي طالها التهجير والقتل وصور التهديد المختلفة، فكل فرد من أفرادها الخمسة يحمل قصة معاناة مر بها في بقائه في العراق أو خروجه إلى بلاد المهجر، فالبنت الوحيدة سونيا تقيم في بيروت، وقد هاجرت العراق بعد أن فرضت بعض الجهات عليها الحجاب وهي طالبة في الجامعة، لذا قررت الهجرة خوفا من تعرضها للتصفية. أما ماهر المولود عام 1966 فهو يقيم في كندا بعد أن تعرض للتهديد بالقتل هو وعائلته المكونة من ثلاث فتيات في بغداد عام 2006، إضافة لفقدانه عمله نتيجة التهديد. ويعاني نشوان من مرض عضال، وهو لا يزال في بغداد وينوي مغادرة العراق في أقرب فرصة ممكنة. أما مدحت (1969) فهو رجل دين مقيم في كردستان العراق، في حين يقيم سرمد، وهو مخرج تلفزيوني، مع عائلته في سهل نينوى بعد أن تعرض للتهديد في بغداد[65]. لقد فرقت السياسة ونتائجها مصير عائلة متكاملة، وزرعت كل واحد منهم في

مكان آخر، وظروف مختلفة جعلت التواصل بينهم صعبا إن لم يكن مفقودا، وبلا شك، فإن الحنين إلى مكان ولادقم وعيشهم وذكرياقم في المحلة والزقاق والمنطقة سيبقى يؤرق اندماجهم وتعايشهم في بلاد الغربة، مهما توافر لهم رغد العيش وسبل الهناء.

ويكشف البقاء في بلاد المهجر عن صور متعددة من المعاناة وحالات الشقاء التي يعانيها المسيحيون الراغبون في الاستقرار هناك، أو البحث عن مكان بديل أكثر أمنا وضمانا للعيش. واستطلاع أوضاع المسيحيين الذين غادروا العراق إلى دول الجوار مكانا بديلا للعيش، أو نقطة انطلاق إلى دول أوروبا وأمريكا يكشف عن جزء بسيط من المعاناة التي يعانيها المسيحيون، ففي عمان هناك عشرات آلافَ المسيحيين العراقيين الذين ينتظرون تأشيرات إقامة في عمان، أو تأشيرات هجرة إلى أوروبا وأمريكا. ورغم أن الكنائس المسيحية في عمان قامت بتقديم مختلف أنواع الدعم لهم، أملا في تضميد جراحاقم، لا تزال أوجه المعاناة قائمة.

التقت وكالة الصحافة الفرنسية الكثيرين منهم لكشف بعض أبعاد معاناقم وملابسات هروهم من العراق بعد حادثة كنيسة سيدة النجاة ويروي هاني دانيال وزوجته سوزان كيف استطاعا الهروب مع طفلهما من العراق إلى الأردن وهما يحلمان بالهجرة إلى الولايات المتحدة حيث يقيم والد سوزان ووالدقا، إلا أن طلب التأشيرة رفض كما يروي هاني، لأنه خدم في الجيش العراقي إبان حكم الرئيس صدام وهما لا يعرفان مصيرهما. أما باسل إبراهيم المصاب بمرض السرطان وزوجته آني كريكان طبيبة التخدير وابنتاهما فيروبان جزءا من معاناة أسرة مسيحية تتقاذفها عذابات الغربة. تقول آني التي كانت تعمل في مستشفى ابن الهيثم في بغداد إنه عندما هدد قس

أمريكي بإحراق القرآن في الولايات المتحدة في أيلول/سبتمبر 2010، بدأ زملائي في المستشفى يقولون لي (لماذا لا ترتدين الحجاب، مريم العذراء كانت ترتديه) وتشير إلى أنه تم تخفيض راتبها ونقلها إلى الحويجة قرب كركوك، وهي منطقة خطرة للمسيحيين[66]. وتكشف قصة هروب أبي اسحاق جورجيوس العراقي وعائلته إلى دمشق في 2006 فصلا آخر للمعاناة التي تواجهها العائلات العراقية المسيحية في البحث عن ملاذات آمنة للعيش. إذ يروي أبو إسحاق قصة هروبه مع زوجته وأبنائه الأربعة بعد أن أصبحت حياتهم مهددة في ظل انفلات الوضع الأمني، حيث إن مسلحين دهموا محله للصيرفة واختطفوه لأكثر من أسبوع تعرض خلالها للتعذيب والتهديد بالقتل ما لم يدفع أهله الفدية، وبعد مفاوضات دفع مبلغ 20 ألف دولار إلى الإرهابيين، ليبيع بعدها أبو إسحاق كل ممتلكاته، ويفر من بغداد التي عاش فيها، ونشأت فيها ذكرياته وأحلامه، وصارت الهجرة إلى أية دولة أجنبية حلم الخلاص له ولعائلته. لقد ترتب على فراره أن ترك ابنه الأكبر الدراسة الثانوية في مرحلتها الأخيرة، ولم يعد يمثل له دخول الجامعة أي طموح لا سيما مع ارتفاع تكاليف الحياة الجامعية، ونفاد الأموال المدخرة، ويروي أبو إسحاق معاناة ابنته الثانية، فهي طالبة ابتدائية، وقد أصيبت في بغداد برهاب من المدرسة استمر لأشهر نتيجة احتجازها لأكثر من أسبوع مع رفاقها الصغار في مدرستها، عندما اندلعت مواجهات عنيفة في جامعين أحدهما للسنة والآخر للشيعة كانا يقعان على جانبي المدرسة، وعندما جاءت العائلة إلى سوريا واجهت صعوبة في إقناع الطفلة الصغيرة بالذهاب إلى المدرسة[67]. وفي رحلتها إلى المجهول ظنت عائلة أبي إسحاق أن مكوثها في سوريا لن يطول أكثر من ستة أشهر، إذ ربما

يتحسن الوضع الأمني وتعود إلى مكان عيشها الأول في بغداد، ولكن تصاعد الانفلات الأمني، وازدياد عمليات تفجير الكنائس وقتل المسيحيين دفع أبا إسحاق إلى قطع كل آمال العودة إلى العراق، والبدء برحلة بحث حقيقية عن ملاذ آمن في أوروبا. ومع سرد أم إسحاق لمحنتها تكتمل صورة مأساة هذه العائلة، إذ تتلخص مشكلتها في أن والدتها المسنة التي تعاني من أمراض كثيرة قدمت طلب لجوء إلى أستراليا عبر مفوضية اللاجئين كي تلتحق بابنتها التي تعيش هناك، لكن طلبها قوبل بالرفض لأكثر من سبع مرات دون سبب واضح. وتقول أم إسحاق (ما أخشاه أن يرفض لجوء والدتي، ويقبل طلبنا باللجوء وأضطر لتركها في سوريا، أو لتعود إلى بغداد حيث لا يوجد من يهتم بها ويرعاها)[68] وعما إذا كان هناك أي حل آخر للعائلة غير اللجوء إلى بلاد المهجر، قال أبو إسحاق (لا يوجد أي حل، فقد قطع خط العودة بعد أن بعنا كل ما نملك هناك، والحياة باتت صعبة، كما أن أوضاع المسيحيين مقلقة جدا، كما أن المكوث في سوريا ممكن، ولكنه صعب دون عمل، والإعانات التي تقدمها المفوضية لا شك أنها غير كافية. فنحن كنا في العراق نعيش بمستوى جيد، والآن نشعر وكأننا تحولنا إلى متسولين)[69]. وبعد هذا السرد لصور الألم لا تفوت أم إسحاق الفرصة لتوجه رسالة إلى العراقيين، وتذكرهم بأن العراق لم يكن يوما ساحة للنزاع الطائفي والديني وتقول: (قضينا عمرنا كله في العراق مسيحيين ومسلمين، شيعة وسنة، بعضنا مع بعض، لا أحد يسأل الآخر عن مذهبه، إلى أن جاء أناس من الخارج وجلبوا معهم الفتنة) كما تبدي عتبا على الدول العربية لعدم مساهمتها في إنقاذ العراق والعراقيين (ما حصل في العراق درس للجميع عليهم أن يتعلموا منه، فالعراقيون كانوا دائما مع الفلسطينيين

وقضية فلسطين، كنا نقطع اللقمة من أفواهنا لنرسلها إلى الفلسطينيين)، وتتساءل (لماذا يترك العرب العراقيين؟ فهل خبز العراقيين فاهي) أي بلا ملح[70].

إن قصص المعاناة التي رافقت المسيحيين في بلادهم وفي البلاد التي هاجروا إليها لا يمكن أن تختصر في البعد السياسي المتعلق بالأسباب الدافعة لهجرة المسيحيين، وإنما تشمل كذلك الآثار المترتبة على استقرارهم في بلاد المهجر، وما يرافقها من معاناة جديدة، في مقدمتها عدم القدرة على الاندماج والتعايش في مجتمعات مختلفة في ثقافتها وانتمائها، إنها باختصار مشكلة الهوية التي يرى أنصار العولمة أن الانفتاح بين الحضارات وإرخاء الحدود والهجرات المتواصلة بين الشعوب قد جعلت الفرد ينتمي إلى ثقافات متعددة وهويات متنوعة، وأن الفرد لا يمكن أن يثبت على هوية واحدة، وأن الهوية باتت متحولة ومتغيرة باختلاف المكان[71]. لكن يبدو أن هذا لا ينطبق على كثير من مسيحيي العراق، فهاجس الحنين إلى الوطن وذكريات العيش فيه والاندماج في المجتمعات الجديدة لا تزال تلاحقهم في طقوسهم وعاداتهم وتواصلهم مع بعض، ويلخص لنا نينب لاماسو، وهو أحد المسيحيين العراقيين المقيمين في بريطانيا، مرارة الغربة والحنين إلى الوطن في المهجر، حينما يتذكر قول الممثل السوري دريد لحام في مسرحيته الشهيرة كاسك يا وطن: (نحن تركنا الوطن بس الوطن ما تركنا)[72].

تاسعا: المسيحيون والحكم الذاتي

في ظل واقع القتل والتهجير الذي تعرض له المسيحيون في العراق، بدأت تظهر دعوات صريحة من شخصيات سياسية وأحزاب

مسيحية بضرورة إقامة منطقة للحكم الذاتي يعيش فيها المسيحيون بسلام، وتكون ملاذا آمنا يستطيع كل مسيحي أن يلجأ إليها للتخلص من الاستهداف الذي يلاحقه في مناطق العراق الأخرى. ولكن السؤال المطروح حول حدود تلك المنطقة، فهل تقع في سهل نينوى وما يجاورها من مناطق في كركوك وديالى؟ أم تقع في إطار ما يسمى المناطق المتنازع عليها بين الموصل وكردستان؟ وما الضمانات التي حصل عليها المنادون بإقليم للحكم الذاتي لكي لا تتحول منطقتهم إلى مركز لاستهداف المسيحيين وإبادتهم بشكل جماعي من قبل القوى التي تسببت في مأساتهم؟ وهل حظي مشروع الحكم الذاتي بتأييد كل أطراف (البيت المسيحي) أم أنه مشروع يتعلق بفئة سياسية مسيحية ارتبطت مصالحها بأحد أطراف الصراع العربي الكردي في كركوك والموصل، وبما يؤمن إلحاق المنطقة بإقليم كردستان؟

عامة، انطلقت الدعوة لإقامة منطقة للحكم الذاتي في ذروة عمليات استهداف المسيحيين في العام 2008، وتصاعدت وتيرتها في نهاية العام 2010 مع تفجير كنيسة سيدة النجاة واستهداف المناطق التي يتواجد فيها المسيحيون في بغداد والموصل وكركوك، حيث بدأ سياسيون مسيحيون بالدعوة إلى إقامة منطقة للحكم الذاتي تضم كل الطوائف المسيحية بهدف توفير ضمانات الحماية لها، وقال القيادي في المجلس الشعبي الكلداني السرياني الآشوري جونسون سياوش (نحن مع أي مبادرة تهدف إلى توحيد الكلمة، وسنحضر أي اجتماع يعقد في هذا الخصوص، لكننا لن نستمر في محاولات أو اجتماعات لا تتمحور بشأن مبدأ الحكم الذاتي لشعبنا... نحن نرى الحكم الذاتي هو الحل الأمثل لمشاكل شعبنا، نريد أن نكون مواطنين من الدرجة

الأولى لنا كل الحقوق وعلينا كل الواجبات وليس من الدرجتين الثانية أو الثالثة)[73]. وقال سياوش (إن المطالبة بإنشاء محافظة في سهل نينوى للمكون القومي الكلداني السرياني الآشوري لا يعني إنشاء كانتون على أساس طائفي أو عرقي، بل إن المحافظة المقترحة ستكون لكل المكونات في المنطقة... فنحن لا نريد الانفصال عن بقية المكونات)[74]. وفي السياق دعا ضياء بطرس سكرتير المجلس القومي الكلداني إلى أن الحل الصحيح هو في إقامة منطقة للحكم الذاتي بهدف الحفاظ على هوية الشعب المسيحي، وأكد بطرس أن هناك جهات سياسية لا تزال تعد المسيحيين من بقايا النظام السابق، وبالتالي يتم استهدافهم لتصفية الحساب معهم، رغم أن المسيحيين ناضلوا وقدموا شهداء في نضالهم ضد النظام السابق، ويرى بطرس أن هدف إقامة منطقة للحكم الذاتي قد رفع من قبل بعض الأحزاب والقوى السريانية والكلدانية منذ خمس سنوات، واستطاعت أن توصل مطالبها لبعض الأحزاب العراقية الموجودة في السلطة. أما في إقليم كردستان، فإن سلطات الإقليم تعترف في المادة (5) من دستور الإقليم بحق السريان والكلدان في إقامة منطقة للحكم الذاتي[75].

ولعل من الإشارات المهمة التي صدرت في هذا الاتجاه هو ما صرح به عبد الله النوفلي رئيس ديوان الوقف المسيحي السابق من ضرورة (تخصيص منطقة محمية للمسيحيين يلجؤون إليها عند تعرضهم للتهديد بدلا من الهجرة للخارج)[76]. وقال النوفلي في تصريح غريب إن: (المسيحيين بصورة عامة ليسوا عربا ولا أكرادا، لذلك هناك من يقول نريد حكما ذاتيا حالنا حال بقية مكونات الشعب العراقي، فالبصرة عندما دعت لحكم ذاتي كإقليم أقاموا استفتاء و لم ينجح... بينما عندما يطالب المسيحيون بحكم ذاتي فإن

جميع القوى تقف ضدهم، لماذا؟ بيساطة لأهم مسالمون. أعطوهم حرية ليقيموا استفتاء شعبيا، والاستفتاء هو الحكم بيننا)[77].

وهذا الأمر أكده أيضا عضو مجلس النواب المسيحي لويس كاردبندر من أن بإمكان المسيحيين الهجرة إلى إقليم كردستان باعتباره المكان الأكثر أمانا للأقلية المسيحية في العراق[78]. وللتخفيف من حدة الانتقادات التي وجهت إلى المشروع، فقد حاول القيادي المسيحي باسم بلعو، قائمقام قضاء تلكيف ذي الغالبية المسيحية في الموصل، التخفيف من دعوات بعض الأحزاب المسيحية لإقامة الحكم الذاتي حيث قال (نحن لا نؤيد مقولة الرئيس جلال الطالباني بشأن إمكانية إقامة محافظة للمسيحيين، ولكن نقول من خلال قراءة المادة 125 من الدستور العراقي، يمكن إيجاد آليات للتعامل مع واقع التهجير لمسيحيي نينوى)[79].

ومهما كانت قوة التصريحات المؤيدة لإقامة حكم ذاتي للمسيحيين، فإنها قوبلت بتصريحات مضادة لرجال دين وسياسيين مسيحيين عارضوا وبشدة إقامة أي منطقة خاصة بالمسيحيين، وقال السكرتير العام للحركة الديمقراطية الآشورية يونادم كنا في 2010/11/27، إن: (دعوات البعض إلى تسليح المسيحيين لحماية أنفسهم غير مقبولة)، موضحا أن (المسيحيين لا يقبلون أن يتحولوا إلى مليشيات أو صحوات جديدة من خلال السماح لهم بالاحتفاظ بقطعة سلاح واحدة، ولأن في تسليح المجتمع خطرا كبيرا على البلاد)[80].

من جهته رفض الفاتيكان ومجلس أساقفة العراق الذي يضم كرادلة يمثلون جميع الطوائف المسيحية دعوة الأحزاب السياسية المسيحية إلى إقامة منطقة حكم ذاتي للمسيحيين في شمال العراق

بهدف حمايتهم من الهجمات والاغتيالات التي يتعرضون لها، وقال الكاردينال متي شابا متوكا رئيس طائفة السريان الكاثوليك إن (مجلس أساقفة العراق يرفض إقامة منطقة آمنة للمسيحيين)، وأكد متوكا أن (الفاتيكان يدعم مجلس الأساقفة في هذا القرار، حيث إن مثل هذه المنطقة ستكون خطرة وليست آمنة) وشدد على أن العراق للجميع، ومن حق المسيحيين العيش في أية منطقة يختارون منها، وأن المسيحيين يجب أن يعيشوا في العراق مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات)، ووصف متوكا دعوات إقامة منطقة للحكم الذاتي بأنها عنصرية وطائفية وأن قيادات الأحزاب التي تتبنى هذه الدعوات هي ذات تفكير ضيق، ولا تفكر بمصلحة المسيحيين في هذا البلد، إذ إن لهم مصالح ومنافع من هذه الدعوات. وقال إن الحل هو في إقرار الأمن في العراق، وإن الفاتيكان لا يقبل هذه الدعوات ويدعو إلى توفير الأمن للمسيحيين[81].

ولعل أهم الدعوات الرافضة للحكم الذاتي هي التي صدرت عن الكاردينال عمانوئيل دلي الثالث، كاردينال الكنيسة الكاثوليكية في العراق، حيث رفض كل التصريحات والدعوات لإقامة محمية مسيحية، وقال إن (العراق بأجمعه هو مكاننا الآمن وإن ما أصاب المسيحيين أصاب كل أبناء الشعب العراقي الذي نعيش فيه منذ آلاف السنين، لا فرق بيننا في الحقوق والواجبات) وأكد دلي أن (التصريحات لإقامة منطقة للحكم الذاتي يراد بها حصر المسيحيين في منطقة واحدة، وهذا مخالف للواقع، حيث إن المسيحيين ينتشرون ويعيشون في كل محافظات العراق وبشكل أخوي مع المسلمين، فما يصيبهم يصيبنا، فماضينا واحد ومستقبلنا واحد)[82].

إن من المهم الإشارة إلى أن مطالبة بعض الجهات السياسية المسيحية بإقليم خاص للمسيحيين ستكون لها انعكاسات سلبية على الوجود المسيحي، ومن ثم على الوحدة الوطنية في العراق، إذ إنه سيشكل مدخلا مهما سيبنى عليه لاحقا المطالبة بحقوق سياسية واقتصادية تتجاوز إقليم الحكم الذاتي إلى المطالبة بكيان خاص أو إقليم مستقل له من الصلاحيات ما يتشابه إلى حد كبير مع صلاحيات الدولة المستقلة، ومثلما هو حاصل في إقليم كردستان. إن الطريقة المثلى للتعامل مع معاناة المسيحيين في نينوى أو كركوك أو حتى بغداد، هي في تفعيل قانون مجالس المحافظات الذي أعطى صلاحيات كبيرة لمجالس المحافظات والأقضية والنواحي تقوم على أساس اللامركزية الإدارية، التي تمنح السكان امتيازات وحقوقا تتوافق مع خصوصياتهم القومية والدينية والطائفية وواقعهم الاجتماعي والاقتصادي والثقافي[83]. إذ إن التعويل على هذا القانون يعد الضمانة الوحيدة للحفاظ على خصوصية المكون المسيحي في الواقع العراقي بدلا من دعوات الانعزال تحت مسميات الحكم الذاتي.

هوامش الفصل الخامس

(1) كريستوفر شير وآخرون، كذبات بوش الخمس الكبيرة التي أخبرنا بها عن العراق، ترجمة محمود علي عيسى، (دمشق: دار الكتاب العربي، 2004)، 10.

(*) بينت التقارير الأمريكية التي أصدرتها لجان تقصي الحقائق عن أسلحة الدمار الشامل العراقية بعد الاحتلال برئاسة ديفيد كي أن العراق خال تماما من تلك الأسلحة وأن لجان التفتيش الدولية قد دمرت كل مخزونات العراق من تلك الأسلحة بعد عام 1991. انظر بوب ودورد، حالة إنكار: حرب بوش، ترجمة فاضل جتكر، (الرياض: دار العبيكان، 2008)، 269.

(2) د. دهام محمد العزاوي، الاحتلال الأمريكي للعراق وأبعاد الفدرالية الكردية، 103.

(3) ريتشارد هاس، سيرة حربين على العراق: حرب الضرورة وحرب الاختيار، ترجمة نورما نابلسي، (بيروت: الكتاب العربي، 2010)، 303.

(4) د. دهام محمد العزاوي، الاحتلال الأمريكي...، 106.

(5) د. فاضل الربيعي، الاحتلال الأمريكي للعراق: تكتيك الهروب من كابوس الشرق الأوسط الجديد، نتائج وتداعيات، منشور في مجموعة باحثين، الاحتلال الأمريكي: صوره ومصائره، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2005)، 133.

(6) د. فاضل الربيعي، الاحتلال الأمريكي للعراق، 135.

(7) رائد الحامد، المرتزقة في العراق: ميليشيا وفرق الموت، منشور في مجموعة باحثين، الاحتلال الأمريكي للعراق: المشهد الأخير، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2007، ص 77.

(8) رائد الحامد، المرتزقة في العراق، 78، وكذلك ريتشارد هاس، سيرة حربين على العراق، 313.

(9) د. دهام محمد العزاوي، الاحتلال الأمريكي وأبعاد الفدرالية الكردية، 109.

(10) بثينة شعبان، ما الذي علينا فعله في العراق، الشرق الأوسط، لندن 2010/11/25.

(11) د. دهام محمد العزاوي، البعد الإسرائيلي في الاحتلال الأمريكي للعراق، مجلة شؤون عربية، العدد 134، (2008)، 201.

(12) د. حسن الحاج أحمد، تغيير الثقافة باستخدام السياسة: الولايات المتحدة وتجربة العراق، مجلة المستقبل العربي، العدد 294، (2003)، 67.

(13) نقلا عن د. دهام محمد العزاوي، الاحتلال الأمريكـــي وأبعـــاد الفدراليـــة الكردية، 205.
(14) سلامة نعمات، الخطة بـــي لشمال العراق نقطة انطلاق لعمليات سرية في سوريا وإيران، صحيفة الحياة، لندن في 2004/4/23.
(15) نقلا عن د. دهام محمد العزاوي، الاحتلال الأمريكـــي وأبعـــاد الفيدراليـــة الكردية، 215.
(16) مخطط صهيوني كردي في شمال العراق، صحيفة الشعب، القاهرة في 10 تشرين الأول/أكتوبر 2011.
(17) مخطط صهيوني كردي في شمال العراق، المصدر نفسه.
(18) انظر نص محاضرة وزير الأمن الإسرائيلي الأسبق آفي ديختر على موقع الزيتونة للدراسات والاستشارات في 2010/6/12.
(19) فائز عزيز أسعد، المسيحيون العراقيون والدستور والمواطنة، مجلة الفكـــر المسيحي، العدد 47-48، السنة الحادية والأربعون، (2005)، 165.
(20) تيسير عبد الجبار الألوسي، ثقافة التعددية والتنـــوع تسـمو أمـــام البنـــاء الديمقراطي، صحيفة الزمان، لندن في 2011/11/8.
(21) د. وحيد عبد المجيد، النظام السياسي العراقي الجديد: قراءة فـــي نمـــوذج الديمقراطية التوافقية، كراسات إستراتيجية، العدد 144، (القاهرة: مركـــز الدراسات السياسية والإستراتيجية، 2004)، 9.
(**) أصدر رئيس الوزراء نوري المالكي في 2010/12/10 أمرا بـــالعفو عـــن حملة الشهادات المزورة من المسؤولين الحكوميين. نقلا عن قناة الرافـــدين الإخبارية في 2010/12/10.
(22) د. عبد الحسين شعبان، جدل الهويات في العـــراق: الدولـــة والمواطنـــة، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010)، 46.
(23) تيسير عبد الجبار الألوسي، ثقافة التعددية والتنوع تسمو أمام البناء الديمقراطي.
(24) د. عبد الحسين شعبان، إشكاليات الدستور العراقي المؤقت: الحقوق الفردية والهياكل السياسية، كراسات إســـتراتيجية، (القـــاهرة: مركـــز الدراســـات السياسية والإستراتيجية، 2004)، 16.
(25) د. عبد الحسين شعبان، جدل الهويات في العراق، 74.
(26) د. برهان غليون، المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات، (بيـــروت: دار ســـينا للنشر، 1988)، 79.
(27) رجائي فايد، المأزق العراقي: مشكلات بناء الدولة في مجتمـــع تعـــددي، كراسات إستراتيجية، العدد 137، السنة الرابعة عشرة، (القـــاهرة: مركـــز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، 2004)، 27.

(28) نقلا د. فائز عزيز أسعد، المسيحيون العراقيون...، 162.
(29) د. فائز عزيز أسعد، المسيحيون العراقيون...، 163.
(30) مجدي خليل، من يقف وراء ما يحدث للمسيحيين في العـراق؟، صـحيفة الدستور، عمان في 2010/12/6.
(31) مجدي خليل، من يقف وراء ما يحدث للمسيحيين في العراق؟
(32) د. بشير موسى نافع، هويات متقاطعة أم هويات متصارعة، مجلة المستقبل العربـي، العدد 377، السنة الثالثة والثلاثون، (2010)، 120.
(33) مجدي خليل، محنة المسيحيين العـرب، موقـع الأقبـاط الأحـرار فـي 2005/9/6.
(34) منتدى كرمليس، التهديدات ضد المسيحيين لا زالت قائمة، شبكة الإنترنـت في كانون الأول/ديسمبر 2010.
(35) مجدي خليل، محنة المسيحيين العرب.
(36) نقلا عن صحيفة الزمان في 2008/11/9.
(37) نقلا عن قناة الرافدين، نشرة أخبار الساعة الثامنة مساء بتوقيت بغداد فـي 2011/1/3.
(38) نقلا عن منتدى كرمليس.
(39) د. عامر الزمالي، الفئات المحمية بموجب أحكام القانون للدولي الإنسـاني، منشور في شريف عتلم (محرر)، محاضرات في القانون الدولي الإنساني، (القاهرة: اللجنة الدولية للصليب الأحمر، 2005) ط5، 93.
(***) نظرا لمواقفه في الدعوة إلى الوحدة والسلام منحت مؤسسة درب السلام التابعة إلى الأمم المتحدة وسام العام 2009 للمطران بولس فرج رحـو في حفل أقيم في حزيران/يونيو، وبحضور عدد كبير من أبناء الجاليـة الكلدانية في أمريكا. نقلا عن مجلة الفكر المسيحي، العـدد 445-446، السنة الخامسة والأربعون، (2009)، 152.
(****) يلزم القانون الدولي الإنساني العرفي الدول التي يتعرض سلمها الأهلي لنـزاعات داخلية أو احتلال من قبل دولـة أجنبيـة بالحفـاظ علـى الممتلكات الثقافية وتجنب الأضرار بالمباني المكرسـة للـدين والفـن والعلوم والتربية والآثار التاريخية، كما يحظر الاسـتيلاء علـى هـذه المباني والآثار وتدميرها أو تعمد الإضرار بها. جون ماري هنكرتس، دراسة حول القانون الدولي الإنساني العرفي، ترجمة محسـن الجمـل، (القاهرة: اللجنة الدولية للصليب الأحمر، 2007)، 23.
(40) مجدي خليل، من يقف وراء ما يحدث للمسيحيين في العراق؟
(41) مجدي خليل، من يقف وراء ما يحدث للمسيحيين في العراق؟

(42) مجدي خليل، من يقف وراء ما يحدث للمسيحيين في العراق؟
(43) برنت رايت النازحون داخل بلدانهم، (القاهرة: اللجنة الدولية للصليب الأحمر، 2007)، 6.
(44) نقلا عن قناة الرافدين الإخبارية، بغداد في 2010/1/6.
(45) نقلا عن صحيفة الزمان، لندن في 2010/11/23.
(46) نقلا عن صحيفة الشرق الأوسط في 2010/9/15.
(47) نقلا عن صحيفة الزمان في 2010/10/20.
(48) نقلا عن مجلة نجم المشرق، العدد 56، السنة الرابعة عشرة، بغداد، نيسان/أبريل (2008)، 438.
(49) نقلا عن صحيفة الزمان في 2010/11/23.
(50) نقلا عن صحيفة الزمان في 2008/10/13.
(51) نقلا عن نجيب الخنزيري، محنة المسيحيين أم محنة العراق؟ موقع الحوار المفتوح في 2010/11/15.
(52) نجيب الخنزيري، محنة المسيحيين أم محنة العراق؟
(53) نجيب الخنزيري، محنة المسيحيين أم محنة العراق؟
(54) حوار مع الكاردينال عمانوئيل دلي الثالث، مجلة أطياف، العدد (1) بغداد خريف 2009، 19. وانظر أيضا تصريحات الكاردينال دلي في الشرق الأوسط في 2011/1/13.
(55) نقلا عن صحيفة الزمان في 2011/11/3.
(*****) يقر القانون الدولي الإنساني إجراءات محددة وواضحة لحماية المدنيين وعدم إرغامهم على النزوح عن أراضيهم أو ممارسة العنف ضدهم لبث الذعر بينهم في أوقات الأزمات والحروب الداخلية، للمزيد انظر د. عبد الغني عبد الحميد محمود، حماية ضحايا النزاعات المسلحة في القانون الدولي الإنساني والشريعة الإسلامية، (القاهرة: اللجنة الدولية للصليب الأحمر، القاهرة 2004)، 85.
(56) د. فائز عزيز أسعد، القلوب معنا والسيوف علينا، مجلة الفكر المسيحي، العدد 437-438، (2008)، 198.
(57) نقلا عن صحيفة الزمان، لندن في 2010/11/28.
(58) نقلا عن صحيفة الزمان في 2011/12/5.
(59) نقلا عن صحيفة الزمان في 2010/11/10.
(60) لقاء مع الناطقة باسم المفوضية العليا لشؤون اللاجئين ميليسا فليمنغ حول أوضاع المسيحيين في العراق في قناة الجزيرة الفضائية في قطر، نشرة أخبار الثامنة بتوقيت غرينتش في 2010/12/17.

(61) نقلا عن مجلة الفكر المسيحي، العدد 431-432، (2008)، 46.
(62) نقلا عن الناطقة باسم المفوضية العليا لشؤون اللاجئين ميليسا فليمنغ حول أوضاع المسيحيين في العراق، 47.
(63) نقلا عن فهمي هويدي، مواطنون لا ذميون، 55.
(64) نقلا عن الشرق الأوسط في 2008/10/21.
(65) هدى جاسم، محنة مسيحيي العراق.
(66) نقلا عن صحيفة الزمان في 2010/11/23.
(67) هدى جاسم، محنة مسيحيي العراق.
(68) هدى جاسم، محنة مسيحيي العراق.
(69) هدى جاسم، محنة مسيحيي العراق.
(70) هدى جاسم، محنة مسيحيي العراق.
(71) أمين معلوف، الهويات القاتلة، ترجمة نهلة بيضون، (دمشق: دار الجندي، 1999)، 48.
(72) لقاء خاص مع أحد المسيحيين العراقيين المهاجرين في بريطانيا على قناة بي بي سي في 2010/11/7.
(73) نقلا عن صحيفة الزمان في 2010/11/23.
(74) نقلا عن صحيفة الزمان في 2011/5/29.
(75) وردت تصريحات ضياء بطرس في لقاء تلفزيوني على قناة الجزيرة في نشرة أخبار الثامنة بتوقيت غرينتش في يوم الجمعة 2010/12/17.
(76) نقلا عن صحيفة الزمان في 2010/12/23.
(77) عبد الله النوفلي، المسيحيون في العراق هم أهل البلاد الأصليون، 8.
(78) نقلا عن الزمان في 2011/4/19.
(79) نقلا عن نشرة أخبار قناة الحرة في الثامنة مساء بتوقيت بغداد في 2010/12/10.
(80) نقلا عن صحيفة الزمان في 2010/11/28.
(81) نقلا عن صحيفة الزمان في 2010/11/28.
(82) نقلا عن صحيفة الزمان في 2011/4/19.
(83) د. طه حميد العنبكي، العراق: بين اللامركزية الإدارية والفدرالية، (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، 2011)، 76.

مستقبل الوجود المسيحي في العراق

رغم التراجع النسبي في عمليات استهداف المسيحيين وأماكن عبادهم وسكنهم، فإنه وفي ظل بقاء الأوضاع السياسية والأمنية المنفلتة في العراق، من المرجح أن يعود ذلك الاستهداف في أي لحظة تتقاطع فيها مصالح فرقاء العملية السياسية في العراق، ولذلك من الواضح أن مستقبل المسيحيين في العراق سيبقى تكتنفه الكثير من المخاطر وسيظل عرضة للتقلبات ما لم تحدد عوامل الاستقرار في المشهد العراقي، فضلا عن أن ذلك المستقبل يظل مرهونا بتغير أو تطور عوامل متعددة.

أولها: موقف القوى السياسية والدينية المسيحية نفسها، من حيث قدرها على توحيد خطاها السياسي والسعي الجاد لنبذ مشروع المحاصصة الطائفية والدينية، الذي انعكس على تفكيك الموقف المسيحي، ومن حيث رفض المشاريع الأجنبية الوافدة التي تحض على هجرة المسيحيين وتيسير سبل الحصول على الإقامة والاستقرار في الولايات المتحدة والدول الأوروبية، مما يقطع جذورهم وانتماءاهم الثقافية والاجتماعية عن موطنهم الأصلي العراق، ورغم أن الكثير من التصريحات والخطابات المسيحية التي صدرت قد نبذت الطائفية السياسية المنتهجة في الحياة السياسية العراقية، وحثت المسيحيين على الثبات في العراق والتمسك بأهداب

الوطن والصبر على المعاناة التي يواجهونها، فإن الخطاب المسيحي إجمالا كان منقسما في هذا الاتجاه، إذ انخرطت كثير من القوى المسيحية في مشروع المحاصصة الطائفية والدينية والعرقية، ورفعت نفس الشعارات التي رفعتها القوى الشيعية والسنية والكردية، من أن المشاركة في السلطة والانغماس في مخرجاتها هي الضمانة الوحيدة للحفاظ على الهوية المسيحية، في حين بقيت الكثير من القوى المسيحية الأخرى عازفة عن الاندماج في الحياة السياسية لاعتبارات ذاتية. أما الموقف من هجرة المسيحيين فهو يتسم بالانقسام، ففي حين لم تبدِ قوى مسيحية أي موقف وطني حيال هجرة آلاف المسيحيين، بل دعت علانية إلى تسهيل هجرتهم إلى الخارج أو إقامة مناطق آمنة أو مناطق للحكم الذاتي، فإن قوى أخرى عارضت هذا الموقف من منطلقات وطنية ودينية تهدف إلى الحفاظ على الوجود المسيحي في العراق. إن توحيد الخطاب المسيحي كفيل بتوحيد المطالب والضغوط المسيحية على القوى السياسية العراقية الأخرى لكي تتبنى مواقف أكثر جدية في حماية المسيحيين في العراق، وبما يضمن مستقبلا ثباتهم في العراق.

أما ثاني العوامل فهو الذي يرتبط بإرادة القوى الخارجية المتحكمة أو المتدخلة في الساحة العراقية، فمتى ما غيرت تلك القوى وفي مقدمتها الولايات المتحدة من سياستها الداعمة لنظام المحاصصة الطائفية والعرقية وتغذية عوامل الانقسام في المشهد العراقي، وسعت إلى سياسة عقلانية تقوم على المشاركة الإستراتيجية التي تحقق مصالحها السياسية والاقتصادية في العراق وفق أسس السيادة والاحترام المتبادل، فإن ذلك سيؤدي إلى تحقيق قدر من الاستقرار السياسي والاقتصادي في العراق، وبما ينعكس بالنتيجة على استقرار

المسيحيين وعودة اندماجهم في الحياة السياسية والاجتماعية العراقية.
أما فيما يتعلق بموقف القوى الأوروبية، فإن كفها عن تقديم إغراءات الهجرة وتسهيل إجراءات استقبال المسيحيين العراقيين، سيساعد بكل تأكيد في تثبيت الكثير من العائلات المسيحية في واقعها العراقي، وتطمح قوى مسيحية وطنية أن تستجيب بعض القوى الأوروبية لندائها في سبيل الكف عن تقديم تسهيلات طلبات اللجوء للمسيحيين والتوجه بدلا عن ذلك إلى تقديم العون المادي والمعنوي لكثير من العائلات المسيحية داخل العراق، وبما يساعد في عودتهم إلى أماكن سكنهم وعملهم وتثبيتهم بوجه محاولات اقتلاعهم.

أما العامل الثالث فيتعلق بموقف القوى السياسية المحلية بشقيها الشعبي والرسمي، أما فيما يتعلق بموقف القوى الشعبية فيتمثل في تبني الآليات والإجراءات التي تساعد في زيادة اندماج المسيحيين في محيطهم الاجتماعي، عبر استقبال العائدين إلى ديارهم، وتشكيل لجان شعبية للمساعدة في حماية المناطق المسيحية والحث على تقديم المساعدات المالية للمتضررين منهم، والسعي لإيجاد فرص عمل لتشغيل العاطلين منهم بهدف تضميد شيء من جراحاتهم النازفة بسبب ممارسات التهجير، ولا بد أن يتولى رجال الدين المسلمون أمر توعية أتباعهم وحثهم على حماية المسلمين باعتباره واجبا وطنيا ودينيا مقدسا، وإدانة أي عمليات إرهابية تستهدفهم، وإصدار الفتاوى التي تكفر القائمين بها، وإبراز النصوص الدينية الإسلامية التي تدعو إلى التسامح والتعايش السلمي بين الناس، وبغض النظر عن اختلافاتهم الدينية، إذ إن سياسة الفرض والإلغاء للآخر لا تؤدي إلا إلى زيادة مساحة التوتر وضرب الاستقرار السياسي والاجتماعي الذي يضر بمصالح المجتمع قاطبة.

أما على المستوى الرسمي، فيتوجب على الحكومة العراقية والقوى السياسية المشتركة فيها تبني السياسات العملية لتوفير الحماية لأماكن العبادة للمسيحيين، ولا سيما في المناسبات الدينية بهدف تمكينهم من أداء فروضهم التعبدية بحرية تامة، كما أن من واجب الحكومة العراقية ملاحقة مرتكبي جرائم القتل والتهجير التي مورست بحق المسيحيين وتقديمهم للمحاكمة، إذ إن السكوت والصمت على تلك الجرائم يزرع الشك والقلق في نفوس المسيحيين من احتمالية تكرارها، فضلا عن تبني خطاب سياسي وطني متوازن يتعزز من خلاله مفهوم المواطنة الذي يساوي بين جميع العراقيين، وبغض النظر عن انتماءاتهم الدينية والقومية، إضافة إلى اتباع خطاب إعلامي يعزز من قيم التسامح والتعاون بين العراقيين، ويرفض قيم التعصب والكراهية للآخر، إضافة إلى تبني إستراتيجية إدخال مناهج ومواد دراسية تساعد في تخفيف التعصب الديني والمذهبي والكراهية للآخر المختلف دينيا ومذهبيا، مثل مبادئ علم الاجتماع وحقوق الإنسان، فضلا عن إطلاق حملات وطنية أو يوم وطني للتضامن مع الجماعات الدينية، ويمكن أن يطلق عليه (يوم الأخوة الوطني) يشكل فرصة للتعريف بتاريخ تلك الجماعات وجذور نشأتها وإسهاماتها التاريخية في حضارة العراق، فلا يزال الكثير من العراقيين يجهلون تاريخ تلك الجماعات، ولا سيما المسيحيون وإسهاماتهم المختلفة والمتنوعة في تاريخ العراق القديم والحديث والمعاصر.

وأخيرا لا بد من سياسات حكومية فاعلة لترشيد الخطاب الإعلامي ودفعه ليكون خطابا ذا رسالة وطنية غايته بناء ثقافة وطنية جامعة، إذ لا تزال بعض وسائل الإعلام (فضائيات، محطات أرضية، صحافة، إذاعة) تمارس دورا مؤثرا في نشر جو من التعصب والكراهية

بين أديان ومذاهب العراق، عبر تبنيها للخطاب الطائفي والديني الذي يعتمد على مصطلحات مفرقة وغير جامعة وعبارات مشحونة تقوم على أساس جهل القائمين عليها بخصوصية الآخر أو لتجاهلها لمسؤوليتها الإعلامية والاجتماعية تجاه أبناء الوطن الواحد.

إن تلك الآليات والإجراءات تعيد ثقة المسيحيين وغيرهم من الجماعات الدينية الأخرى بوطنهم ومجتمعهم العراقي، كما تعيد تشكيل وعيهم على أساس وطني وبما يخفف مستقبلا من أي جنوح لنبذ الوطن أو الهجرة منه.

مصادر الكتاب

أولا: الكتب

1 – القرآن الكريم.

2 – صحيح مسلم بشرح النووي، المجلد الثامن، تحقيق مجموعة باحثين، دار الحديث، القاهرة ط4، 2001.

3 – الإمام محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، بيروت 2005.

4 – ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، طبع دار الحديث، القاهرة، ج2-6، 2002.

5 – ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، شركة التايمس، بغداد، ج1-2، 1985.

6 – ألبير أبونا، شهداء المشرق، مكتبة النور، بغداد 1985.

7 – ابرم شبيرا، الآشوريون في الفكر العراقي المعاصر، دار الساقي، بيروت 2001.

8 – د. إسماعيل عبد الفتاح، القيم السياسية في الإسلام، الدار الثقافية الجديدة، القاهرة 2001.

9 – أبو حامد الغزالي، مقامات العلماء بين يدي الخلفاء والأمراء، تحقيق محمد جاسم الحديثي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد 1988.

10 – أ. س. ترتون، أهل الذمة في الإسلام، ترجمة حسن حبشي، بلا دار نشر، بلا مكان نشر، سنة 1949.

11 – أمين معلوف، الهويات القاتلة، ترجمة نهلة بيضون، دار الجندي، دمشق 1999.

12 – أني جوبير، المسيحيون الأولون، تعريب الأب ألبير أبونا، بغداد 1982.

13 – أورخان محمد علي، السلطان عبد الحميد الثاني: حياته وأحداث عهده، دار النيل، القاهرة 2008.

14 – أيمن عبد العزيز جبر، روائع البيان لمعاني القرآن، دار الأرقم، عمان، بلا تاريخ.

15 – بوب وودورد، حالة إنكار: حرب بوش، ترجمة فاضل جتكر، دار العبيكان، الرياض 2008.

16 – د. برهان غليون، المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات، دار سينا للنشر، بيروت 1988.
17 – برنت رايت، النازحون داخل بلدانهم، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، القاهرة، تموز /يوليو 2007.
18 – د. بطرس حداد، كنائس بغداد ودياراتها، شركة الديوان للطباعة، بغداد 1994.
19 – بولس وسيم، تاريخ الكنيسة المفصل، ترجمة أنطوان الغزال وصبحي حموي اليسوعي، مكتبة الشرق، المجلد الثالث، بيروت 2002.
20 – تيودور خوري ومشير باسيل عون، الرحمة الإلهية في المسيحية والإسلام، المكتبة البولسية، بيروت 1999.
21 – جاريث ستانسفيلد، العراق: الشعب والتاريخ والسياسة، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، أبو ظبي 2009.
22 – د. جميل موسى النجار، التعليم العالي في العراق في العهد العثماني الأخير: 1869–1918، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 2002.
23 – جوزيف نعيم، هل ستفنى هذه الأمة؟ ترجمة نافع كوسا، شركة الأطلس، بغداد 2006.
24 – جورج قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1984.
25 – جون ك. كولي، تواطؤ ضد بابل: أطماع الولايات المتحدة وإسرائيل في العراق، ترجمة أنطوان باسيل، شركة المطبوعات، بيروت 2006.
26 – جان موريس فييه الدومنيكي، الآثار المسيحية في الموصل، ترجمة نجيب قاقو، مطبعة الطيف، بغداد 2000.
27 – جون ماري هنكرتس، دراسة حول القانون الدولي الإنساني العرفي، ترجمة محسن الجمل، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، القاهرة 2007.
28 – د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد، ط2، 1993.
29 – د. خير الدين حسيب، العراق من الاحتلال إلى التحرير، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2006.
30 – حسين عويدات، العرب النصارى: عرض تاريخي، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق 1992.
31 – حنا بطاطو، العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1990.

32 – د. دهام محمد العزاوي، الأقليات والأمن القومي العربـي: دراسة في البعد الداخلي والإقليمي والدولي، دار وائل، عمان 2003.
33 – د. دهام محمد العزاوي، الاحتلال الأمريكـي للعـراق وأبعـاد الفدراليـة الكردية، مركز الجزيرة للدراسات، الدوحة 2009.
34 – رجائي فايد، المأزق العراقي: مشكلات بناء الدولة في مجتمـع تعـددي، كراسات إستراتيجية، العدد 137، السنة الرابعة عشـرة، مركـز الأهـرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، القاهرة 2004.
35 – د. رشيد الخيون، المجتمع العراقي: تـراث التسـامح والتكـاره، معهـد الدراسات الإستراتيجية، بغداد 2008.
36 – د. رشيد الخيون، الأديان والمذاهب بالعراق، مطبعة روح الأمين، لنـدن، 2002.
37 – روبنس دوفال، تاريخ الأدب السـرياني، ترجمـة الأب لـويس قصـاب، منشورات مطرانية السريان الكاثوليك، بغداد 1992.
38 – ريتشارد هاس، سيرة حربين على العـراق: حـرب الضـرورة وحـرب الاختيار، ترجمة نورما نابلسي، الكتاب العربـي، بيروت 2010.
39 – د. سهيل قاشا، عراق الأوائل: حضارة وادي الرافدين، شـركة العـارف، بيروت 2010.
40 – د. سهيل قاشا، تاريخ نصارى العراق، دار الرافـدين للطباعـة، بيـروت 2010.
41 – سيف الدين الكاتب وآخرون، أطلس العصر النبوي وعصر الخلافة الراشدة في سياق الأحداث وتجليات الحضارة، دار الشرق العربـي، حلب 2008.
42 – سليم مطر، جدل الهويات، المؤسسة العربية للدراسات والنشـر، بيـروت 2003.
43 – ستيفن همسلي لونكريك وفرانك ستوكس، العراق منذ فجر التـاريخ حتـى ثورة 1958، ترجمة مصطفى نعمان أحمد، مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي، بغداد 2008.
44 – ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمـة جعفر الخياط، دار الرافدين، بيروت ط5.
45 – د. سعيد حوا، الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1979.
46 – سامي أبو زيد وآخرون، أدب صدر الإسلام والدولة الأمويـة، دار حنـين ومكتبة الفلاح، الكويت 2007.
47 – د. طه حميد العنبكي، العراق: بين اللامركزية الإدارية والفدرالية، مركـز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، أبو ظبـي 2011.

48 – د. عامر الزمالي، الفئات المحمية بموجب أحكام القانون الدولي الإنساني، منشور في شريف عتلم (محرر)، محاضرات في القانون الدولي الإنساني، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، القاهرة، ط5، 2005.
49 – د. عبد الحسين شعبان، فقه التسامح في الفكر العربي الإسلامي: الثقافة والدولة، دار النهار، بيروت 2005.
50 – د. عبد الحسين شعبان، جدل الهويات في العراق: الدولة والمواطنة، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت 2010.
51 – د. عبد الحسين شعبان، إشكاليات الدستور العراقي المؤقت: الحقوق الفردية والهياكل السياسية، كراسات إستراتيجية، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية، القاهرة 2004.
52 – د. عبد الغني عبد الحميد محمود، حماية ضحايا النزاعات المسلحة في القانون الدولي الإنساني والشريعة الإسلامية، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، القاهرة، ط3، 2009.
53 – د. عبد الأمير الرفيعي، العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية، الفرات للتوزيع والنشر، بيروت 2002.
54 – عبد الحكيم حسن العيلي، الحريات العامة في الفكر والنظام السياسي في الإسلام: دراسة مقارنة، دار الفكر العربي، القاهرة 1974.
55 – عبد المجيد حسيب القيسي، التاريخ السياسي والعسكري للآشوريين في العراق، الدار العربية للموسوعات، بيروت.
56 – د. عبد الكريم زيدان، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، مؤسسة الرسالة، بغداد، ط2، 1976.
57 – عبد الهادي عاصي، المنهج السياسي عند الإمام علي، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت 1996.
58 – فالح عبد الجبار وهشام داود، الإثنية والدولة: الأكراد في العراق وإيران وتركيا، ترجمة عبد الإله النعيمي، معهد الدراسات الإستراتيجية، بغداد – بيروت 2006.
59 – د. فدوى أحمد نصيرات، المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية في بلاد الشام ومصر سلسلة أطروحات الدكتوراه، (77) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2009.
60 – فيبي مار، تاريخ العراق المعاصر: العقد الجمهوري الأول، ترجمة مصطفى نعمان أحمد، مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي، القاهرة 2009.
61 – فهمي هويدي، مواطنون لا ذميون، دار الشروق، القاهرة، ط4، 2005.

62 – د. قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1990.
63 – كريستوفر شير وآخرون، كذبات بوش الخمس الكبيرة التي أخبرنا بها عن العراق، ترجمة محمود علي عيسى، دار الكتاب العربي، دمشق 2004.
64 – لورانت شابري واني شابري، سياسة وأقليات في الشرق الأدنى: الأسباب المؤدية للانفجار: ترجمة ذوقان قرقوط، مكتبة مدبولي، القاهرة 1991.
65 – لويس شيخو، شعراء النصرانية بعد الإسلام، منشورات دار المشرق، بيروت، ط5، 1999.
66 – لويس شيخو، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، منشورات دار المشرق، بيروت 1986.
67 – لويس شيخو، وزراء النصرانية وكتابها في الإسلام، مركز التراث العربي المسيحي، بيروت 1987.
68 – لويس شيخو، علماء النصرانية في الإسلام، مركز التراث العربي المسيحي، بيروت 2009.
69 – لويس ساكو، تاريخ الكنيسة الكلدانية، ديوان أوقاف المسيحيين والديانات الأخرى، كركوك، 2006.
70 – محمد بن إدريس الشافعي، كتاب الأم، ج7.
71 – د. محمد منير سعد الدين، العيش المشترك الإسلامي–المسيحي في ظل الدولة الإسلامية: شهادة من التاريخ، المكتبة البولسية، بيروت 2001.
72 – مجموعة باحثين، الاحتلال الأمريكي: صوره ومصائره، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2005.
73 – مجموعة باحثين، الاحتلال الأمريكي للعراق: المشهد الأخير، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2007.
74 – مجموعة باحثين، قراءات في الفكر القومي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1992.
75 – د. محمد علي الشمراني، صراع الأضداد: المعارضة العراقية بعد حرب الخليج، دار الحكمة، لندن 2003.
76 – محمد السماك، الأقليات بين العروبة والإسلام، دار العلم للملايين، بيروت 1990.
77 – ميخائيل الجميل، تاريخ وسير: كهنة السريان الكاثوليك من 1750–1985، مطابع حبيب إخوان، بغداد 1986.
78 – ميخائيل الجميل، السلاسل التاريخية في أساقفة الأبرشيات السريانية من 1900 إلى 2003، مطابع الموصل 2003.

79 – د. نريمان عبد الكريم، حقوق غير المسلمين في الدولة الإسلامية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1996.
80 – د. نيفين عبد المنعم مسعد، الأقليات والاستقرار السياسي في الوطن العربي، مركز الأهرام للدراسات السياسية، القاهرة 1988.
81 – د. وجيه كوثراني، السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، سلسلة أطروحات الدكتوراه، (13) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1988.
82 – د. وحيد عبد المجيد، النظام السياسي العراقي الجديد: قراءة في نموذج الديمقراطية التوافقية، كراسات إستراتيجية، العدد 144، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية، القاهرة 2004.
83 – د. وميض عمر نظمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1985.
84 – د. يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي. مؤسسة الرسالة، القاهرة، ط3، 1994.
85 – د. يوسف القرضاوي، الأقليات الدينية والحل الإسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت 2000.
86 – د. يوسف حبي، كنيسة المشرق، منشورات المكتبة الوطنية، بغداد 1989.

ثانيا: الدوريات والمجلات:

1 – ألبير أبونا، كوخي: الكنيسة الأولى في العراق، مجلة نجم المشرق، العدد (23) السنة السادسة، بطريركية بابل الكلدانية، بغداد، آذار/مارس 2000.
2 – أفرام سقط، موقع العراق من الحركة المسكونية، مجلة الفكر المسيحي، العدد 218–219، السنة الثانية والعشرون، تشرين الأول – تشرين الثاني 1986.
3 – أفرام حنا نور الدين، الحيرة مهد النصرانية في وادي الرافدين، مجلة صدى النهرين، العدد 16، السنة الثالثة، ديوان أوقاف المسيحيين والديانات الأخرى، بغداد 2007.
4 – أيريكا دي هنتر، حاضرة الحيرة المسيحية، ترجمة عزيز عمانوئيل زيباري، مجلة بين النهرين، العدد 149–150، السنة 38، بغداد 2010.
5 – أندراوس أبونا، الحيرة عاصمة وحضارة، مجلة بين النهرين، العدد 133–134، السنة 34، دار نجم المشرق، بغداد 2006.

6 – بولص أليا كجو، حقائق عن تيمور لنك، مجلة السراج، العدد 25-26، السنة السابعة، جمعية القوش الثقافية، الموصل، 2010.
7 – د. بطرس حداد، المراتب الكهنوتية في كتاب مروج الذهب للمسعودي، مجلة نجم المشرق، العدد 23، السنة السادسة، بطريركية بابل الكلدانية، بغداد 2000.
8 – د. بشير موسى نافع، هويات متقاطعة، لم هويات متصارعة، مجلة المستقبل العربي، العدد 377، السنة الثالثة والثلاثون، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت تموز/يوليو 2010.
9 – برنادیت عفاص، الآباء الكرمليون في العراق، مجلة الفكر المسيحي، العدد 241، السنة 25، الموصل، كانون الثاني 1989.
10 – جميل روفائيل، الآشوريون في العراق: من مجد آشوربينيال إلى حكم صدام، مجلة الوسط السياسي، العدد 609، بغداد، في 2003/9/29.
11 – د. خوشابا حنا الشيخ، الطوائف المسيحية في العراق، مجلة مسارات، العدد 14، السنة الخامسة، مؤسسة مسارات للتنمية الثقافية والإعلامية، بغداد 2010.
12 – د. خوشابا حنا الشيخ، نشأة المسيحية في العراق، مجلة أطياف، العدد (1) مركز الإشراق للدراسات والبحوث، بغداد 2009.
13 – د. خوشابا حنا الشيخ، نشأة المسيحية في العراق، مجلة أطياف، العدد (1) مركز الإشراق للدراسات والبحوث، بغداد 2009.
14 – د. حسن الحاج أحمد، تغيير الثقافة باستخدام السياسة: الولايات المتحدة وتجربة العراق، مجلة المستقبل العربي، العدد 294، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت آب/أغسطس 2003.
15 – د. دهام محمد العزاوي، البعد الإسرائيلي في الاحتلال الأمريكي للعراق، مجلة شؤون عربية، العدد 134، جامعة الدول العربية، القاهرة 2008.
16 – د. رشيد الخيون، المجتمع العراقي: الصورة المشرقة في التعايش، مجلة أطياف، العدد الأول، مركز الإشراق للدراسات والبحوث، بغداد 2009.
17 – د. سعدي المالح، مسيحيو العراق ودورهم في نشأة الموسيقى العراقية المعاصرة وتطورها، مجلة مسارات، العدد 14، السنة الخامسة، مؤسسة مسارات للتنمية الثقافية والإعلامية، بغداد 2010.
18 – سرهب يوسب جمو، الكنيسة الكلدانية في الوثائق التاريخية، مجلة نجم المشرق، العدد 46، السنة الثانية عشرة في شباط 2006.
19 – د. سهى رسام، جذور المسيحية في العراق حتى دخول الإسلام، مجلة مسارات، العدد 14، السنة الخامسة، مؤسسة مسارات للتنمية الثقافية والإعلامية، بغداد 2010.

20 – عبد الله النوفلي، المسيحيون في العراق هم أهل البلاد الأصليون، مجلة مسارات، العدد 14، السنة الخامسة، مؤسسة مسارات للتنمية الثقافية والإعلامية، بغداد 2010.

21 – عبد الأمير الحمداني، مسيحيو جنوب العراق: الناس والأديرة والكنائس، مجلة مسارات، العدد 14، السنة الخامسة، مؤسسة مسارات للتنمية الثقافية والإعلامية، بغداد 2010.

22 – د. فائز عزيز أسعد، تجديد الدور العربي المسيحي، مجلة مسارات، العدد 14، السنة الخامسة، مؤسسة مسارات للتنمية الثقافية والإعلامية، بغداد 2010.

23 – د. فائز عزيز أسعد، المسيحيون العراقيون والدستور والمواطنة، مجلة الفكر المسيحي، العدد 47–48، السنة الحادية والأربعون، دير الآباء الدومنيكيين في العراق، تموز/يوليو 2005.

24 – د. فائز عزيز أسعد، القلوب معنا والسيوف علينا، مجلة الفكر المسيحي، العدد 437–438، دير الآباء الدومنيكيين في العراق، بغداد، تموز – تشرين الأول 2008.

25 – فائز عزيز أسعد، المسيحيون العراقيون والدستور والمواطنة، مجلة الفكر المسيحي، العدد 47–48، السنة الحادية والأربعون، دير الآباء الدومنيكيين في العراق، تموز/يوليو 2005.

26 – د. فائز عزيز أسعد، القلوب معنا والسيوف علينا، مجلة الفكر المسيحي، العدد 437–438، دير الآباء الدومنيكيين في العراق، بغداد، تموز – تشرين الأول 2008.

27 – فؤاد يوسف قزانجي، خلفية تاريخية للعصر الفارسي السرياني في العراق (80–637م)، مجلة بين النهرين، العدد 131–132، السنة 33، دار نجم المشرق، بغداد 2005.

28 – د. فؤاد يوسف قزانجي، الآراميون في بلاد ما بين النهرين، مجلة الفكر المسيحي، السنة 44، العدد 437–438، ديوان أوقاف المسيحيين والديانات الأخرى، بغداد 2007.

29 – فؤاد يوسف قزانجي، الكلدانيون: لمحة موجزة عن تاريخهم العريق، مجلة ما بين النهرين، العدد 141–142، السنة (36)، دار المشرق، بغداد 2008.

30 – فؤاد يوسف قزانجي، كشكر أول مدينة مسيحية في بلاد الرافدين، مجلة الفكر المسيحي العدد 441–442، ديوان أوقاف المسيحيين والديانات الأخرى. بغداد، كانون الثاني 2009.

31 – كريم عبد الحسين العزاوي، الأب أنستاس الكرملي رائد الصحافة العراقية، مجلة مسارات، العدد 14، السنة الخامسة، مؤسسة مسارات للتنمية الثقافية والإعلامية، بغداد 2010.
32 – لويس ساكو، المسيحيون بين انقسامات الماضي وتحديات المستقبل، مجلة الفكر المسيحي، العدد 241، السنة (25) كنيسة مار توما، الموصل، كانون الثاني 1989.
33 – لويس شيخو، المسيحيون ودورهم في بناء حضارة العراق، مجلة مسارات، العدد 14، السنة الخامسة، مؤسسة مسارات للتنمية الثقافية والإعلامية، بغداد 2010.
34 – محمد كامل روكان، اللغة الآرامية في بلاد الرافدين: دراسة تاريخية، مجلة بين النهرين، العدد133–134، السنة 34، دار نجم المشرق، بغداد 2006.
35 – مازن منير المصفي، تاريخ المسيحية في العراق، مجلة صدى النهرين، العدد التاسع، السنة الخامسة، ديوان أوقاف المسيحيين والديانات الأخرى، بغداد 2009.
36 – يعقوب أفرام منصور، يوسف غنيمة بمناسبة مرور نصف قرن على وفاته، مجلة نجم المشرق، العدد 23، السنة السادسة، بطريركية بابل الكلدانية، بغداد 2000.
37 – يوارش هيدو، لمحة من تاريخ كنيسة المشرق، مجلة صدى النهرين، العدد الأول، السنة الأولى، ديوان أوقاف المسيحيين والديانات الأخرى، بغداد 2005.
38 – مجلة الفكر المسيحي، العدد 445–446، السنة الخامسة والأربعون، بغداد، أيار – حزيران 2009.
39 – مجلة نجم المشرق، العدد 56، السنة الرابعة عشرة، بغداد، نيسان/أبريل 2008.
40 – مجلة أطياف، العدد (1) بغداد، خريف 2009.
41 – مجلة أطياف، العدد (1) بغداد، خريف 2009.
42 – مجلة الفكر المسيحي، العدد 431–432، بغداد 2008.

ثالثا: المقالات الصحفية والإلكترونية

1 – بثينة شعبان، ما الذي علينا فعله في العراق، الشرق الأوسط، لندن 2010/11/25.
2 – تيسير عبد الجبار الألوسي، ثقافة التعددية والتنوع تسمو أمام البناء الديمقراطي، صحيفة الزمان، لندن في 2011/11/8.

3 – د. سيار الجميل، مأساة الأقليات في العراق، صحيفة البيان الإماراتية في 14 أكتوبر 2008.
4 – سيار الجميل، الأرمن العراقيون: الخصوصية والجاذبية والأسرار الحيوية، (الحلقة الثالثة) مقال منشور على موقع إيلاف في 2010/10/26 www.elaph.com.
5 – د. سيار الجميل، المسيحيون العراقيون: وقفة تاريخية عند الأدوار النهضوية والوطنية الحديثة، مقال منشور في موقع الدكتور سيار الجميل في 2009 www.sayyaraljamil.com.
6 – د. سيار الجميل: الأرمن العراقيون: الخصوصية والجاذبية (الحلقة الثانية) منشور في موقع إيلاف في 20–2010/10/21 www.elaph.com.
7 – سلامة نعمات، الخطة بـ ي لشمال العراق نقطة انطلاق لعمليات سرية في سوريا وإيران، صحيفة الحياة، لندن في 2004/4/23.
8 – عبد اللطيف الفرفور، الإسلام لا يعرف الانغلاق والعنف أكبر خطر على الدعوة، ندوة أي إسلام نريد؟ نظمتها صحيفة الشرق الأوسط، لندن في 1998/9/21.
9 – نعيم عبد مهلهل، مسيحيو سهل نينوى، صحيفة الزمان، لندن في 2010/3/10.
10 – مجدي خليل، من يقف وراء ما يحدث للمسيحيين في العراق؟ صحيفة الدستور، عمان في 2010/12/6.
11 – مجدي خليل، محنة المسيحيين العرب، موقع الأقباط الأحرار في 2005/9/6.
12 – هدى جاسم، محنة مسيحيو العراق، جريدة الشرق الأوسط، لندن، في 2010/3/17.
13 – نجيب الخنزيري، محنة المسيحيين أم محنة العراق، موقع الحوار المفتوح في 2010/11/15.

رابعا: الصحف والمواقع الإلكترونية والقنوات الفضائية

1 – صحيفة الزمان في 2008/11/9.
2 – صحيفة الزمان في 2008/10/13.
3 – صحيفة الزمان في 2010/10/20.
4 – صحيفة الزمان في 2010/11/23.
5 – صحيفة الزمان في 2010/11/28.

6 – صحيفة الزمان في 2010/11/23.
7 – صحيفة الزمان في 2010/11/10.
8 – صحيفة الزمان في 2010/11/28.
9 – صحيفة الزمان في 2010/11/23.
10 – صحيفة الزمان في 2010/11/23.
11 – صحيفة الزمان في 2011/5/29.
12 – صحيفة الزمان في 2011/11/3.
13 – صحيفة الزمان في 2011/12/5.
14 – صحيفة الزمان في 2011/4/19.
15 – صحيفة الزمان في 2010/12/23.
16 – صحيفة الزمان في 19/ 2011/4.
17 – الشرق الأوسط في 2008/10/21.
18 – الشرق الأوسط في 2010/9/15.
19 – الشرق الأوسط في 2011/1/13.
20 – موقع الجزيرة نت في 2010/12/7.
21 – موقع الزيتونة للدراسات والاستشارات 2011.
22 – منتدى كرمليس، كانون الأول/ديسمبر 2010.
23 – قناة الرافدين الإخبارية في 2010/12/10.
24 – قناة الرافدين الإخبارية في 2010/1/6.
25 – قناة الرافدين الإخبارية في 2011/1/3.
26 – قناة الجزيرة في 2010/12/17.
27 – قناة الجزيرة في 2010/12/17.
28 – قناة بــي بــي سي في 2010/11/7.
29 – قناة الحرة في الثامنة مساء بتوقيت بغداد في 2010/12/10.

تعريف بالكاتب

دكتور دهام محمد العزاوي، من مواليد العـــراق عـــام 1970، وحائز على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسـية.

أستاذ وباحـث في قسم النظم السياسية والسياسات العامـــة في كلية العلوم السياسية بجامعة النهرين في بغداد.

عمل باحثا متفرغا في مركز الدراسات الدولية في جامعة بغداد بين عامي 1995 و2001. انتقل بعد ذلك للبحث والتدريس في قسم العلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعتي المرقـــب والسابع من أبريل في ليبيا بين عامي 2001 و2009.

له عدة مؤلفات من بينها:

الأقليات والأمن القومي العربـــي.. دراسة في البعد الـــداخلي والإقليمي والدولي، (2003).

الاحتلال الأمريكي والفدرالية الكردية، (2009).

وله تحت الطبع كتاب العولمـــة والتـــدخل الإنســـاني لحمايـــة الأقليات.

نشر العديد من البحوث منها: التدخل الصهيوني في مشـــكلة جنوبـــي السودان؛ الأمم المتحدة والتدخل الإنساني.. رؤية نقدية في ظل الواقع الدولي المعاصر؛ البعد الديني لمفهوم الإرهاب في السياســـة الصهيونية؛ المسألة الكردية في العلاقات العراقية التركية وأثرهـــا في الأمن القومي العربـــي.

مسيحيو العراق

محنة الحاضر وقلق المستقبل

دهـام محمد العـزاوي

• كاتب من العراق

أثار الاحتلال الأمريكي للعراق وما نجم عنه من تدمير لمعالم الدولـة العراقيـة ومؤسساتها، وتفكيـك لبنيتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وإشعال للحرب الأهلية بين مكوناتها الإثنية، وما رافقه من قتل للعلماء وتهجير للمدنيين، وبناء عمليـة سياسية مشوهة تقوم على المحاصصـة الطائفيـة والعرقيـة، تسـاؤلات مشروعـة حـول واقـع ومستقبل الوجـود المسيحي في العـراق، فهـل ما حصل مـن عمليات استهـداف منظم للمسيحيـين وأماكـن عبادتهـم وقتـل لرجـال دينهـم وعلمائهـم وتهجيـر أبنائهم كان يستهـدف المسيحيين دون غيرهم؟ أم إن هذه الأعمال كانت تطول جميع فئات المجتمـع العراقـي بغض النظر عـن انتمـاءات العرق والطائفـة والدين؟ ومن القـوى المحلية التي تقف وراء استهـداف المسيحيين؟ ومـا المصلحـة السياسية التي تجنيهـا تلـك القوى مـن وراء استهدافهـم وتهجيرهم خـارج العراق؟ وما موقف القـوى السياسية العراقية الرسميـة والشعبية مما جرى للمسيحيين من عمليات اجتثاث وتهجير؟ فهل كانـت موحدة المواقف والآراء؟ أم إن تناقضاتهـا السياسيـة ومصالحها الذاتية كانت دافعـا لاختـلاف مواقفها مـن [illegible] تبنت تلـك القوى آليات عملية لو[illegible] للمسيحيـين عبـر حمايتهـم [illegible] المتضررين منهم، واتخاذ إجرا[illegible] لتسهيـل عـودة المهجرين منهـ[illegible] المساعدات الإنسانية لهم؟

تصميم الغلاف: سامح خلف

مـركـز الجـزيـرة للدراسـات
ALJAZEERA CENTER FOR STUDIES

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

ISBN 978-614-01-0250-7
9 786140 102507